في رحاب عاشوراء

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

المجلد الثاني

٣-٤-٥



دار الكتاب الإسلامي

فِي رِحَابِ عَاشُورَاءَ

(٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب عاشوراء

الجزء الرابع

آية الله الشيخ

محمد مهدي الآصفي

مؤسسة

دار الكتاب الإسلامي

المولف : اصفی، محمد مهدی، ۱۲۱۷ -
العنوان و المولف : فی رحاب عاشوراء / محمدمهدی الأصفی.
الناشر : قم : دارالکتاب الاسلامی ، ۱۴۳۰ ق = ۲۰۰۹ م = ۱۳۸۸ . الکتابة : العربیة .
التسلسل الرقمی : BP۲۶۰/۷/۱۱الف۶ع۹ ۱۳۸۸ تسلسل دیویی: ۲۹۷/۹۵۳۴ رقم الایداع بالمکتبة الوطنیة: ۲۱۱۰۹۷۱
الترقیم الدولي : 9789644652936 الترقیم الدولي للمجموعة : 9789644652950

الكتاب : .... في رحاب عاشوراء(٤)

المؤلف : .... آية ا... الشيخ محمد مهدي الأصفي

الناشر: .... مؤسسة دارالكتاب الاسلامي

الطبعة : .... الاولى : ١٤٣٠هـ.ق / ٢٠٠٩م

المطبعة : .... ستارة

عدد المطبوع : .... (٣٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٥-٠

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٣-٦

قم ميدان المعلم ـ شارع رقم ٢٢ ـ المبنى رقم ٣٦
تلیفون: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤
فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

فهرس إجمالي

مناقشة الفهم الآخر لعاشوراء

توطئة

هل إن معركة الطف عثرة على الطريق أم مرحلة من الطريق؟

يقول الدكتور عبد العظيم الديب بعد أن يذكر الفتوحات الإسلامية: هذا هو تاريخ الإسلام، أما معركة الجمل وصفين وكربلاء... فتلك عثرات على الطريق[1].

وهذا البحث يناقش هذا الرأي من خلال دراسة حتمية الصراع التاريخي بين حركة التوحيد وحركة الشرك.

الصراع بين حركة التوحيد وحركة الشرك

إنّ قوام التاريخ هو الصراع بين (التوحيد والشرك) وبين (الحق والباطل)، وإن ضاقت مساحته، واختفى عن الرأي العام، ولم يستقطب اهتمام الناس على وجه الأرض.

والحتمية أهم قوانين وسنن هذا الصراع، فلا يمكن أن يمتد هذان الخطان على وجه الأرض وفي حياة الناس دون أن يتقاطعا، ودون أن يؤدي هذا التقاطع إلى المواجهة والصراع، فإن حركة التوحيد تقوم في المجتمع على أنقاض الكفر والشرك، ولا يقوم للشرك والكفر أساس ولا أثر في حياة

١ـ كتاب النهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي :٦٧ سلسلة كتاب الأمة عدد:٢٧ عبد العظيم محمود الدين.

الناس إلا بزوال التوحيد. فكل منهما يطرد الآخر. وهذا التناقض بين التوحيد والشرك هو الذي يؤكد حتمية الصراع بينهما.

وإذا أردنا أن نفهم التاريخ وسننه وقوانينه وأحكامه التي يرسمها الله تعالى لنا في كتابه الكريم فعلينا أن نقرأ تاريخ الأنبياء وحركتهم في ساحة المواجهة لأقوامهم.

إنّ حركة الأنبياء ترسم لنا المعنى الحقيقي لـ(الصراع) و(التاريخ)، وترسم سنن الصراع في جبهة التوحيد وفي جبهة الشرك، وما يتطلبه الصراع من الصبر والتضحية والعطاء في كل من الجبهتين، وما يتخلل الصراع من ألوان المحنة والعذاب، وما يتعقب الصراع من نصر القلة المؤمنة وسقوط جبهة الكفر والشرك، وما يرافق الصراع من تساقط وتخاذل في صفوف أنصار الحق، ومن تبادل المواقع في كل من الجبهتين[١].

ولا شك أن من واجب الأنبياء الدفاع عن المحرومين والمستضعفين ولا شك أن الأنبياء دافعوا ووقفوا إلى جنب المستضعفين وضد المستغلين والظالمين.

ولكن هذه المعركة ليست هي المعركة الأساسية والمحورية في حركة الأنبياء، وليست هي محور صراع معركة الأنبياء، وإنما محور هذه الحركة وهذا الصراع هو الصراع بين التوحيد والشرك والحق والباطل.

حركة موسى بن عمران عليه السلام

ضمن هذا التصور للتاريخ لابدّ أن ندرس حركة موسى بن عمران عليه السلام في التاريخ.

١ـ في رحاب القرآن ٩: ٦٩ ـ ٨٨.

إن تاريخ حركة كليم الله عليه السلام هو في الصراع بين التوحيد والشرك. ومن خلال هذا الصراع نستطيع أن نفهم تاريخ موسى بن عمران عليه السلام والمنعطفات الحساسة في حركته، والعقبات التي واجهها، والأسلوب الذي اتبعه في مواجهة هذه العقبات، والإنجازات التي حققها الله تعالى على يده، والمراحل التي اجتازها وتخطّاها في هذا الصراع.

ومن خلال هذه الرؤية نستطيع أن نفهم الفتن التي حدثت في مجتمع بني إسرائيل بعد أن نصرهم الله تعالى على فرعون وأنقذهم من الغرق، وكيف دبّ الشرك مرة ثانية، من خلال حركة السامري وتضليله لبني إسرائيل، ومن خلال استجابة بني إسرائيل لتضليل السامري واستضعافهم لهارون عليه السلام وتمردهم عليه، وطلبهم للعكوف على عبادة الأصنام، عندما مرّوا على قوم يعبدون الأصنام، بعد أن أنقذهم الله من الغرق، وامتناعهم عن الاستجابة لدعوة موسى بن عمران عليه السلام، لقتال القوم الجبارين، وابتلاء الله تعالى لهم بعد ذلك بالتيه أربعين سنة[1].

وهكذا تتلقى حركة التوحيد تحديات صعبة من الشرك، وقد واجه موسى بن عمران عليه السلام هذه التحديات مرتين قبل غرق فرعون وبعده من خارج الجماعة المؤمنة من بني إسرائيل قبل الغرق والاجتياز، ومن داخل الجماعة المسلمة من قومه بعد الغرق والاجتياز، فإن الشرك لا يكفّ عن المقاومة بعد السقوط في المرحلة الأولى من المواجهة، وإنما يمارس هذه المرّة المقاومة من داخل الجهة المسلمة.

وهذه المقاومة أشقّ على الإسلام من المقاومة الأولى.

١ـ في رحاب القرآن: ٩: ٨١ ـ ٨٢.

ويبقى أن نقول إذا كان التوحيد (والإسلام) حركة في التاريخ والمجتمع، فأن (الشرك) و(الجاهلية) أيضاً حركة في مواجهة حركة التوحيد والإسلام، ومتقاطعة معها، ومهمة هذه الحركة إعاقة حركة التوحيد والإسلام، وتعطيل حدود الله تعالى وفرائضه على وجه الأرض... والخصال والشروط المقوّمة للحركة موجودة فيها، إلا أنها في الجهة المعاكسة لحركة التوحيد والإسلام، في كلّ شيء.

الفهم الصحيح للتاريخ:

واعتقد أن هذا الفهم هو أساس الفهم الصحيح للتاريخ.

فإن التاريخ صراع بين هاتين الحركتين. وليس من التاريخ كل صراع على وجه الأرض، مهما اتسعت رقعته، ومهما استهلك من الجهود والأموال والدماء، وإنما قوام التاريخ ـ كما قلنا ـ هو الصراع بين (التوحيد والشرك).

وفي المراحل الأولى من ظهور حركة التوحيد يكون الصراع من الخارج على كيان التوحيد، وعندما تنهزم حركة الشرك في الجبهة الخارجية أمام حركة التوحيد يتحول الصراع إلى الداخل.

والعدو عندما يعجز عن تسقيط حركة التوحيد من الخارج يبدأ العمل في تحريف مسار التوحيد من الداخل.

وبتعبير آخر يكون الصراع في المرحلة الأولى على التنزيل وفي المرحلة الثانية على التأويل.

والتوحيد بذلك يواجه خطرين خطر الاستئصال من الخارج وخطر التحريف والإفساد من الداخل، والأول يقوم به المشركون والثاني يقوم به المنافقون.

ولكل من هاتين المواجهتين من الخارج والداخل أثر تخريبي واسع في الدعوة، إلاّ أن الأثر التخريبي للمواجهة الثانية أوسع بكثير من الأثر التخريبي للمواجهة الأولى.

ذلك أن المواجهة الأولى تزيد الأمة في طريق تحمّل رسالة الدعوة إلى الله صلابة ومتانة وقوة، وتزيدهم استحكاماً وتماسكاً، أما المواجهة الثانية فهي تشقّق الأمة الداعية إلى الله، وتذرهم فرقاً وطوائف متناحرة، ويدخل التحريف إلى صلب الدعوة وتستهلك الدعوة وحملتها من الداخل، بينما كانت المواجهة الأولى من عوامل قوة العصابة المسلمة التي تحمل رسالة الدعوة إلى الله تعالى.

وهذه هي ظاهرة النفاق.

وقد واجه موسى بن عمران وأخوه هارونﷺ بعد هلاك فرعون وجنده والهزيمة المنكرة التي لحقتهم... وبعد النصر الذي كتبه الله تعالى لبني إسرائيل على أعدائهم... واجه موسى بن عمران وأخوه هارونﷺ هذه الحركة التخريبية الواسعة من الداخل بشكل فاعل وقوي، يندر مثله في حركة التوحيد في تاريخ الأنبياءﷺ[١].

حتمية الصراع بين التوحيد والشرك

ما هي الأسباب التي تدعو إلى القول بحتمية الصراع بين التوحيد والشرك؟

قدّمنا سابقاً القول بأن حركة التوحيد تقوم في المجتمع على أنقاض

١ـ في رحاب القرآن: ٩: ٩٣ ـ ٩٤.

الكفر والشرك، ولا يقوم للشرك والكفر أساس ولا أثر في حياة الناس إلاّ بزوال التوحيد. فكل منهما يطرد الآخر، وهذا التناقض بين التوحيد والشرك هو الذي يؤكد حتمية الصراع بينهما.

ولابدّ أن يتحقق هذا الصراع، لأن حركة التوحيد تمتدّ على مساحة نفوذ الشرك وسلطانه كلّها، ولا تمتد في الفراغ، وتحتل مساحة سلطانه ونفوذه.

ومساحة الحياة لا تتسع للشرك والتوحيد معاً، فإذا تقدّم التوحيد شوطاً كان على الشرك أن ينسحب نفس الشوط.

إنّ حركة التوحيد تمتدّ على مواقع النفوذ والقوة في المجتمع، الإعلامية منها والسياسية، والمالية، والعسكرية، والثقافية، والإدارية، ويتحرّك التوحيد باتجاه بسط نفوذه على هذه المواقع جميعاً.

وذلك أن هذه المواقع هي التي تمكّن حركة التوحيد من إزالة العقبات التي تعيق إبلاغ خطاب الله إلى الناس، وتعيق تنفيذ حدود الله... أولاً، وتمكّنها من إبلاغ خطاب الله إلى الناس ثانياً، وتمكّنها من تنفيذ خطاب الله على وجه الأرض ثالثاً... وهذه ثلاث نقاط لا يمكن أن تتحقق بغير هذه المواقع.

إنّ الصراع لدى حركة التوحيد على مواقع القوة والنفوذ ليس بَطَراً ولا رئاءاً، كما لدى الجاهلية، وإنما هو وسيلة لتحقيق رسالة التوحيد على وجه الأرض وهي هداية الناس وتطبيق حدود الله في حياة الناس.

وهذا هو تفسير صراع التوحيد والشرك (أو الإسلام والجاهلية) على مواقع القوة والقرار والمال والإعلام... والرأي القائل بأنّ كلمة التوحيد تتحرّك في حياة الناس وتتبعها إقامة الصلاة وإقامة حدود الله بالوعظ والنصح والإرشاد من دون حرب وقتال... تسطيح لهذه القضية الحضارية

المعقدة، وتبسيط لها... ولو كان كذلك لم يدخل رسول الله ﷺ في عشرات الغزوات والسرايا خلال عشرة سنوات قضاهن في المدينة بعد الهجرة.

إنّ مواقع السلطة والقرار لا يكتسبها الإسلام بغير القوّة، ولا يحافظ عليها من دون القوّة.

إذن، لكي تنطلق حركة التوحيد على وجه الأرض، لابدّ أن تنطلق من موقع القوة والسلطة والقرار، وهذه المواقع ليست شواغر وفراغات بطبيعة الحال، وإنما يحتلّها الشرك والجاهلية... فقد كانت مكّة موقعاً لنفوذ المشركين، والجزيرة العربية موقعاً لنفوذ المشركين واليهود والنصارى، وإيران موقعاً لنفوذ المجوس وسلاطين آل ساسان.

وبلاد الشام (الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان) موقعاً لنفوذ الروم الشرقية، وهكذا مصر وسائر بلاد شمال أفريقيا والمغرب الإفريقي وشرق أفريقيا، ولم يكن الإسلام يتقدّم في هذه الأرض العريضة بغير صراع وقتال على مواقع القوة. ولو كانت مواقع القوة في هذه البلاد العريضة التي حرّرها المسلمون خلال أقل من قرن باقية بيد أقطاب الجاهلية وأئمة الكفر، لم يكن بوسع الإسلام أن يزحف على هذه الأقاليم العريضة في آسيا وأفريقيا، ويحرر الناس من الإصر والأغلال في أقل من قرن.

ولا يتقدّم الإسلام إلى موقع من هذه المواقع إلاّ بانسحاب الجاهلية من نفس الموقع، فلا يجتمع الإسلام والجاهلية في موقع واحد للقوّة والقرار أبداً. والتعايش النصفي بين الإسلام والجاهلية في بعض مواقع القرار في واقعنا السياسي اليوم حالة مؤقتة تعبّر عن تقدم إحدى الحركتين وانسحاب الأخرى بالتدريج، وحالة التدرج حالة مؤقتة بالضرورة.

وعليه، فإن الصراع على موقع القوة، والقرار، والمال، والإعلام، والعسكر من حتميات التاريخ والمجتمع.

والقرآن الكريم يقرّر حتمية الصراع بين هذين المحورين بشكل جازم.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[1].

ولذلك فالتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفية مع الكفر والطاغوت تفكير فيه كثير من التسطيح وتبسيط القضايا والضعف والهزيمة النفسية.

وقد صدق ذلك الاعرابي الذي اكتشف بفطرته هذه الحقيقة حينما قال: (إن هذا الدين تخافه الملوك)، بعد ما سمع آيات من القرآن من رسول الله ﷺ.

الصراع بين التوحيد والشرك ليس على المال والسلطان:

وبناء على هذا الفهم فلا يمكن أن نقول: إن سبب الصراع بين حركة التوحيد وحركة الشرك هو المال والسلطان.

لأن الصراع بين التوحيد والشرك صراع حضاري، ليس على المال والسلطان، وليس على مساحة من الأرض وآبار من النفط ليمكن الوصول فيه إلى التفاهم والحلول الوسطية. وإنما الصراع فيه على نفي كل سلطان وحكم عن حياة الإنسان، وحصر الحكم والولاية لله تعالى في حياة الإنسان. ومثل هذا الصراع، صراع حضاري عميق، لا ينتهي إلاّ بهدم كل سلطان عدا سلطان الله، وتحكيم حكم الله وأمره على حياة الإنسان بشكل مطلق، وهذا

١ـ النساء: ٧٦.

الصراع يكون عادة صراعاً حضارياً شرساً، أشرس ما يكون الصراع في حياة الإنسان[١].

ولو كان هذا الصراع على المال والسلطان لأمكن أن يتفاهما، ويصلا إلى حدّ من التفاهم، ولكن الصراع حول حاكمية الله، وهذا صراع حضاري لا يمكن التفاهم حوله، فلا تنازل ولا تفاهم، ولا مصالحة، ولا مهادنة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٢].

والأنبياء عليهم السلام في هذا الصراع يطلبون المال والسلطان، بلا ريب، ويستولون عليهما، ولكن ليس لأنهما غاية في هذا الصراع، بل لأنّ الصراع ليس صراعاً نظرياً، وإنما هو صراع ميداني، وبالمال والسلطان تتحقق حاكمية الله على وجه الأرض.

نعم هناك حالات سلام ومصالحة وتحالف مع الكفر والاستكبار، كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله، مع قبائل من اليهود ومع قريش، ولكن لا تحمل هذه الحالات نظرياً عندنا، معنى إمكانية الوصول إلى تفاهم دائم وصلح دائم مع الكفر... فإنّ الكفر لا محالة يخترق هذا العهود وينقضها، كما صنعوا بعهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله... هذا أمر مؤكد، وفائدة الصلح والمصالحة أنها تهيئ لجبهة التوحيد فترة من الوقت، تستعيد منها ما استهلكت الحروب من قدراتها وكفاءتها.

١ـ في رحاب القرآن ٩: ٨٨ـ ٨٩.

٢ـ الكافرون: ١ ـ ٦.

فليس إذن معنى هذا الكلام: إن حركة التوحيد لا تدع السلاح، ولا يتقبل الصلح من أعدائها أو تنقض العهود والمواثيق الدولية... كلا، وإنما معنى ذلك أن تفهم هذه الجبهة حقيقية العلاقة بين الجبهتين، ولا تغرّها تصريحات العدو السلمية... وتبقى هذه الجبهة من ساحة الصراع تستجيب لنداءات الصلح لو وجدت في ذلك مصالحها، وتدخل في عهود هدنة وصلح، ولا تبادر بنقضها أبداً، ولكنها في نفس الوقت تعرف أن جبهة الاستكبار لا محالة تنقض هذه العهود وتمارس التخريب والإفساد والصد عن سبيل الله، وتعد العدة من الآن للجولة القادمة.

كيف واجه الإسلام هذين التحديين؟

تقدّم سابقاً أنّ حركة الأنبياء عليهم السلام ترسم لنا المعنى الحقيقي لـ (الصراع) و (التاريخ)، وترسم سنن الصراع في جبهة التوحيد وفي جبهة الشرك، من خارج كيان الدعوة من داخله.

وقد واجه الإسلام التحدي الأول (من الخارج) في مكة والمدينة مع عتاة قريش، وبعد ذلك إتسعت دائرة المعركة وشملت اليهود والائتلاف الواسع بين مشركي قريش واليهود في الأحزاب، وانتهى هذا الشوط بهزيمة الشرك وتحالفاته ضد حركة التوحيد.

وفي هذه المرحلة عندما انهزمت الجبهة المعادية للتوحيد هزيمة منكرة، ولم تعد هذه الجبهة قادرة على المقاومة والصمود والمشاكسة في مسيرة الدعوة، كما حدثت هذه الهزيمة في صفوف المشركين والكفار، بعد فتح مكة والطائف، وكما حدثت هذه الهزيمة المنكرة في جيش فرعون وملأه بعد ما أهلك الله فرعون وجنده في البحر... أقول: عندما تنهزم جبهة الشرك

في التقابل مع جبهة التوحيد لا تعطل مشروعها في التخريب والإفساد في جبهة التوحيد، وإنما تبادر هذه المرّة بحركة سريعة إلى تغيير موقعها في تخريب الدعوة ومهاجمتها إلى المواجهة من الداخل تحت غطاء الدين، وفي الحقيقة تنقل هذه الجبهة مهمتها التخريبية من خارج الدعوة إلى داخل الدعوة، بعد أن يتبين لهم أن محاربة الدعوة من الخارج أصبحت أمراً غير ممكن على الإطلاق[١].

وفي هذه المرحلة يكون الهدف القضاء على نقاوة الدين وسلامته وأصالته واستقامته وربانيته.

وأبرز مواقع صراع المرحلة الثانية في تاريخ الإسلام (صفين) و(الطف).

فإنّ معارك (صفين)، و(الطف) امتداد لـ (بدر)، و(الأحزاب)، و(حنين).

تحوّل بذلك المشركون إلى منافقين، يوجهون ضرباتهم إلى الإسلام من الداخل.

والآن نتساءل: أيهما أخطر على الإسلام: الذين حاربوا رسول الله ﷺ تحت لواء أبي سفيان في بدر وأُحد والأحزاب؟ أم الذين حاربوا وصيّ رسول الله وابن رسول الله ﷺ في صفين والطف، تحت لواء نجل أبي سفيان وحفيده؟ وأيّهما أشرس؟

أحيل الجواب إلى عمار بن ياسر رضي الله عنه في القضية التاريخية التالية التي يرويها نصر بن مزاحم في كتاب (صفين).

فقد عاش عمار بن ياسر رضي الله عنه المواجهتين، وعاش المعركتين، في مرحلة الصراع على التنزيل، وفي مرحلة الصراع على التأويل، فقد عاش بدراً

١ـ في رحاب القرآن ٩: ٩٢.

وأحداً والأحزاب وعاش (صفين).

كان عمار بن ياسر يقول عن راية عمرو بن العاص في معركة صفين لمن تسرب إلى نفسه الشك بعد أن سمعهم يرفعون الآذان، ويقرأون القرآن، ويقيمون الصلاة، كما يرفع الناس في جيش علي الآذان، ويقرأون القرآن، ويقيمون الصلاة !!!

قال له عمار بن ياسر رضي الله عنه:

هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتي (المقابلة لي) فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن.

ثم قال له:

أشهدت بدراً وأحداً وحنيناً أو شهدها لك أب فيخبرك عنها قال: لا.

قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب[١].

عودة إلى عاشوراء

عرفنا لحد الآن ثلاث نقاط هي:

١ ـ إن الصراع بين التوحيد والشرك صراع حضاري وليس على المال والسلطان، وإذا كانت حركة التوحيد تطلب المال والسلطان فهو ليتوصل بهما إلى المبادئ والقيم والأصول.

٢ ـ إن هذا الصراع صراع حتمي، لابدّ منه، ولا يخلو منه التاريخ.

١ـ وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٣٢١.

٣ ـ الصراع بين التوحيد والشرك يمر بمرحلتين، مرحلة التنزيل ومرحلة التأويل... ولا تَقِلّ خطورة وضراوة هذه المعركة، في مرحلة التأويل، عنها في مرحلة التنزيل.

والآن نقول: إن الذين حاربوا رسول الله ﷺ في بدر وحنين لم يتغيّروا عن مواقعهم ومراكزهم كما يقول عمار رحمه الله في صفين، وتعبير عمار رضي الله عنه دقيق (على مراكزهم يوم بدر وأحد).

هؤلاء دخلوا الإسلام مرغمين، لكنهم التفّوا على الإسلام في صفين والطف، وحاولوا أن يستعيدوا أمرين:

١ ـ مواقعهم التي سلبها الإسلام عنهم.

٢ ـ القيم الجاهلية، والعشائرية، والطبقية، والمنكرات التي كانوا يمارسونها قبل الإسلام، ومنعها الإسلام.

حاولوا أن يستعيدوا كل ذلك من خلال الإسلام، وباسم الإسلام والتوحيد، وتحت غطاء الإسلام لا باسم الجاهلية.

وهذا الخطر هو الخطر الحقيقي الذي كان يهدد الإسلام والذي عرفه علي والحسن والحسين عليهم السلام، فحاولوا مواجهته في (صفين) و(كربلاء).

الدور التخريبي لبني أميّة في الإسلام

بنو أمية لم يكونوا تجمعاً ساذجاً وبسيطاً وإنما كانوا تجمعاً سياسياً وحركياً.

وكانوا حركة سياسية بالتعبير الدقيق لهذه الكلمة، تخطط لاستعادة مواقعها السياسية والسلطوية في المجتمع الإسلامي. وأبو سفيان كان الرأس، والعقل المخطط لهذا الأمر، والعقل الثاني معاوية، وعمر بن العاص العقل

الثالث حيث كان في خدمة بني أمية وان لم يكن منهم.

كان أبو سفيان عقلاً سياسياً، يخطط لكي يصل الأمويون إلى الحكم.

وعندما تولى الخليفة الثالث أمور المسلمين دخل أبو سفيان على عثمان وقال: قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك ولا أدري ما جنة ولا نار. فصاح به عثمان: قم فعل الله بك وفعل[١].

وعمل بنو أمية على عزل الطبقة المستضعفة التي رفعها الإسلام إلى قمة الهرم الاجتماعي مثل سلمان وأبي ذر وعمار، فقد وضع بنو أمية هذه الشريحة مرّة أخرى وعزلوها عزلاً كاملاً.

وأعادوا إلى قمة الهرم الطبقة التي وضعها الإسلام، واستعادت هذه الطبقة كل مواقعها في عهد معاوية ويزيد، وما بعد ذلك واستعادت قيم الجاهلية ومنكراتها.

والفرق بين معاوية ويزيد أن يزيد كان يشرب الخمر ويعلن ذلك، وكان يأتي بالمنكرات جهاراً، ولكن معاوية كان يمارسها بالخفاء.

أقرأوا (الأغاني) لأبي الفرج، و(تاريخ دمشق) لابن عساكر لكي تعرفوا كيف حاولوا أن يضعوا من مكان (رسول الله ﷺ).

وسوف تقرأون أن الحجاج كان يقول: إن خليفة أحدكم خير من رسوله[٢]، مشيراً إلى أن الخليفة أفضل من رسول الله ﷺ.

وكيف حاولوا إثارة النعرة القومية فيما بين المسلمين والتمييز فيما بين

١ـ الاستيعاب لابن عبد البر٤: ٨٧.

٢ـ تهذيب تاريخ دمشق ٤: ٧٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد١٥: ٢٤٢.

المسلمين العرب وغير العرب من الموالي، ومحاولة طرد المسلمين من غير العرب من الساحة السياسية، بل من حواضر العالم الإسلامي أحياناً، كما حدث في عهد معاوية والحجاج، وعدم الاعتراف بإسلامهم لئلاّ تسقط عنهم الجزية.

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلاّ ثلاثة: كلب أو حمار أو مولى[1].

وكانوا يمارسون إذلال الأمة بالإرهاب.

فقد سلك حكام بني أمية مسالك عجيبة في إذلال الأمة وتحطيم شخصيتها المعنوية لغرض السيطرة عليها، وتمكين قبضتهم منها، وتصفية كل حالات المعارضة والتمرد ضد النظام.

وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يمارسون استرقاق المسلمين، وسبي المسلمات المؤمنات، واسترقاقهن، وعرضهن في الأسواق.

وبسر بن أرطأة هو أول من اقترف هذه الجريمة في تاريخ الإسلام، فسبى المؤمنات من همدان المعروفة بولائها لأهل البيت عليهم السلام، وعرَضَهُنْ في الأسواق للبيع، وكان الناس يكشفون عن سيقانهن ليشتروهن، كما يصنع تجار الرقيق في أسواق النخاسة والرقيق، وكما فعل ذلك بسر بن أرطأة عندما أرسله معاوية إلى اليمن بالمسلمات المؤمنات اليمانيات، سباهن وأقامهن في الأسواق للبيع.

وهكذا كانت سيرة بني أمية في إذلال المسلمين، واسترقاقهم، واستعبادهم، كالمشركين تماماً، وقد أسرفوا في ذلك أيّما إسراف، حتى قالوا: إن بني أمية كانت تبيع الرجل في دين يلزمه، وترى إنه يصير بذلك

١ـ وارث الأنبياء: ١٦٤.

رقيقاً[١].

وأفظع من ذلك كله وأبلغ في إذلال المسلمين، ما كان من فعل مسلم بن عقبة (وكان يسمى بمسرف) قائد جيش بني أميّة في عهد يزيد بن معاوية إلى المدينة المنورة، في وقعة الحرة المعروفة ... عندما احتل يزيد المدينة المنورة، وأباحها لجيشه، حيث دعا المسلمين إلى بيعة يزيد بن معاوية على دمائهم وأموالهم وأهليهم. وأنهم عبيد ليزيد بن معاوية يقضي في دمائهم وأموالهم وأنفسهم بما شاء[٢]. وعلى هذه الطريقة جرى بنو أمية في إذلال المسلمين وإخضاعهم لنزواتهم، ورغباتهم، وتصفية حالات المعارضة السياسية والعسكرية، وتحكيم قبضتهم على مصائر الناس وأقدارهم[٣].

وكانوا يمارسون ألوان الدعارة والابتذال في قصورهم.

ولعل الخلاعة والمجون يعتبر من أبرز سمات بني أمية.

وقد دخل الغناء والطرب والشرب والسكر والاستهتار على أيدي بني أمية إلى الإسلام من باب واسع، حتى أنهم كانوا يمارسون الغناء والطرب واستدعاء المغنين والمطربين في نوادي مفتوحة للطرب في خيام في (قلعة التوحيد والعبادة) وفي سرادقات منى.

وزاول الحكام من بني أمية ألواناً مختلفة من اللهو والمجون والخلاعة على مرأى ومسمع من المسلمين وبصورة مكشوفة وعارية، وأدخلوا الفساد إلى قصر الخلافة بأبشع صوره وأشكاله.

١ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

٢ـ الكامل لابن الأثير ٤: ١١٨، ط ١٣٨٥هـ، الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٢١٤، ط. ١٣٨٨هـ وتاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣٧، ط ١٣٩٤هـ، ومروج الذهب ٣: ٧٠، ط ١٤٠٤هـ.

٣ـ وارث الأنبياء: ٦٥ ـ ٦٧.

وكان الشرب والسكر أمراً شائعاً في قصور الخلفاء من بين أمية، وكان معاوية يمارس هذا المنكر في الخفاء، فلما تولّى يزيد ابنه أمر الخلافة أعلن هذا المنكر إعلاناً، وجرى من بعده خلفاء بني أمية على طريقته، إلاّ ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز. وكان معاوية أول خليفة يدخل الخمر في قصره[1].

يقول الجاحظ: وكان يزيد لا يمسي إلاّ سكراناً، ولا يصبح إلاّ مخموراً.

وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء.

وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً.

وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة.

وكان هشام يشرب في كل جمعة.

وكان يزيد بن الوليد، والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب. فأما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار، ولا يوجد أبداً إلاّ ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء، وليلة السبت[2].

وقد خرجت ظاهرة الشرب والسكر عند الخلفاء في عهد يزيد بن معاوية من طور الكتمان إلى طور الإعلان والاجهار، وكان يزيد بن معاوية أول خليفة يعلن اقتراف هذا المنكر إعلاناً، ويتحدى به مشاعر المسلمين[3].

وأما الغناء، فقد ولع به حكام بني أمية وكان يحمل إلى قصر الخليفة المغنون من سائر البلاد، فيستمع إليهم الخليفة فيجيزهم من أموال بيت مال

١ـ وارث الأنبياء: ٤٩.

٢ـ التاج في أخلاق الملوك: ١٥١.

٣ـ وارث الأنبياء: ٥١.

المسلمين المبالغ الكبيرة، ويستبقي عنده من ينتقي منهم، ويصرف منهم من يشاء.

وأما عن مجون الخلفاء من بني أمية وخلاعتهم واستهتارهم فحدّث ولا حرج، وما نقرأه في التاريخ لا يكاد أن يصدقه الإنسان، لولا أن المؤرخين من كل المذاهب يتفقون على مجمل ما كان يجري في قصر الخلافة الأموية من مجون وخلاعة[1].

وكان كل ذلك يتم من خلال موقع الخلافة الإسلامية، خلافة رسول الله ﷺ.

لقد كان هذا الخط الأموي تهديداً حقيقياً للإسلام في الصميم... وقد عرف الحسين عليه السلام هذه الحقائق جميعاً.

كيف ولماذا واجههم الحسين عليه السلام في كربلاء؟

وكان هَمُّه عليه السلام إسقاط آل أمية ويزيد، وسلب الصفة الشرعية عنهم، وتجريدهم عن موقع الشرعية.

وذلك أن هذا الانحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلامية، الذي كان يمتلك في نفوس المسلمين رصيداً كبيراً من الشرعية والقدسية، وقد كان بنو أمية يعتمدون كثيراً عنصر الشرعية في موقعهم السياسي والاجتماعي، وكانوا يوحون إلى الناس بطريق أو آخر أن موقع الخلافة أرفع من موقع الرسالة فيقول قائلهم: (إن خليفة أحدكم أفضل من رسوله) كما ذكرنا سابقا.

وكانوا يرون في هذا الموقع أداةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر

١ـ راجع البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٤٠، والأغاني للأصفهاني ٧: ١٧، ٤٧، ٥٩، ٦٠، ٦١. ط. دار الكتب.

الطرق، وأسهلها... فلذلك دأب معاوية على التسلط على هذا الموقع لنفسه ولابنه يزيد من بعده ولبني أمية من بعد يزيد.

وكان هذا الموقع الذي حرص عليه حكّام بني أمية من أكبر الأخطار التي تلحق الإسلام من جانب حكومة بني أمية. فقد كان الانحراف ينحدر إلى الناس من قصور الخلفاء، في إطار من الشرعية، ومن موقع خلافة رسول الله ﷺ.

وكان هناك في قصور الخلفاء من يبرّر ويوجّه هذا الانحراف، ويعطيه الصبغة الشرعية من علماء البلاط... وبالتالي كان هذا الانحراف ينعكس وينسحب على الإسلام، ويفقد الإسلام بذلك أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمة.

وقد حرص الإمام عليه السلام في حركته على كسر هذا الإطار الشرعي الذي كان يحتمي به حكام بني أمية، وسلب صفة الشرعية من حكومة بني أمية، وتجريدها عن القدسية الشرعية التي كان يحرص عليها بنو أمية كل الحرص... وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأموي في تحريف الإسلام.

وكان الإمام يجاهر بهذه الحقيقة جهاراً، ويعلن برأيه في يزيد، وعدم أهليته للخلافة، وينال منه، كلما واتته فرصة.

وقد أعلن رأيه هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر، قال عليه السلام له بعد كلام طويل، وهو يريد أن يسمع مروان رأيه في يزيد، وموقفه من البيعة:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر،

قاتل النفس، معلن بالفسق، فمثلي لا يبايع مثله»[١].

وخاطب معاوية، عندما خاطبه معاوية في أمر ولاية العهد ليزيد من بعده، ومَدَحَهُ للحسين عليه السلام:

«وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وآله أتريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، وقد دلَّ يزيد من نفسه على موقع رأيه. فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده باصراً ودع عنك ما تحاول.

وما أغناك أن تلقى الله عزّوجل (من) جور هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه... وما بينك وبين الموت إلا غمضة»[٢].

وقد كان لخروج الإمام عليه السلام على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض البيعة ليزيد، واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على يد جيش الخلافة... كان لذلك كله أثر كبير في إسقاط شرعية الخلافة، وتجريدها عن الشرعية والقدسية التي كانت الخلافة تتمتع بها[٣].

وبذلك يمكن القول أن مُهِمّة عاشوراء وكربلاء كانت بالدقة انتزاع الصفة الشرعية من آل أمية، وتجريدهم من الشرعية الإسلامية.

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي (المتوفى ٥٦٨هـ) تحقيق الشيخ محمد السماوي: ١: ١٨٤.

٢ـ الإمامة والسياسة ١: ١٨٦، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٨، أعيان الشيعة ١: ٥٨٣، الغدير ١٠: ٢٤٨.

٣ـ وارث الأنبياء: ٢١٩ ـ ٢٢١.

عودة إلى الدكتور عبد العظيم الديب

يقول الدكتور عبد العظيم الديب أنّ كربلاء عثرة على الطريق، فكيف نفسر ذلك؟

أقول: إذا كان يقصد بالعثرة بني أمية فإنه لم يفهم دور بني أمية في تخريب الإسلام.

بنو أمية لم يكونوا عثرة وإنما كانوا عقبة.

وإذا كان يقصد بذلك وقعة كربلاء، فهو لم يفهم التاريخ ولا الإسلام.

فلو كان بنو أمية يمضون في طريقهم، ويستبدلون ما شاءوا من قيم الإسلام وأفكاره، من موقع الشرعية، لم يبق اليوم من الإسلام شيء.

إنّ نقاء الإسلام الذي يعرفه المسلمون جميعاً شيعة وسُنّة بمفاهيمه النقية الناصعة، هو من بركات نهضة الحسينعليه السلام .

إن الحسينعليه السلام أفلح في إسقاط شرعية بني أمية، واستطاع أن ينتزع الشرعية من بني أمية ويجرّدهم عنها.

ومنذ عاشوراء نجد في الإسلام خطين: خط الخلفاء، وخط الفقهاء.

ونجد أن الخط الثاني يحاول أن يبتعد عن خط الأول.

بينما كان الأمر قبل كربلاء على شاكلة أخرى، فقد كانت الخلافة تمثل كلّ الشرعية الإسلاميةَ وتمثل السيادة والشرعية في وقت واحد... تمثل شرعية الفقيه والحاكم معاً.

كان الخليفة يمثل دورين متضامنين، الفقاهة والحاكمية.

وبعد حادث كربلاء تجردت الخلافة الأموية عن الجانب الفقهي،

(الشـرعي)، وبقـى الخلفـاء يمارسـون السلطان والسيادة الزمنية، كما يمارسه الحكـام فـي سـائر الأنظمـة، وتكـوّن إلـى جانـب الخلفاء خط آخر هو خط الفقهاء.

وكـان الـناس يسـتمدون الشرعية من هذا الخط، وكان الفقهاء يحرصون أن يبـتعدوا عـن الخلفـاء، وعلـى قـدر بعدهم من الخلفاء كان الناس يقبلون علـيهم، وهكـذا جـرّدت كـربلاء خلفاء بني أمية من صبغة خلافة رسول الله ﷺ ولـم يـبق لهـم مـن هـذا العـنوان الرفيع إلا الاسم، وهذا هو الأمر الذي حصـل فـي كـربلاء، وقـد حفظـت كـربلاء (الإسـلام) من تسرّب الانحراف والفسـاد مـن جانـب خلفاء أمية، وقصورهم، ولهوهم، وفجورهم، وظلمهم، واستهتارهم.

الشعائر والشعارات الحسينية

المدخل

الولاء والتعبير عن الولاء

الشعائر والشعارات من اصل واحد غير أن مفرد كلمة الشعائر (الشعيرة) ومفرد كلمة الشعارات (الشعار).

و(الشعيرة) هي ما يُشعر بالعبادة لله تعالى أو الانتماء إلى الله أو الحج، وجميعها شعائر.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللَّهِ﴾[2] أي ما يهدى إلى بيت الله ويسمى بذلك ـ كما يقول الراغب[3] ـ لأنها تشعر أي تعلم، والشعار ما يشعر به الإنسان ويعرّف به نفسه في الحرب، وجمعه (شعارات).

فالشعائر إذن هي مجموعة الطقوس والأعمال التي تُشعر بالانتماء والولاء والعبادة وما يشبه ذلك، والشعارات ما يُعرّف به المقاتل نفسه في ساحة الحرب من انتماء أو أصل أو قدرة قتالية أو استقامة على الحق وما يشبه ذلك فهما إذن يشتقان من اصل واحد وهو الإشعار والإعلام.

١ـ الحج: ٣٢.

٢ـ المائدة: ٢.

٣ـ مفردات الراغب: ٢٦٢.

وسوف نتحدث في هذا البحث إن شاء الله عن (الشعائر الحسينية) أولاً ثم نتحدث عن (الشعارات الحسينية)، ونقصد بـ (الشعارات الحسينية) ما تعارف عليه المؤمنون من أتباع أهل البيت عليهم السلام من إحياء ذكرى استشهاد أبي عبد الله عليه السلام في كل عام، بإقامة مجالس العزاء والنياحة على الحسين عليه السلام وأنصاره، والتفجع بمقتله عليه السلام، وإنشاد الشعر في ذلك بالفصحى واللهجات الشعبية الدراجة عند الناس، وخروج مسيرات العزاء على الحسين عليه السلام على هيئة مواكب إلى الشوارع، وزيارة الحسين عليه السلام من قرب وبعد، وأمثال ذلك مما يتعارف عليه المؤمنون من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويتوارثونه جيلاً بعد جيل إلى اليوم... وقد كان لأهل البيت عليهم السلام عناية خاصة بإقامة هذه الشعائر، لإبقاء ذكرى شهادة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في وجدان المسلمين حيّة، غضّة.

ونقصد بالشعارات الحسينية ما كان يرتجزه الحسين عليه السلام وأنصاره عليهم السلام في ساحة المواجهة، في مقابلة العدو من الشعر، وأكثره من بحر (الرجز) و(فعل يرتجز اشتق منه)... وقد كان من عادة المقاتلين أيام القتال بالسلاح الأبيض أن يتبارز المقاتلان في الساحة فيعرّف كل منهما بنفسه، ويذكر أصله، وحسبه، وشجاعته، ومقدرته، وصولاته القتالية.

وهذا الشعر يكشف كثيراً عن هوية المتقاتلين ونفسياتهم، والغايات التي يطلبونها في المعركة من ثأر، وسلطة، أو الدفاع عن القوم والعشيرة، أو تعصّب للأقوام والعشائر وحلفائهم، أو الدفاع عن الحق، والعدل والتوحيد... وديوان الرجز في تاريخ الجاهلية والإسلام لو جمع لكان ديواناً حافلاً بهذه المضامين الحضارية، جاهلية وإسلامية... ويسمى هذا الرجز في ساحة

القتال بـ (الشعار) (وجمعه شعارات)، ووجه التسمية أن المقاتل يُشْعر أو (يُعرّف) بهذا الرجز نفسه، وأهدافه، وانتماءه القبلي أو القومي، أو الديني، وقدراته القتالية.

وفي معركة الطف يوم عاشوراء نجد ألواناً ونماذج مختلفة من (الشعارات) القتالية للحسين عليه السلام وأنصاره من جانب، ولجند ابن زياد من جانب أخر.

ودراسة هذه الشعارات تنفع الجمهور، لأنها تكشف عن نموذجين من الناس، تقاتلا في كربلاء، يمثل أحدهما قمة من قمم التاريخ في الوعي، والإخلاص، وابتغاء وجه الله، والإيثار، والتضحية، والعطاء، والأيمان، والصبر، والمقاومة، والشجاعة، والاستماتة، في سبيل الله... ويمثل الآخر حضيض الدناءة، والفسوق، والظلم، والقسوة، والتكالب على حطام الدنيا، وابتغاء الذهب والفضة، وابتغاء وجوه الطغاة والجبابرة.

إملأ ركابي فضة أو ذهبا   إني قتلت السيد المهذبا

والشعر الذي يرتجز به هؤلاء وأولئك يكشف عن هذه الخصال وتلك، ويكشف عن عروج الإنسان إلى الله، وسقوطه في أوحال الفساد.

والتعريف بهذا العروج وذلك السقوط ينفع الناس في نهج حياتهم.

ولم تتوفر دراسة مناسبة لهذا الرجز المتقابل في ساحة الطف، واكتشاف المفاهيم والقيم وخلفيات المعسكرين المتقاتلين في كربلاء... وهي دراسة نافعة ومفيدة للجمهور الذي يحتشد حول المنبر الحسيني بالتأكيد، ونحن سوف نوفر لهذه الدراسة إن شاء الله الشطر الثاني من هذا البحث.

ولا ادّعي أنها دراسة، ولكنها على كل حال محاولة وخطوات على

الطريق، نرجو أن تتبعها خطوات إن شاء الله.

وهذا البحث يتألف من فصلين: (الشعائر الحسينية)، و(الشعارات الحسينية) ولهذين الفصلين جميعاً علاقته بالخطاب الحسيني، فإنّ الشعارات الحسينية تحمل الخط والنهج الحسيني، وهذا البحث يتناول (الشعائر الحسينية) أولاً، ثم (الشعارات الحسينية)، ونرجو أن يكون نافعاً لجمهور المنبر الحسيني إن شاء الله.

الفصل الأول

الشعائر الحسينية

نتحدث أولاً عن الشعائر الحسينية، المتمثلة في مجالس النياحة والعزاء، والهيئات والمواكب الحسينية (المسيرات الشعبية)، وزيارة الحسين عليه السلام في كربلاء، وعن بُعد، كما هو مألوف في أوساط المؤمنين في قراءة (زيارة عاشوراء) و(زيارة وارث) عن بُعد، وقرض الشعر في رثاء الحسين عليه السلام وأنصاره. وما يشبه ذلك مما هو مألوف ومتعارف في أوساط المؤمنين من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وأوّل ما يجب أن نعرفه في هذا السياق هو الدلالات التي تحملها هذه الشعائر التي ورد التأكيد عليها كثيراً في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، والتي يتعاطاها المؤمنون من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

إنّ هذه الشعائر التي تتجدد كل سنة، تحمل دلالات سياسية وثقافية واضحة، ولا نحتاج إلى توقف كثير لنكتشف الدلالات التي تختزنها مجالس النياحة، والعزاء، ومسيرات التعاطف، والتفاعل، والتضامن مع القضية الحسينية في عاشوراء.

إن هذه المسيرات والتجمّعات تحمل معنى (الشعار)، ومعنى الشعار: الإعلام، والإعلان، والإشهار... هذا أولاً، وهذا الإعلام والإعلان ينصب على (الموقف) و(الانتماء).

إنّ هـذه الشـعائر إعـلان للموقـف السياسـي والثقافـي، وإعـلان للانتماء، والهوية الحضارية والثقافية والسياسية للناس... وهذه هي النقطة الثانية.

ولماذا هذا الإصرار على إعلان (الموقف) والانتماء؟

هـذا هـو السؤال الخطـير الـذي تثيره هـذه الشـعائر ويتطلـب الجـواب الصحيح.

إنّ الإصـرار على إعلان (الموقف) و(الانتماء) بهذه الصورة من المتابعة، والتأكيد، والتحديد، لا يكون إلا في ظروف صراعات حضارية صعبة، لابدّ أن يتميّز فـيها كـل مـن المعسـكرين المتصـارعين... عـندئذ لابـدّ للأطراف المتقابلة في هذا الصراع أن تكشف عن هويتها، وتعلن عن انتمائها السياسي والحضاري... وإلا فسوف يمحق في هذه المعركة، ويكتسحه الطرف الآخر.

إنّ الصـراع اصـطفاف لمعسـكرين متقابلين... وكل عنصر يدخل في هذا الصراع لابدّ أن يحدّد موقعه وصفَه من هذه المعركة، وفي غير هذه الصورة يكتسـحه ويجـرفه الطـرف الآخـر، ولكـي لا ينجرف في ساحة الصراع إلى طـرف العـدو، لابـدّ أن يحـدّد موقعـه مـن المعـركة، ويصـطفَ إلـى جانـب المعسـكر الـذي ينتمـي إلـيه، ويعلـن عـن انـتمائه وموقعـه وموقفـه فـي تلك المعـركة... وهــذه قضــية معــروفة واضــحة فــي المعــارك العســكرية: (الاصـطفاف)، (الانـتماء)، ولا يخـتلف الأمـر فـي الصـراعات الحضـارية والسياسـية والثقافـية عن المعارك العسكرية، ففي كلّ منهما لابدّ من تحديد الانـتماء، والموقـف، والمواقـع مـن المعـركة، وإعـلان الانـتماء وإشـهار الموقف.

ونحـن نعـيش علـى وجـه الأرض فـي سـاحة صـراع سياسـي وحضـاري

وثقافي... ويجب إلا تخدعنا حالة السلام العسكري أو الهدنة العسكرية عما تختزنه الساحة السياسية والحضارية من صراع ومواجهة وصدام... وإذا كانت المعارك العسكرية تقبل الحلول النصفية والترقيعية؛ لأنها حالة الحرب، فلا تقبل الصراعات السياسية الحلول النصفية.

وليس معنى هذا الكلام إننا ننفي أو نرفض (حوار الحضارات)، فإن الإسلام لا ينغلق على هذا المشروع الحضاري في بعض الحدود المعقولة، ولكننا بصدد بيان الواقع الحضاري في حياة الناس، بعيداً عن الشعارات، وما يختزنه الواقع من صراع قاس شديد، ينتقل من جيل إلى جيل، حتى يرث الصالحون بإذن الله تعالى الأرض وما عليها، وتنتقل السيادة على وجه الأرض إلى الصالحين من عباد الله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

إنّ الصراع القائم بين فرعون وموسى عليه السلام، وبين عيسى عليه السلام وقومه، وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وعتاة قريش... لم ينقطع بعد موسى وعيسى بن مريم عليهما السلام، وبعد رسول الله صلى الله عليه وآله، والقتال في (صفين) امتداد للقتال في (بدر).

وعلي عليه السلام وعمار رضي الله عنه وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقفوا في صفين على مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه في (بدر)، ومعاوية وعمر بن العاص وقفوا في صفين على مواقف أبي سفيان وأبي جهل في بدر.

ومعركة الطف امتداد لمعركة (صفين).

ولم ينقطع هذا الصراع في تاريخنا، وإن اختفى الوجه العسكري لهذا الصراع.

١ـ الأنبياء: ١٠٥.

إنّ هـذا الصـراع يمـتد مـن جـيل إلـى جـيل، ومـن أرض إلى أرض. وما أصـدق الكلمـة المعروفة (كل أرض كربلاء، وكل يوم عاشوراء)... إنّ هذه الكلمة تعبّر عن وعي دقيق وعميق للتاريخ والصراع.

فما دام يحكم حاكم على وجه الأرض بغير حكم الله.

وما دامت حدود الله معطلة.

وما دامت الفرائض الإلهية لا تقام على وجه الأرض.

وما دام السلطان والقوة لغير دين الله.

وما دام الشرك يلوّث وجه الأرض.

وما دام الظلم يحكم عباد الله.

وما دام الاستكبار والاستضعاف يشطر الناس إلى شطرين.

ومـا دام الطـاغوت يصـدّ الـناس عن دين الله، ويحمل الفساد والظلم إلى الناس...

أقـول: مـا دام للظلـم والشـرك سـلطان علـى وجه الأرض فالصراع باق لا محالـة، ولم يكن خروج الحسين عليه السلام على حكومة بني أُمية إلا تجسيداً لهذا الصراع، وتأكيداً وتعميقاً له...

ولـم يكـن للحسـين عليه السلام دعـوة ولا غايـة فـي هـذا الخـروج إلا الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونحـن الـيوم فـي سـاحة الصـراع نقـف عـند مواقـف إبراهـيم، وموسـى، وعيسـى عليهم السلام ومواقـف رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلـى مواقـف الحسن والحسين عليهما السلام، والطغـاة، والجـبابرة، وأئمـة الضـلال والكفـر وأذنـابهم، يقفـون على مواقف نمرود وفرعون وأبي جهل وأبي سفيان وآل أبي سفيان.

وفي هذا الاصطفاف الحضاري والسياسي لابدّ من إعلان (الموقف) وإشهار (الانتماء).

وهذا هو معنى الشعار والشعائر.

والشعائر الحسينية تقع في هذا السياق.

إذن لكي نفهم قيمة الشعائر الحسينية ودورها في حياتنا الحضارية، والسياسية، والثقافية، وضرورتها، وأهميتها التاريخية لابدّ أن نتوقف عند المفاهيم الثلاثة التالية التي تحدثنا عنها هذه المقدمة وهي:

(الشعار) و(الانتماء) و(الصراع):

الحاجة إلى الشعار والإشعار تبرز في ساحات الصراع العقائدي والعسكري غالباً، فإن الشعار: إشعار بالانتماء. ونقصد بالانتماء ما نقصده بكلمة (الولاء) في المصطلحات الإسلامية.

والشعار إشعار بالولاء، وليس هو الولاء.

وتتأكد الحاجة إليه في ساحات الصراع، لأن الإنسان يحتاج إلى أن يذكّر نفسه بولائه وانتمائه في ساحات الصراع، فإن الشعور بالانتماء والولاء يثبّت أقدام الإنسان في ساحة الصراع، ويختلف المنتمي عن اللامنتمي كثيراً في الثبات على الموقف... ولذلك يحتاج المقاتل أن يشعر نفسه ويذكّرها بولائه بصورة مستمرة، ليثبّت أقدامه على ارض المعركة.

وكان المقاتلون يحتاجون في ساحات القتال والمعارك والعسكرية إلى الشعار حتى يعرف به عدوه عن صديقه... فقد كانت صفوف المقاتلين تتشابك في القتال عندما كان القتال يجري بالسلاح الأبيض، فلكي يميّز المقاتلون خصومهم عن أصدقائهم، ومن يقاتلونه عمّن يقاتلون معه، كان

يتّخذ كل معسكر لنفسه شعاراً واحداً ليتمايزوا به عندما تشتبك صفوف المقاتلين... وهذه الشعارات كانت تعبّر غالباً عن انتماء كل منهما العقائدي والقومي والوطني والديني، حسب نوع المعركة... وهكذا شاعت ظاهرة الشعارات في الحروب... هذا عن (الشعارات) في ساحة المعركة.

وأمّا (الشعائر) التي يتخذها الناس في سلوكهم الاجتماعي الديني والحضاري فهي أيضاً نوع من التعريف بانتمائهم الديني والثقافي والحضاري في ساحة الحياة... وساحة الحياة ساحة صراع دائماً، وهذا الصراع هو صراع الولاءات... وما يحتاجه المقاتل في ساحات القتال يحتاجه في ساحات الصراع الحضارية أيضاً من الإعلان عن انتمائه وولائه، تثبيتاً لمواقفه في هذه الساحة، وتعريفاً بانتمائه وولائه.

وفي هذا البحث نتحدث إن شاء الله عن الشعائر الحسينية والشعارات الحسينية.

وحديثنا عن (الشعائر الحسينية) يخصّ ساحات الصراع العقائدي والثقافي وهي ساحات لصراع الولاءات... وهو من أضرى أنواع الصراع في حياة الإنسان.

وهذا الصراع قائم بين أنصار الحسين عليه السلام ـ على امتداد التاريخ ـ وخصومه.

ولم تنقطع المقابلة والمواجهة بين جبهة الأنصار والخصوم منذ يوم عاشوراء من سنة ٦١ هـ إلى اليوم البتة، وسوف يمتدّ ويستمر هذا الصراع، حتى يظهر من يثأر لخط الحسين عليه السلام ودعوته، آخر الزمان، وهو المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله، من أحفاد الحسين عليه السلام.

وأمّا (الشعارات الحسينية)، فسوف نتحدث عنها في فصل آخر من هذا البحث إن شاء الله.

ونقصد بها الشعارات التي كان الحسين عليه السلام وأنصاره يرفعونها في ساحة القتال للتعريف بأنفسهم ودعوتهم وانتمائهم وولائهم.

وعلى كل حال، فإنّ (الشعائر) و(الشعارات) من باب واحد، تخصّ ساحات الصراع والمواجهة، للتعريف بانتماء الإنسان وولائه في ساحة الصراع.

وعليه فسوف نتحدث عن ثلاثة مفاهيم للدخول في البحث عن (الشعائر) و(الشعارات الحسينية).

وهذه المفاهيم الثلاثة هي:

(الصراع) أولاً.

و(الانتماء والولاء) ثانياً.

و(الشعار) ثالثاً.

وفيما يلي إيجاز لهذه المفاهيم الثلاثة تمهيداً للدخول في هذا البحث إن شاء الله.

أولاً: حتمية الصراع

نقصد بالصراع الصراع بين الحق والباطل.

ونلخص الحق في كلمة (التوحيد)، لأن التوحيد محض الحق والحق الخالص، ونلخص الباطل في كلمة (الشرك)، لأن أعظم أمرين يرجع إليه الشرك هو: الهوى والطاغوت، وهما دعامتا الشرك، وهما محور كل فساد وشر في حياة الإنسان.

فالصراع إذن هو الصراع بين (التوحيد) و(الشرك)، وهذا الصراع هو العمود الفقري للتاريخ.

والتاريخ ليس مسلسل أحداث من نوع (ألف ليلة وليلة) حتى وان لم تكن أحداثها من نسيج الخيال، كما في ألف ليلة وليلة.

وإنما قوام التاريخ هو الصراع بين (التوحيد والشرك) وبين (الحق والباطل) وإن ضاقت مساحته، واختفى عن الرأي العام، ولم يستقطب اهتمام الناس على وجه الأرض.

ذلك أنّ التاريخ حركة الإنسان إلى الله تعالى.

وفي هذه الحركة يتكامل الفرد والمجتمع.

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[1].

وكل ما يسهم في حركة الإنسان إلى الله، ويقدمه إلى الله مرحلة، أو خطوة يدخل في حركة التاريخ، وما لا يدخل في هذه الحركة من جهد وعمل وصراع من (استهلاك التاريخ) وليس من حركة التاريخ وإنتاجه، وهو على هامش التاريخ، وليس من صلبه.

وحركة الإنسان إلى الله تعالى تتم من خلال مكافحة (الهوى) و(الطاغوت). وهما أهم عاملين من عوامل الشرك.

إذن التاريخ هو الصراع بين التوحيد والشرك وهذا الصراع من حتميات التاريخ.

والسبب في ذلك واضح لأن ساحة الحياة لا تتسع للتوحيد والشرك معاً. إن كلا من هاتين الحركتين (ونسميهما حركتين لان الطابع الحركي هو الطابع البارز عليهما في ساحة الصراع عندما يتقابلان في جبهتين متصارعتين)...

١ـ الانشقاق: ٦.

أقول: إن كلا من هاتين الحركتين يسعى للتمدّد على كل الساحة الثقافية والسياسية والاقتصادية، وملأ كل الفراغات. وهذا التمدّد، بطبيعة الحال يتم على حساب الحركة الأخرى، وبهذا التوجيه لا تتسع لهما ساحة الحياة.

إن (التوحيد) حركة شاملة واسعة في حياة الإنسان يسعى لكي يطبع حياة الإنسان بطابعه المتميز الخاص، ويكوّن ثقافة الإنسان ووعيه وحضارته وأعرافه وتقاليده، ويحكم حياته، ويدخل في نسيج علاقاته الاجتماعية والعائلية... ولا يتم هذا التمدّد الواسع للتوحيد في حياة الإنسان إلاّ على حساب الشرك، وعلى مواقعه ومراكزه الذي يطلبه أو يحكمه ويقيم فيه... وكذلك الأمر بالعكس.

إن الغاية التي تسعى إليه حركة التوحيد في الحياة هي تحقيق السيادة والحاكمية (التشريعية) لدين الله وشريعته في حياة الإنسان... وهذه الحاكمية تتم بطبيعة الحال على حساب سلطان الهوى والطاغوت في الحياة... ولا تتسع الحياة لسلطان الله (تشريعا) وسلطان الهوى والطاغوت.

والهوى والطاغوت كما قلنا هما دعامتان أساسيتان لحركة الشرك.

لذلك فإن الصراع صراع على الحياة والموت، وهو صراع مصيري لا ينتهي إلاّ بنهاية أحدهما، ولا يمكن المصالحة بينهما إطلاقاً.

وهذا الصراع حتمي.

ولابدّ من الإشارة إلى بعض النقاط الهامة في هذا الصراع.

١. محور الصراع

الذي يقرأ القرآن بإمعان، ويستعرض حركة الأنبياء، ومسار التاريخ في كتاب الله ويجرّد نفسه وفكره عن كل المسبقات الذهنية لا يشك للحظة

واحدة أن التاريخ هو الصراع، وأن محور هذا الصراع هو المواجهة بين التوحيد والشرك.

بقي أن نقول: إن كلاً من التوحيد والشرك محور حضاري وثقافي يستتبع طائفة من القيم وأضداد القيم والسنن والمفاهيم والأفكار والأعمال.

ومن قيم التوحيد وأفكاره وأعرافه: الخضوع والتذلل لله تعالى، مقابل الاستكبار والعصيان والطغيان، والشكر مقابل الكفران، والزهد مقابل الجشع والطمع، والسيطرة على الشهوات والغرائز (التقوى) مقابل الخضوع لسلطان الشهوات، والإخلاص لله ونكران الذات في مقابل الأنانية، والرقة مقابل القسوة، والتحرر من الشهوات مقابل الخضوع لسلطان الشهوات، والتوازن والموازنة في مقابل الإفراط والتفريط.

وإذا وجدنا (قيماً) في جناح الشرك فهي ليست من نتائج الشرك وإنما هي من بقايا فطرة التوحيد في نفس الإنسان.

ذلك أن القيم دائماً في جبهة التوحيد، وإذا وجد ضدها في هذه الجبهة فقد تسلل من جبهة الشرك إليها والعكس كذلك صحيح. فلا يكاد ينتج من الهوى والطاغوت إلاّ الظلم والمنكرات والقبائح وسائر أضداد القيم.

إن التوحيد ثقافة وقوة، ونظام اجتماعي، وعلاقات، وكذلك الشرك ثقافة، وقوة، ونظام اجتماعي، وعلاقات، فلا محالة يتزاحمان على مواقع الحياة الاجتماعية والسياسية والإعلامية والمالية، ويتصارعان.

٢. التاريخ هو الصراع

إن الذي ينعم النظر في القرآن ينتهي إلى نتيجة لا يشك فيها، وهي أن التاريخ في القرآن، هو الصراع في طريق الحركة إلى الله، بين الحركة

الصاعدة إلى الله، والحركات المعيقة للإنسان عن هذا الصعود.

والذي نجده في القرآن من التاريخ، في سياق هذا الصراع مباشرة، أو بصورة غير مباشرة.

وما عدا ذلك من أحداث التاريخ وعلى هامش التاريخ.

وقد يحتل هذا الهامش مساحة واسعة من حديث الناس واهتمامهم، ومن اهتمام وكالات الأنباء والصحافة في عصرنا، ولكن رغم ذلك كله يبقى على هامش التاريخ، كما تستقطب لعبة كرة القدم اهتمام الناس جميعاً وتشدّهم إليها، إلاّ أنها تبقى على الهامش. وقد لا يستقطب الحدث اهتمام الناس كثيراً، ولكنه يدخل في صلب التاريخ.

فقد حدثت معركة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بين المسلمين والمشركين، ونصر الله المسلمين على المشركين في تلك المعركة... حدثت هذه المعركة في رقعة نائية من الصحراء، ولم ينتبه الناس يومئذٍ على وجه الأرض إلى هذه المعركة ونتائجها، ولكنها دخلت صلب التاريخ، وقررت مصير الحضارة الإنسانية... وفي نفس الوقت تقريباً حدثت معركة أخرى بين الروم والفرس (القوتان الكبريان في الأرض حينئذ)، وانتصر الروم على الفرس، وقد استقطبت هذه المعركة اهتمام الناس كثيراً في ذلك الوقت، فقد كان حدثاً كبيراً جداً في حساب معادلات القوى يومئذ على وجه الأرض.

ولكن هذا الحدث الثاني، رغم استقطابه لاهتمام الناس لا يدخل في صلب التاريخ.

إن معركة بدر تقرّر التاريخ، وتدخل في صلب التاريخ، ولم يكد يشعر بها إلاّ قلة من الناس في الجزيرة يومئذٍ. أمّا هذه المعركة الكبرى بين قوتين

عملاقتين على وجه الأرض، فلا يحلّ في التصور القرآني إلاّ على هامش التاريخ.

يقول تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

لقد انتصر الفرس على الروم، والمسلمون يومئذ بمكة فسُرّ المشركون بذلك، لأن الروم كانوا ينتحلون المسيحية، ولم يكن الفرس ينتحلون هذا الدين.

فأخبرهم الله تعالى أن الروم سيغلبون الفرس بعد هذه المعركة في بضع سنين وهذه واحدة من أخبار القرآن الغيبية التي تحققت بعد ذلك.

ثم يخبرهم الله أن انتصار الروم على الفرس يقترن بفرحة المؤمنين يومئذ بنصر الله تعالى لهم (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّه).

ولقد اقترن انتصار الروم على الفرس بانتصار المسلمين على المشركين ببدر... وهذا إخبار غيبي آخر من أخبار القرآن الغيبية.

أقول: إن الحدث الأول في هذا الاقتران وهو انتصار الروم على الفرس استقطب يومئذ كل اهتمام الناس، بينما الحدث الثاني المقارن للحدث الأول وهو انتصار المسلمين على المشركين ببدر لم يثر انتباه الناس إلاّ في دائرة محدودة جداً.

ورغم ذلك يدخل الحدث الثاني في صلب التاريخ، ويبقى الحدث الأول على هامش التاريخ، في التصور القرآني وفي واقع التاريخ.

١ـ الروم: ١ ـ ٥.

ونحن عندما نقرأ القرآن لا نتوقف كثيراً في أن نقول أن التاريخ في التصور القرآني هو الصراع.

وإليك نماذج من هذه الآيات:

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

وفي سورة الحج:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

في آيتي البقرة والحج، يتقرر التاريخ من خلال الصراع. فلولا الصراع لا يمكن إزالة الباطل عن مواقعه، ولولا الصراع لركن المؤمنون إلى الدعة وحياة اليسر والعافية، فلم يقدروا على الدفاع عن الصلوات والمساجد التي يذكر فيها اسم الله، وضعفوا عن الدعوة والعمل لبسط التوحيد على وجه الأرض[3].

١ـ البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

٢ـ الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

٣ـ في رحاب القرآن ٥: ١٤٧ ـ ١٤٨.

٣. عمق الصراع

إن الصراع بين جبهة التوحيد وجبهة الشرك صراع بين القيم وأضداد القيم، وبين الأخلاق واللاّأخلاق، وبين العروج الإنساني والسقوط الإنساني.

لقد سمع الناس يوم عاشوراء للحسين عليه السلام خطاباً عجيباً، يدخل في صلب حديثنا هذا.

يقول عليه السلام لهم: «إن لم يكن لكم دين... فكونوا أحراراً في دنياكم»[1].

ومعنى هذا الخطاب: إنكم إذا تحولتم عن دين الله وتخليتم عنه، فلا تتخلوا عن القيم التي أودعها الله تعالى في أنفسكم، لأن الطاغوت لا يفسد دين الناس فقط، وإنما يفسد قيمهم وأخلاقهم وفطرتهم وضمائرهم أيضا.

فالصراع إذن بين هذين المحورين صراع حضاري، صراع على القيم والأفكار والمفاهيم، لا يقبل المصالحة والحلول النصفية وليس صراعاً على آبار من النفط، أو مساحة من الأرض، أو نهر من الماء. ليتأتى لهم المصالحة والوصول إلى حلول وسطيّة.

٤. شمولية الصراع وحتميته

وهذا الصراع بالضرورة صراع شامل حتمي يشمل كل المساحة التاريخية وكل المساحة الجغرافية.

كل التاريخ وكل الجغرافية السياسية للأرض، أعني كل زمان ومكان. والزمان والمكان وعاءان في المفهوم الفلسفي، وهما وعاءان للحركة في المفهوم الحضاري ومقومان للحركة.

١ـ بحار الأنوار ٤٥: ٥١.

وهـذا الصـراع قـائم في كل زمان ومكان، لأن الصراع بين الحق والباطل قائم في كل زمان ومكان، كما أن الدعوة إلى التوحيد والحق قائمة في كل زمان ومكان، ومهمة الهوى والطاغوت إعاقة حركة التوحيد والحق في كل زمان ومكان.

وهـذا هـو معنى شـمولية الصـراع الوارد في الكلمة المعروفة (كل ارض كربلاء وكل يوم عاشوراء).

فالـزمان (:كـل يـوم) والمكـان (:كـل أرض) أكـثر مـن وعائين لحضارة الإنسـان... إنهمـا وعـاءان لحضـارة الإنسان، ومقومان لها أيضا، يتفاعلان مع الإنسـان، ويمـنحانه ويـأخذان مـنه. والإنسـان فـي تفـاعل مسـتمر مـع الزمان والمكان، يأخذ منهما ويمنحهما ويؤثر فيهما ويتأثر بهما.

وعـندما نقول: (كل أرض كربلاء، وكل يوم عاشوراء) يعني: أن الصراع جزء حتمي لا يتجزأ من حضارة الإنسان. وهذا الصراع يمتد زماناً ومكاناً مع حضارة الإنسان.

ثانياً: الانتماء

نقصـد بالانـتماء الانـتماء الحضـاري والحركـي والسياسي، وهو ما يسميه القرآن بـ(الولاء).

يقـول تعـالى: ﴿إِنَّمَـا وَلِـيُّكُمُ اللّـهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1].

والذين ينتمون إلى ولاء واحد يشكّلون نسيجاً حضارياً وسياسياً وحركياً

١ـ المائدة: ٥٥.

واحداً، لا اختلاف بين أجزائه.

ولا علاقة لهذا النسيج بالنسب والدم واللغة والعرق. فقد نفى الله تعالى ابن نوح من نوح وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[١]، وهو ابنه من لحمه ودمه..

وأضاف رسول الله ﷺ الصحابي الجليل سلمان رضي الله عنه إلى أهل بيته، فقال ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت»[٢]، وهو فارسي من أصل مجوسي.

والانتماء والولاء، يشطران الناس شطرين اثنين: (شطر الولاء والانتماء، وشطر البراءة والمقاطعة).

ولا تحتمل ساحة الولاء شطراً ثالثاً، فإذا لم يكن الإنسان مع الله ورسوله والمؤمنين، فهو لا محالة مع أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين، كما قال العبد الصالح نوح عليه السلام لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾[٣][٤]. فمن لم يركب السفينة مع نوح عليه السلام وأتباعه... لا محالة يكون مع الكافرين.

والولاء في الإسلام من مقولة (التوحيد)، وعندما تتعدد محاور الارتباط في حياة الإنسان ينتفي الولاء رأساً.

فليس كل ارتباط في حياة الإنسان من الولاء الحق، وإنما الولاء الحق هو الارتباط النابع من القلب الحاكم على كل صلات الإنسان وعلاقاته[٥].

إن الانتماء من ضرورات ساحة الصراع في كل صراع حضاري بين

١ـ هود: ٤٦.

٢ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ١: ٧٠.

٣ـ هود: ٤٢.

٤ـ في رحاب القرآن ٥: ١٨٦ ـ ١٨٧.

٥ـ في رحاب القرآن ٣: ٣٣٠.

التوحيد والشرك. والناس لا خيار لهم في ساحة الصراع بين الانتماء واللاانتماء، وإنما خيارهم بين شقّي الانتماء، أي الانتماء إلى جبهة الحق أو الباطل.

وكل إنسان يستطيع أن يختار إحدى الجبهتين هذه أو تلك، ولكن لا يستطيع أن يقف موقف اللامنتمي من ساحة الصراع، إنّه عندما يقف على حافة الصراع بين الحق والباطل لا يملك إلاّ واحداً من خيارين، وهو الانتماء إلى الحق أو إلى الباطل.

ومعنى ذلك أن المواقع الحضارية والسياسية على ساحة الصراع موقعان: الولاء لله أو للطاغوت، وليس ثلاث مواقع.

وأما المواقع في ساحات الصراع والتنافس غير الحضارية فهي ثلاثة: فعندما تحدث مشكلة بين دولتين، لك أن تنحاز إلى جانب الدولة الأولى أو الثانية، ولك أن لا تقف مع هذا ولا ذاك، فتكون محايداً.

ولكن في ساحة الصراع الحضاري تكون المواقع اثنتان: الانتماء إلى جبهة الحق أو الباطل، وليس من ثالث.

والسبب في ذلك أن الله تعالى وهو المحور الأول في هذا الصراع يطلب من الناس جميعاً الانتماء والنصرة، ويدعوهم إلى النصرة، والانتماء، والولاء، وشدّ حبلهم بحبل الله تعالى.

وهذا الارتباط والانتماء هو الذي يعصم الإنسان في ساحة الصراع من سلطان الهوى والطاغوت، ويحصّنه منهما، فإذا قطع ما بينه وبين الله من الولاء والانتماء وقع في شرك الشيطان وأسر الطاغوت والهوى لا محالة.

يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[1] وحبل الله

١ـ آل عمران: ١٠٣.

ليس فقط محور للانتماء إلى الله، وإنما هو عاصم من الانتماء إلى جبهة الباطل أيضا. يحصّن الإنسان من الانتماء إلى الطاغوت والهوى.

والإنسان الذي ينتمي إلى ولاء الله يحصّنه الله ويحميه.

وولاء الله في حياة الإنسان موقع حصين.

وقد ورد في الحديث القدسي الصحيح: «لا إله إلاّ الله حصني»[١].

والإنسان الذي لا ينتمي إلى هذا الحصن ويعيش في الموقع الوسط... مكشوف للعدو لا محالة، لأن الموقع الوسط (موقع اللامنتمي) موقع مكشوف، ومعرّض لسطو الطاغوت والهوى والشيطان.

ومن خلال هذه المعادلة نقول:

إن اللامنتمي إلى الله ينتمي إلى الطاغوت لا محالة، فإنه لا يوجد موقع وسط بين الانتماء إلى الله والانتماء إلى الطاغوت، وإنما هما موقعان وليس ثلاثة على الخارطة السياسية بين الحق والباطل.

والى هذا المعنى يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش ابن سعد:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها[٢] على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم»[٣].

وما أروع تعبير الإمام وأصدقه بهذا الصدد: (سللتم علينا سيفاً لنا في

١ـ حديث سلسلة الذهب، عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ١: ١٤٤.

٢ـ أي: أوقدتم علينا ناراً كنا قد اقتدحناها واستخرجناها نحن على عدوّنا وعدوّكم.

٣ـ مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢٦٢، ط. النجف ١٣٧٦هـ

أيمانكم). هذا السيف الذي كان بأيدي الناس في كربلاء يقاتلون به الحسين عليه السلام كان للإسلام وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله. أعطاهم هذا السيف وهذه القوة، بعد أن كانوا أمة ضعيفة مستضعفة في قلب الصحراء، لا تكاد تجد في حياتها حركة أو عزماً أو قوة على المواجهة، فاستثار الإسلام كوامن الحركة، والقوة والعزم والانطلاق والبناء في نفوس هؤلاء الناس، واستخرج الإسلام كنوز القدرة والحركة والثورة في نفوسهم.

وتحولت هذه الأمة الراكدة إلى حركة حضارية جبارة على وجه الأرض وفي التاريخ، تحرق الجبابرة والطغاة[1].

هذا السيف الذي أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله ليقاتلوا به أعداء البشرية وطغاتها: كسرى وقيصر وأبا سفيان، وأبا جهل وأقطاب الجاهلية، تحول من قتال آل أبي سفيان إلى قتال آل رسول الله صلى الله عليه وآله وابنه.

يا ترى كيف حصلت هذه الانتكاسة الكبيرة في مسيرة الرسالة؟

هذا هو السؤال؟

وهذا هو ما يشير إليه الإمام في خطابه لجيش بني أمية يوم عاشوراء.

(سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم... فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم) يعني: لم يتحول السيف فقط من قتال أعداء الله إلى قتال أولياء الله، وإنما انقلب نسيجكم إلى نسيج آل أبي سفيان، فأصبحتم من ذلك النسيج إلباً لأعدائكم على أوليائكم. دون أن يتغير شيء منهم، أي دون أن يتحول آل أبي سفيان من مواقعهم إلى مواقعكم، وإنما أنتم الذين تحولتم من مواقعكم إلى مواقعهم. فالانقلاب في السيوف حصل نتيجة للانقلاب

١ـ وارث الأنبياء: ٢١٤.

في المواقع السياسية والحضارية.

ولماذا هذا الانقلاب في السيوف وفي المواقع؟

هذا هو السؤال الخطير.

والجواب يكمن في موقع اللاإنتماء من ساحة الصراع بين الحق والباطل.

في ساحة الصراع إتخذ بعض الناس سياسة اللامنتمي، وقالوا نحن نعتزل المعركة ما دامت المعركة بين المسلمين.

وهذه سياسة الاعتزال التي سلكها عبد الله بن عمر وغيره قادته أخيراً إلى بيعة يزيد والحجاج.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكنه من اتخاذ موقف قوي تجاه البيعة ليزيد، فقد كان أمر يزيد في ظلمه واستهتاره بحدود الله، وفسقه وشربه، أشهر من أن يخفى على أحد، وما كان أولى بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر ويعلن امتناعه عن البيعة ليزيد بما يعرفه عامة الناس من يزيد من فسوق وفجور.

هؤلاء رفعوا شعار: (إذا ظهرت الفتنة فالجالس خيرٌ من القائم، والمضطجع خير من الجالس)، فغمدوا سيوفهم في صفين والجمل والنهروان، وفي قتال الحسن عليه السلام ومعاوية، ثم انقلبت هذه السيوف التي غمدوها أيام علي والحسن عليهما السلام إلى جانب بني أميّة في وجه الحسين عليه السلام، بعد هلاك معاوية وفي ولاية يزيد.

ثم يقول عليه السلام في نفس الخطاب:

(فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم).

أرأيتم كيف ينقلب اللامنتمي إلى المنتمي؟ لقد قلنا قبل قليل: ليس لنا ثلاثة مواقع على خارطة الصراع بين الحق والباطل وإنما هما موقعان؟

ووقعة الطف واحدة من الأحداث الكبرى التي لا تسمح لأحد بأن يتردد طويلاً، ويقف موقف المتردد والشاك، أو المتفرج الذي لا يعنيه الأمر... فمن لم يقف مع الحسين عليه السلام يوم الطف بسيفه وعواطفه وأحاسيسه وولائه... كان مع يزيد لا محالة.

والبراءة واللعن لا يخصّ فقط أولئك الذين قاتلوا الحسين عليه السلام أو أمروا بقتله يوم الطف، وإنما يعمّ أيضا الذين سمعوا بمصرع الحسين عليه السلام ورضوا به. هكذا ورد في زيارة وارث (**فلعن الله أمة قتلتك، ولعن الله أمة ظلمتك، ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به**)...

ونضيف هنا ونقول: إن الذين سمعوا، ولم يثوروا، ولم يقفوا مع الحسين عليه السلام، انجرّوا لا محالة إلى موقع الرضا بما فعله بنو أمية، وموقع الرضا من مواقع اللعن والبراءة.

الطوائف الملعونة في زيارة وارث

وهذا اللعن يشمل ثلاث طوائف:

١ـ الطائفة المباشرة للقتال.

٢ـ الطائفة غير المباشرة الداعمة للقتال.

وهي الطائفة التي ظلمت الحسين عليه السلام وجارت عليه ومكّنت منه، وشايعت، وبايعت، وظاهرت عليه، وخالفته... وحالفت أعداءه.

وهذه الطائفة تشمل كل أولئك الذين أعَدُّوا لقتال الحسين عليه السلام أو مكّنوا منه، أو خالفوه، أو ظاهروا عليه، أو ساهموا في الإعداد لقتله، أو أعانوا الطاغية في قتاله، بنحو من الأنحاء، وتشمل أشياع هؤلاء جميعاً وأتباعهم.

وقد ورد اللعن والبراءة عن هذه الطائفة، (وهي طائفة واسعة) بصيغ

مختلفة في زيارات الحسين عليه السلام، ففي زيارة عاشوراء المخصوصة:

(لعن الله أمة أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت، ولعن الله أمة دفعتكم عن مقامكم، وأزالتكم عن مراتبكم التي رتّبكم الله فيها... ولعن الله الممهّدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم).

٣ـ الطائفة المتفرجة على القتال، الراضية بما جرى على أبن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي التي سمعت بذلك فرضيت به.

وهذه الطائفة تستوقف الإنسان طويلاً، فمن هم أولئك الذين سمعوا بذلك فرضوا به؟

إن هذه الطائفة ليست بالتأكيد مشاركة في القتال، ولا هي مشاركة في ممارسة الظلم بصورة عملية، وإلا لكانت تدخل ضمن الطائفة الأولى والثانية، ولم يكن من موجب لأفرادها بالذكر ثالثاً، فهذه الطائفة لابدّ وان تكون ـ إذن ـ ممن سمعوا إستنصار الحسين عليه السلام ولم ينصروه، وآثروا العافية على الوقوف بجانب سيد الشهداء عليه السلام في معركة الطف، وخذلوا سيد الشهداء عليه السلام ولم ينصروه يوم عاشوراء...

وقد ذكرت هذه الطائفة في نصوص أخرى للزيارة بصيغ مختلفة، كلها تَصُبّ في معنى التخاذل عن نصرة أبي عبد الله عليه السلام والتقاعس عن الالتحاق به، وإيثار العافية على الوقوف إلى جانب سيد الشهداء عليه السلام، فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية:

(لعن الله أمة قتلتكم وأمة خالفتكم، وأمة جحدت ولايتكم، وأمة

ظاهرت عليكم، وأمة شهدت ولم تستشهد)[١].

وهذه هي مساحة البراءة واللعن وهي مساحة واسعة جداً في الماضي والحاضر لأن الطائفة الثالثة تشمل كل الناس في كل العصور، ولا يبقى خارج المساحة إلاّ المنتمي إلى جهة التوحيد.

وهذا هو معنى حتمية الانتماء، أن الإنسان لا يمكن أن يعيش من دون انتماء في ساحة الصراع بين الحق والباطل.

ثالثاً: الشعار

قلنا أن الشعار بمعنى الإشعار أي الإعلام، إعلام الموقف وإعلان الانتماء.

والإشعار بالموقف من ضرورات الانتماء والموقف، فلا ينجح موقف بدون إعلان، إلاّ في ظروف التقية، ولا يجوز أن يتكتمّ الإنسان على انتمائه إلاّ إذا اقتضت ذلك مصلحة الانتماء نفسه، وهذا هو التقية، وهي التكتم وإخفاء الموقف لمصلحة نفس الانتماء.

والصراع بين الحق والباطل عميق، وواسع، وشامل، وجذري، ولا يمكن أن يتم من دون إعلام وإعلان وإشهار.

إن هذا الصراع دائم وشامل، ولا يختص بمكان دون مكان، وزمان، دون زمان حتى يمكن إخفاؤه في زمان دون زمان آخر.

والإعلام جزء من الصراع، والمعترك معترك الانتماء والإعلان للانتماء.

ونحن علينا أن نعلن عن ارتباطنا وولائنا وانتمائنا على كل حال.

١ـ في رحاب القرآن ١٢: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

وهذا الإعلان والإشعار يتم (بالشعار) في ساحة المعركة. عندما يشتبك الصفّان يتمايز الطرفان بالشعار، فقد كانت الحروب سابقا بالسلاح البارد، فإذا اشتبك الطرفان بالقتال، فلا يكاد يميز المقاتل عدوه، فيتمايزان بالشعارات.

إن ساحة الصراع ساحة متشابكة متداخلة والشعار هو الذي يميز الناس بعضهم عن بعض.

إن الشعار يدعم نفوس المقاتلين ويحصّنهم من الهزيمة النفسية، ويمنحهم مناعة ضد الهزيمة النفسية، ولذلك يقول تعالى:

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[١].

والتقوى الحصانة والمناعة من الانزلاق.

والشعار يكشف عن مساحة الانتماء والولاء والانصهار.

فإنّ إقامة صلاة الجمعة في البيوت عبادة، وليست شعاراً، ولكن إقامتها في المساجد عبادة وشعار، وهذا الشعار يُرهب العدو ويخيفه، وفي نفس الوقت يدعم نفوس الأنصار وأولياء الله.

وبعد مرحلة التقية السياسية تأتي مرحلة الشعار والإعلان مباشرة، فإننا في التقية نحافظ على النبتة الناشئة حتى لا يقتلعها العدو، وبعد ذلك يأتي دور الإعلان والإشهار حتى تنمو وتتكامل.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٢].

١ـ الحج: ٣٢.

٢ـ لقمان: ٤.

وإقامة الصلاة إعلان للصلاة وإبراز لها، كما ورد في زيارة الحسين عليه السلام: (أشهد أنك قد أقمت الصلاة).

وعليه، فلابدّ من إعلان الانتماء وإشهاره، وهذه اللابدّية جزء من لابدّية الانتماء وحتمية الصراع.

وكما يجب الانتماء يجب الإعلان عنه.

الصراع بين القيم وأضداد القيم في عاشوراء

إن عاشوراء نموذج ممثل لكل صراع في التاريخ بين التوحيد والشرك وبين الحق والباطل.

فقد كانت معركة كربلاء على صغر مساحتها العسكرية تُجَسدُ صراعاً ضخماً بين معسكرين، وحضارتين، وفكرتين، ومدرستين بين الإسلام والجاهلية.

وللصراع بين الحق والباطل سنن وقوانين.

وعاشوراء يختزل كل هذه القوانين والقيم.

في يوم عاشوراء، وفي ساعاته المحدودة تتجلى كل هذه القوانين والقيم، يتقابل في هذا الصراع طرفان أحدهما حق خالص وتوحيد خالص، والآخر باطل خالص، أحدهما يُجَسدُ الإخلاص خالصاً، والآخر يجسد الهوى والطغيان خالصاً.

عاشوراء نموذج نادر من الصراع الحضاري الذي تتجسد فيها سنن التاريخ بشكل قوي ومركّز، وعيّنة ممثلة لمساحة التاريخ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومرآة صافية لحركة التاريخ... يجد فيها الإنسان الصراع

القديم بين جند الله وجند الشيطان، وأسباب وموجبات هذا الصراع، وقيم كل من طرفي المواجهة، وأساليبهم في هذا الصراع، وحتمية هذا الصراع، ومعاناة طرفي الصراع في هذه المعركة التاريخية، وما يستتبع هذا الصراع من سقوط، وثبات، وولادة وهلاك، واستبدال، واستدراج، وتساقط العناصر الضعيفة، وصعود وتسامي العناصر القوية المؤمنة، ونصر الله للفئة القليلة المؤمنة، وهلاك جند الشيطان... كل ذلك ينعكس في مرآة عاشوراء... في هذه الساعات القليلة الحافلة بالأحداث الكبيرة من يوم عاشوراء... والجمهور من المؤمنين يقرأون كل ذلك وغير ذلك من قوانين وسنن التاريخ والمجتمع والصراع في مرآة عاشوراء.

وفي عاشوراء يتقابل طرفان، طرف منه يمثل التوحيد الخالص، والإخلاص الخالص فنسمع منه في يوم عاشوراء:

إن كان دين محمد لا يستقم　　　إلاّ بقتلي يا سيوف خذيني

ويقول:

إن تقطعوا ببغيكم يميني　　　إني أحامي أبداً عن ديني

ونسمع الطرف الآخر الذي يمثل الباطل الخالص يقول مخاطباً للأمير ابن زياد في الكوفة:

إملأ ركابي فضة أو ذهبا　　　إني قتلت السيد المهذبا

قتلت خير الناس أماً وأبا

ويقول:

أأترك ملك الري والري منيتي　　　أم اصبح مأثوماً بقتل حسين

أحد الطرفين يطلب دين الله والدفاع عنه وإسناده والذبّ عنه، والطرف الآخر يطلب الذهب والفضة وملك الري، وشتّان بينهما.

ونسمع يزيد يقول:

قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناها ببدر فاعتدل

ولو كان هذا الطائش المغرور يعلم أن عاشوراء تجديد واستمرار لبدر، عودة جديدة لبدر لقال غير ذلك.

هذان طرفان مختلفان تماماً من جهة المفاهيم والقيم، يُجسّدُ أحدهما في سلوكه وقتاله أسمى القيم وأنبلها حتى في القتال، ويجسد الطرف الآخر أحطّ ألوان السلوك في ابتغاء الدنيا وفي الإجرام.

إن التقابل العجيب بين هاتين الفئتين اللتين تقاتلا في كربلاء وبين أهدافهما يعتبر واحداً من أغرب نماذج الصراع بين الحق والباطل في التاريخ.

وهذا الصراع يتضمن كل قوانين وقيم المعارك السابقة، ولذلك اصبح الحسين عليه السلام وارث كل الأنبياء عليهم السلام وكل الشهداء، والمعارك التي تأتي من بعد الحسين عليه السلام امتداد لتلك المعركة، كما أن القتلة ورثوا كل خصال الظالمين والجلاوزة من قبلهم.

عاشوراء النموذج الممثل للتاريخ

ولابدّ من توضيح لكلمة (النموذج الممثّل) الذي وصفنا به عاشوراء فنقول:

إن عاشوراء مرآة لكل حركة التاريخ، وامتداد للصراع القائم بين الحق والباطل في التاريخ.

والعكس أيضا صحيح، فإن كل صراع في التاريخ بين الدعاة إلى الله وأولياء الطاغوت نسخة من عاشوراء على درجات مختلفة من التمثيل وهذا هو معنى الكلمة المأثورة الدقيقة المعروفة: (كل ارض، كربلاء، وكل يوم، عاشوراء).

ففي كل ارض وفي كل يوم صراع بين الحق والباطل، بموجب قانون حتمية الصراع بين أولياء الله، وأولياء الطاغوت، ولا تخلو أرض من هذا الصراع، ولا يخلو يوم من أيام التاريخ منه.

وكل صراع في هذه السلسلة الطويلة من الصراعات والحروب والقتال يعتبر تمثيلاً لـ (كربلاء) ولـ (عاشوراء) على درجات مختلفة من التمثيل، حسب سعة وعمق هذا الصراع، وأبعاده في حياة الإنسان.

وبذلك فإن كربلاء رمز للصراع بين الحق والباطل.

والانتماء إلى الرمز يعني الانتماء إلى كل جبهة الحق فإن الحسين عليه السلام وارث الأنبياء.

والشعائر الحسينية هي تعبير عن هذا الانتماء إلى جبهة الحق وجبهة التوحيد.

ووسائل التعبير مختلفة مثل الزيارات والاحتفالات وإقامة مجالس العزاء والنياحة والهيئات الحسينية والمواكب الحسينية...تأتي في هذا السياق.

وهي في نفس الوقت تعبير عن تبني قيم التوحيد وإباء الضيم ورفض الظلم.

قيمة الشعائر الحسينية

منذ حادث الطف إلى اليوم الحاضر كان لحضور الجماهير دور فاعل في إحياء حادث الطف.

ولولا حضور الجماهير واهتمامهم بإحياء عاشوراء لتعرّضت معطيات الطف إلى النسيان والإهمال.

وهذا ما نراه فعلاً في حيوية (عاشوراء)، في وجدان جمهور المسلمين وعواطفهم، وتفاعل الجمهور الواسع والعميق مع عاشوراء خلال هذه الفترة الطويلة، والتي تزيد على ثلاثة عشر قرن من الزمان، وعلى هذه المساحة الواسعة من الأرض، وهذا أمر فوق العادة بالتأكيد... ولا ينبغي أن نمرّ عليه مروراً سريعاً من دون وقفة تأمل وتفكير.

ولا نعرف نحن إلى الآن حدثاً يستقطب عواطف جماهير المسلمين بهذه الصورة من القوة والفاعلية كعاشوراء، ولا نعرف أمراً في حياة المسلمين يستقطب الجماهير، ويجمعهم تجمعاً غفيراً بهذه الصورة الواسعة والقوية إلاّ الحج...

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إن لقتل الحسين عليه السلام حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»[1].

ولذلك حرص بنو أمية والحكام الذين تعاقبوا بعد بني أمية، على القضاء على ذكرى وقعة الطف قضاءً تاماً.

ولأمر مّا كان يحسّ السلاطين والملوك أن في مظاهر الحزن والحداد

١ـ مستدرك الوسائل ٢: ٢١٧.

على الإمام الشهيد شيئاً يضرهم، ويسيء إلى سلطانهم وملكهم، وكانوا يواجهون الجمهور الحسيني بالجفاء والإنكار، وأحياناً بالإرهاب والمطاردة، تماماً، كما كان الجمهور يشعر أن في قضية الحسين عليه السلام شيئاً يرتبط بمصيره ومصير الإسلام...

والتاريخ يشهد أن تطويق حادث الطف كان من أهم أهداف بني أمية بعد مقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

وحضور الجماهير الفاعل ومشاركتهم القوية في إحياء ذكرى عاشوراء كان هو السبب الأقوى والاهم في إفشال كل المخططات الأموية لإحباط ذكرى عاشوراء ودوره الحركي في تحريك المسلمين.

ونحن نجد في التاريخ منذ العصر الأموي وعبر العصر العباسي إلى اليوم الكثير من الأمثلة على تنكّر السلاطين وامتعاضهم من إقبال الجمهور على زيارة الحسين والتعاطف مع قضية الحسين عليه السلام حتى بلغ الأمر أن هارون الرشيد أمر بهدم القبر الشريف وكربه[١] كما أمر المتوكل العباسي بهدم القبر وما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقي موضع القبر ويمنع الناس من الزيارة[٢]... ومع كل هذه الضغوط السياسية والإرهاب الذي كان يمارسه السلاطين بشأن قضية الحسين عليه السلام وعاشوراء فإن عاشوراء لا تزال تتفاعل مع عواطف الجماهير ومشاعرهم في حركة تصاعدية.

فقد امتزجت عاشوراء بفعل الشعائر الحسينية بمشاعر المسلمين

١ـ تاريخ النياحة على الإمام الشهيد للسيد صالح الشهرستاني: ٢: ١٢، نقلاً عن نزهة أهل الحرمين للسيد حسن الصدر الكاظمي: ٢٧.

٢ـ بحار الأنوار ٤٤: ٢٧٠.

وعواطفهم وأحاسيسهم، وأصبح عاشوراء جزءاً لا يتجزأ من عواطف ومشاعر جماهير المسلمين الموالين لأهل البيت عليهم السلام من السنة والشيعة، وحتى من غير المسلمين الذين تأثروا بثورة الحسين عليه السلام وحركته.

الدور المزدوج للشعائر الحسينية

للشعائر الحسينية دور مزدوج بالغ الأهمية، فهي أولاً وسائل للتعبير عن حالة إنشداد الجمهور بعاشوراء، وارتباطهم العاطفي بهذا الحدث الهام الذي يعتبر من أهم أحداث التاريخ الإسلامي.

والشعائر تؤدي ثانياً دوراً فاعلاً في إذكاء جذوة الثورة والتحريك لذكرى هذا اليوم الحساس في تاريخ المسلمين.

وبذلك فإن للشعائر الحسينية دور (التعبير) عن عواطف الجمهور، ودور (التفعيل) للحالة الثورية والحركية لهذا اليوم الخطير في تاريخ الإسلام.

ولا أعرف يوماً آخر في تاريخ الإسلام يستقطب عواطف الجمهور بقوة، ويفعّل في نفوسهم الحالة الحركية والعاطفية كهذا اليوم.

ولا شك أن لهذه الشعائر قيمة كبيرة في كل ذلك.

اهتمام أهل البيت عليهم السلام بالشعائر الحسينية

وقد كان أهل البيت عليهم السلام يعطون اهتماماً كبيراً لإقامة الشعائر الحسينية.

يقول بشير بن حذلم: لما قربنا من المدينة في العودة من الشام نزل علي بن الحسين عليه السلام وحطّ رحله وضرب فسطاطه، وأنزل نساءه وقال: يا بشير، رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ قلت: بلى يا ابن رسول الله إني لشاعر.

فقال عليه السلام: أدخل المدينة وانع أبا عبد الله عليه السلام.

قال بشير: فركبت فرسي حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء، وأنشأت أقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرّج ... والرأس منه على القناة يُدار

وقلت: هذا علي بن الحسين عليه السلام مع عماته وأخواته قد حلّوا بساحتكم، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه، فخرج الناس يهرعون ولم تبق مخدّرة إلاّ برزت تدعو بالويل والثبور وضجّت المدينة بالبكاء فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم[1].

وكان أهل البيت عليهم السلام يؤكدون على زيارة الحسين عليه السلام في مناسبات مختلفة.

وكان الإمام الصادق عليه السلام يدعو في سجوده الذي يرويه معاوية بن وهب لزوار قبر جده الحسين عليه السلام ويقول:

«اللهم يا من خصّنا بالكرامة، اغفر لي ولإخواني وزوار قبر جدي الحسين عليه السلام، الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم، رغبة في برّنا، ورجاءً لما عندك في صلتنا.

اللهم إن أعدائنا عابوا عليهم خروجهم إلينا، فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا.

اللهم ارحم تلك الوجوه التي غيرّتها الشمس.

اللهم ارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

١ـ اللهوف لابن طاووس: ١١٦.

وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا»[١].

وكان الإمام الباقر عليه السلام يحضّ المؤمنين على إقامة مجالس عزاء الحسين في (منى) أيام التشريق، حيث يجتمع المسلمون من أقطار الأرض ليسمعهم مصيبة الحسين عليه السلام وفاجعة عاشوراء[٢].

وقال الصادق عليه السلام لحمّاد:

«بلغني أن أناساً من أهل الكوفة وقوماً آخرين من نواحيها يأتون قبر أبي عبد الله في النصف من شعبان فبين قارئ يقرأ القرآن ومادح لنا ونساء يندبنه.

فقال حمّاد: قد شهدت بعض ما تصف.

قال عليه السلام: الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدونا يطعن عليهم ويقبحون ما يصنعون»[٣].

وعن أبي هارون المكفوف، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: أنشدني، فأنشدته، فقال:

لا، كما تنشدون، وكما ترثيه عند قبره، فأنشدته:

أمرر على جدث الحسين فقل لأعظمه الزكية
ما لذّ عيش بعد رضّك بالجياد الأعوجية

فبكى، قال: فلما بكى أمسكت أنا، فقال:

مُرْ، فمررت، قال: ثم قال:

١ـ كامل الزيارة لابن قولويه: ١١٦.

٢ـ المنتهى للعلامة الحلي ٢: ١١٢.

٣ـ مزار البحار: ١٢٤.

زدني. قال: فأنشدته:

يـا فـرو قومـي واندبـي مـولاك وعلـى الحسـين فاسـعدي بـبكاك

قال: فبكى، وتهايج النساء. قال: فلما أن سكتن، قال لي:

يـا أبـا هـارون من أنشد في الحسين فأبكى عشرة فله الجنة، ثم جعل ينـتقص واحـداً واحـداً حـتى بلغ الواحد فقال: مَن أنشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنة. ثم قال: من ذكره فبكى فله الجنة»[1].

وعن مسمع قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام:

«أنت من أهل العراق، أما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟

قلـت: لا، أنـا رجـل مشـهور مـن أهـل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخلـيفة وأعدائـنا كثيرة مـن أهـل القـبائل، مـن النُصّـاب، وغـيرهم، ولستُ آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان فيميلون عليّ. قال لي:

أفما تذكر ما صنع به؟

قلت: بلى، قال:

فتجزع؟

قلـت: أي والله وأسـتعبر لذلـك حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فامتنع من الطعام، حتى يستبين ذلك في وجهي. قال:

رحم الله دمعتك، أما أنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفـرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا، ويأمنون إذا أمنا، أما أنك سترى عند موتك حضور آبائي لك، ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونـك بـه مـن البشارة ما تقرّ به عينك قبل الموت، فملك الموت أرقُّ

١ـ كامل الزيارات: ١٠٥، عن نفس المهموم: ٣٦.

عليك، وأشدُّ رحمة لك من الأم الشفيقة على ولدها.

قال: ثم استعبر واستعبرت معه، فقال:

الحمد لله الذي فضلنا على خلقه بالرحمة»[١].

وعن دعبل الخزاعي قال:

«دخلت على سيدي ومولاي علي بن موسى الرضا عليه السلام في أيام عشر المحرم فرأيته جالساً جلسة الحزين الكئيب وأصحابه من حوله، فلما رآني مقبلاً قال لي:

مرحباً بك يا دعبل، مرحباً بناصرنا بيده ولسانه، ثم انه وسّع لي في مجلسه وأجلسني إلى جنبه، ثم قال لي:

يا دعبل أحب أن تنشدني شعراً، فان هذه الأيام أيام حزن، كانت علينا أهل البيت، وأيام سرور كانت على أعدائنا خصوصاً بني أمية، يا دعبل من ذرفت عيناه على مصابنا ولو واحدا كان أجره على الله، يا دعبل من ذرفت عيناه على مصابنا وبكى على مصاب جدي الحسين غفر الله له ذنوبه البتة.

ثم انه نهض وضرب ستراً بيننا وبين حرمه واجلس أهل بيته من وراء الستر ليبكوا على مصاب جدهم الحسين، ثم التفت إلي وقال:

يا دعبل إرث الحسين، فأنت ناصرنا، ومادحنا ما دمت حيا فلا تقصّر في نصرتنا ما استطعت.

قال دعبل: فاستعبرت وسالت عبرتي وأنشأت أقول:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً   وقد مات عطشاناً بشط فرات

١ـ كامل الزيارات: ١٠١، عن نفس المهموم: ٣٧ ـ ٣٨.

إذن للطمت الخدّ فاطم عنده وأجريت دمع العين في الوجنات[١]

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول:

«كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضى عشرة أيام منها فإذا كان العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وبكائه، ويقول هو اليوم الذي قتل فيه جدي الحسين عليه السلام».

وروى الصدوق في الأمالي بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام:

«من تذكر مصابنا، وبكى لما ارتكب فينا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب».

عن أبي عمارة المنشد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:« قال لي:

يا أبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي قال: فأنشدته فبكى، ثم أنشدته فبكى، قال: فوالله ما زلت انشده ويبكي حتى سمعت البكاء من الدار. قال: فقال:

يا أبا عمارة من أنشد في الحسين بن علي شعراً فأبكى خمسين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فأبكى ثلاثين فله الجنة، ومن أنشد في الحسين فأبكى عشرين فله الجنة، ومن انشد في الحسين شعراً فأبكى واحداً فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فبكى فله الجنة، ومن أنشد في الحسين شعراً فتباكى فله الجنة[٢]».

وعن زيد الشحّام، قال:« كنا عند أبي عبد الله، ونحن جماعة من

١ـ الدر النضيد: ٢٤٦.

٢ـ بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢.

الكوفيين، فدخل جعفر بن عفان على أبي عبد الله عليه السلام فقرّبه وأدناه ثم قال:

يا جعفر، قال: لبيك جعلني الله فداك، قال:

بلغني انك تقول الشعر في الحسين وتجيد، فقال له: نعم جعلني الله فداك، قال:

قل، فأنشده فبكى ومن حوله، حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته.

ثم قال: يا جعفر والله، لقد شهدت ملائكة الله المقربون ها هنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعته الجنة بأسرها، وغفر الله لك.

فقال: يا جعفر ألا أزيدك؟ قال: نعم يا سيدي قال:

ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة وغفر له»[1].

عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قال الرضا عليه السلام:

«إنّ المحرّم شهر كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه القتال فاستُحلت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا، واضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فيها من ثقلنا، ولم ترع لرسول الله حرمة في أمرنا.

إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذل عزيزنا بأرض كرب وبلاء، أورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون فأن البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام.

ثم قال عليه السلام: كان أبي إذ دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان

١ـ بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

ذلـك الـيوم يـوم مصـيبته وحزنه وبكائه ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين صلى الله عليه»[1].

عـن الـريان بـن شـبيب قـال: «دخلـت علـى الرضـاعليه السلام فـي أول يـوم من المحرم فقال لي:

يا ابن شبيب أصائم أنت؟

فقلت:لا، فقال:

إن هـذا الـيوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريا ربه عز وجل فقال: ﴿رَبِّ هَـبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2] فاستجاب الله له وأمر الملائكـة، فـنادت زكـريا، وهـو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحـيى، فمـن صـام هـذا اليوم ثم دعا الله عز وجل استجاب الله له كما استجاب لزكرياعليه السلام. ثم قال:

يـا ابن شبيب إن المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية فيما مضى يحرمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الامة حرمة شهرها ولا حرمة نبيها، لقد قتلوا في هذا الشهر ذريته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك ابداً.

يا ابن شبيب أن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب فانـه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً، ما لهـم فـي الأرض شـبيهون، ولقد بكت السموات السبع والارضون لقتله، ولقـد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره، فوجدوه قد قتل،

١ـ بحار الأنوار ٤٤: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

٢ـ آل عمران: ٣٨.

فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره، وشعارهم (يا لثارات الحسين).

يا ابن شبيب لقد حدثني أبي، عن أبيه، عن جده انه لما قتل جدي الحسين أمطرت السماء دماً وتراباً احمر، يا ابن شبيب أن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خديك غفرا الله لك كل ذنب أذنبته صغيراً كان أم كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً.

يا ابن شبيب إن سرّك أن تلقى الله عز وجل ولا ذنب عليك، فزر الحسين.

يا ابن شبيب إن سرك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبيﷺ فالعن قتلة الحسين.

يا ابن شبيب إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين فقل متى ما ذكرته (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً).

يا ابن شبيب إن سرك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا، فلو أن رجلاً تولى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة»[1].

روى ثقة الإسلام، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، في الكافي باسناده عن العبدي سفيان بن مصعب الشاعر، قال:

«دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فقال:

قولوا فروة تجيء فتسمع ما صنع بجدها. قال: فجاءت، فقعدت خلف الستر، ثم قال عليه السلام: أنشدنا، قال: فقلت:

١ـ امالي الصدوق المجلس ٢٧ ـ الرقم٥، عيون أخبار الرضا ١: ٢٩٩.

(فرو جودي بدمعك المسكوب).

قال: فصاحت، وصحن النساء[1].

ودخل جعفر بن عفان الطائي، على الصادق عليه السلام، ورثى أبا عبد الله عليه السلام بمحضر الصادق عليه السلام، بقصيدة منها:

ليبك على الإسلام من كان باكياً ... فقد ضيعت أحكامه واستحلت
غداة حسين للرماح ردية ... وقد نهلت منه السيوف وعلت[2]

وعن ابن شعبة، عن عبدالله بن غالب، قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فأنشدته مرثية الحسين بن علي عليه السلام، فلما انتهيت إلى هذا الموضع:

لبلية تسقوا حسيناً ... بمسقاه الثرى غير التراب

صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه[3].

وقال ابن الجوزي: نظر سليمان بن قبة الشاعر البارع إلى مصارع القوم بكربلاء، فبكى حتى كاد أن يموت، ثم قال:

وان قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاباً من قريش فذلت
مررت على أبيات آل محمد ... فلم أر امثالاً لها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وان أصبحت منهم برغمي تخلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت

١ ـ الكافي٨: ٢١٦، وفي هامشه: (ام فروة هي كنية لام الصادق عليه السلام بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، ولبنته، على ما ذكره الشيخ الطبرسي رحمه الله في أعلام الورى، والمراد هنا الثانية).

٢ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام:٢٠٥، النهل: الشرب، والعل: الشرب بعد الشرب.

٣ ـ كامل الزيارات:١٠٥.

تسرّب بعض الشوائب إلى الشعائر الحسينية

الشعائر الحسينية هي كما ذكرنا وسائل الجمهور للتعبير عن ارتباطه العاطفي وإنشداده النفسي بمأساة كربلاء.

والجمهور الحسيني من أصدق الجماهير في التفاعل مع مأساة الطف، ويبلغ هذا التفاعل قمته في العشرة الأولى من شهر محرم، وقمة هذه العشرة اليوم العاشر، ويبلغ من تفاعل شيعة أهل البيت عليهم السلام مع المأساة أن يتعطل المألوف من حياتهم تماماً في هذا اليوم.

ويتوزّع الجمهور على مجالس الحسين عليه السلام ومواكب العزاء أفواجاً في حالة مشجية وحالة عزاء.

وبطبيعة الحال أن مثل هذا التعاطف الفاعل والمؤثر يفتح باباً واسعاً تدخل من خلاله بعض الطقوس والأعمال غير الموجّهة في الشعائر الحسينية، كما يفتح على المنبر الحسيني باباً لتدخل من خلاله طائفة من الأحاديث والروايات المرسلة وغير الموثقة في مأساة الطف.

وهذا وذاك مع الأسف أمران يحدثان في الشعائر الحسينية والمجالس الحسينية.

الشعائر والمجالس الموجّهة

ولكي تبقى المجالس والشعائر الحسينية فاعلة ومؤثرة وقوية، وتحتفظ بدورها في تصعيد تفاعل الجمهور مع القضية الحسينية، وتحتفظ بكفاءتها العالية في تفجير غضب الجمهور وثورته تجاه الظالمين وتحريك الجمهور وتثويره، لابدّ أن يقوم العلماء دائماً بدور الإرشاد والتوجيه لتهذيب الشعائر والمجالس الحسينية، وتوجيهها وتصفية هذه الشعائر مما لحقها من الطقوس

والأعمال التي لا يستسيغها الذوق السليم، ولا روح الإسلام، ومنهجه في العزاء، ولا تعاليم أهل البيت عليهم السلام في إقامة عزاء الحسين عليه السلام وإقامة الشعائر، وهذا واجب العلماء والخطباء، الذين أوكل الإسلام إليهم مهمة توجيه الجمهور وتوعيته.

الخطوط العامة لتوجيه الشعائر الحسينية

والخطوط والعناصر الأساسية لتوجيه الشعائر الحسينية هي:

١ـ التمسك بنصوص روايات أهل البيت عليهم السلام في إقامة مجالس العزاء الحسيني وإقامة الشعائر الحسينية، وهذه الروايات كما ذكرنا كثيرة ومنتشرة في الكتب الموثوقة.

٢ ـ الشعائر الموروثة من سلفنا الصالح على أيدي العلماء العاملين منذ عصر الغيبة الكبرى إلى اليوم، والتي تلقاها علماؤنا جيلاً بعد جيل بالتأييد والدعم، كإقامة مجالس العزاء ومواكب العزاء والبكاء والزيارة وما أشبه ذلك.

٣ ـ أن لا يكون في هذه الشعائر ما يُسببّ وهناً أو ضعفاً للطائفة، ولا لمذهب أهل البيت عليهم السلام، ولا يعكس صورة سلبية أو موهونة لمذهب أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم للناس.

٤ ـ أن تعكس ظلامة أهل البيت عليهم السلام والمآسي التي مرّت عليهم، وتعكس ظلم الظالمين وتجرءهم على الله ورسوله وأوليائه.

٥ ـ أن تعكس ثورة أهل البيت عليهم السلام وحركتهم وخروجهم على الظالمين وعدم رضوخهم لهم وشجاعتهم ومقاومتهم وصلابتهم في الله.

٦ ـ أن تحفظ للجمهور عاطفته وانشداده بمأساة عاشوراء، وتصعّد هذه العلاقة والانشداد النفسي بمأساة الطف.

٧ ـ أن تعكس رسالة أهل البيت عليهم السلام ووعيهم للإسلام ومواقفهم في التاريخ الإسلامي التي حافظت على نقاوة الإسلام ومنعت تحريفه، ويكون مجالاً خصباً لدعوة الناس إلى الإسلام وتوجيههم إلى هدى أهل البيت عليهم السلام ومجالاً خصباً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعريف بمفاهيم الإسلام وهدى القرآن، ودعوة الناس إلى إقامة الصلاة وسائر فرائض الله.

وكذلك ينبغي أن يسعى العلماء والخطباء دائماً إلى توجيه الشعائر والمجالس الحسينية وتهذيبها وجردها وفق برنامج ومنهج مدروس.

دور الجمهور في ترشيد الشعائر الحسينية:

ولئن كان يجب على العلماء أن يقوموا بدور رائد ومسؤول في توجيه الشعائر الحسينية، فإن على الجمهور الحسيني أن يدعم هذه الحركة الواعية المسؤولة في تصحيح وتهذيب الشعائر الحسينية.

إن لتصحيح الشعائر الحسينية دور كبير ومؤثر في إنشداد الجمهور بمأساة الطف، وبعكس ذلك فإن إهمال توجيه الشعائر الحسينية يفتح الباب لدخول الكثير من الطقوس والأعمال التي لا تلائم روح الإسلام ولا نصوص أهل البيت عليهم السلام ولا الذوق السليم، وتؤدي إلى تحجيم دور الشعائر الحسينية في تحريك الجمهور وتوعيته وربطه بالحسين عليه السلام وقضية الحسين عليه السلام.

ولذلك فإن من واجب الجمهور أن يواجه هذا التوجيه والتهذيب للشعائر الحسينية بوعي ومسؤولية. وقد أثبت الجمهور الحسيني دائماً انه على مستوى الوعي والمسؤولية، كما هو أهل للعطاء والتضحية.

الفصل الثاني

الشعارات الحسينية يوم عاشوراء

في سياق الحديث عن الشعائر الحسينية... لابدّ أن نرجع إلى ساحة الملحمة الخالدة في التاريخ يوم عاشوراء وهو المعين الأول لكل هذه الشعارات... لنستعرض الشعارات التي اشهرها الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في ساحة الطف.

وهذه النقطة بالتأكيد ضرورية في دراستنا للشعائر الحسينية... فان تلك الشعارات هي الأساس والعمق الأول للشعائر الحسينية في امتداد التاريخ وعلى مساحة واسعة جداً من الأرض.

وهذه الشعارات تتجسد في الهتافات والرجز الذي كان يلقيه ويردده الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في ذلك اليوم في ساحة المعركة.

ولا شك أن هذه الدراسة على قدر كبير من الأهمية... فهي تكشف لنا الأهداف والغايات الحقيقية لثورة الحسين عليه السلام في عاشوراء، والإطار والمضمون الحقيقي لهذه الملحمة المأساوية الخالدة والتي كتبها الحسين للأجيال بدمائه ودماء أهل بيته وأصحابه الزاكية.

الخطاب والشعار

إن أفضل ما يعكس لنا ثقافة عاشوراء هو (الخطاب) و(الشعار)... وقد حفظ الله تعالى لنا هذين المعينين الثقافيين اللذين يرفدانا بثقافة عاشوراء من الضياع والسطو في حكومة بني أمية وبني العباس الذين كانوا يكافحون هذه الثقافة، ويعملون على استئصالها بكل الوسائل الممكنة.

وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من الخطاب الحسيني وخطاب أهل بيته وأصحابه منذ أن خرج من المدينة إلى أن رجع أهل بيته إلى المدينة من الشام، في تلك الظروف التي كان يحكمها الإرهاب، كما حفظ الله تعالى لنا الكثير من الهتافات والرجز الذي ألقاه الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه يومئذ في ساحة المعركة، وهو الذي سميناه بـ (الشعارات الحسينية) في ساحة المعركة.

ولئن كانت تلك الخطابات والشعارات التي أطلقها الحسين عليه السلام وأنصاره وأهل بيته في ظروف الإرهاب والاضطهاد الأموي أمرا غريباً واختراقاً لجدار الرعب والإرهاب، فإن ثبات هذه الخطابات والشعارات في ذاكرة التاريخ ـ عبر حكم بني أمية وبني العباس ـ إلى اليوم لا تقل غرابة.

ونحن هنا نتحدث عن الشعارات الحسينية أما الخطاب الحسيني، فقد تحدثنا عنه في كتاب (الخطاب الحسيني).

هذه الشعارات كانت في الغالب شعراً من بحر (الرجز) يرتجز فيه المقاتلون ساعة النزول إلى الساحة والاشتباك مع العدو وكانت في الغالب على نحو الارتجال... وهي على عفويتها تحمل مفاهيم وأفكار وقيما يحتاج إلى كثير من التأمل والتوقف والدراسة.

وليست لدينا هنا فرصة دراسة دقيقة وعميقة لدراسة هذا الرجز وندعو خطباء المنبر الحسيني أن يتناولوا هذا الموضوع باهتمام أكثر... ولكننا نشير في هذه العجالة إلى مجموعة من المفاهيم والقيم التي نقتبسها نحن من هذه الشعارات التي كان يطلقها أنصار الحسين في ساحة الوغى، عند الاشتباك.

مفردات وعناوين الشعارات الحسينية يوم عاشوراء

١. ثقافة المعارضة والمقاومة

الظلم لا محالة واقع في التاريخ في حياة الأمم والأفراد، ولا سبيل إلى قطع دابر الظلم، فهو جزء لا يتجزأ من سنة الابتلاء التي جعلها الله تعالى وسيلة لامتحان عباده في التاريخ والمجتمع.

ولكن كيف نتعامل مع الظلم؟

وهذا هو السؤال العملي الذي نواجهه دائماً في التاريخ والمجتمع تجاه ظاهرة الظلم.

هل نعارض، ونقاوم الظالم؟ أو ننقاد ونطيع ونسكت، أو نغيب ونهرب عن مواجهة الظالم.

في التاريخ الإسلامي نجد ثقافتين مختلفتين تماما تجاه هذه الظاهرة.

الثقافة الأولى ثقافة المعارضة والمقاومة للظالم، والثقافة الثانية ثقافة الطاعة والمطاوعة للظالم.

وهاتان الثقافتان تنبعان من رأيين فقهيين في الفقه السياسي في الإسلام.

الرأي الأول هو معارضة الظالم ومقاومته.

والرأي الثاني هو طاعة الظلم وحرمة الخروج عليه.

وتتبنى الرأي الأول مدرسة أهل البيت عليهم السلام الفقهية، وطائفة من فقهاء أهل السنة.

ويتبنى الرأي الثاني طائفة كبيرة من الفقهاء منذ الصدر الأول للإسلام، من أيام بني أمية إلى اليوم.

وفي مقدمة من اشتهر بهذا الرأي من الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة، ونظراء لهم، وتبعهم تابعون من جيل التابعين، كانوا يرون حرمة الخروج على السلطان الجائر، ولزوم طاعته وتحريم المعارضة السياسية والمقاومة المسلحة تجاهه.

وذهب إلى هذا المذهب طائفة كبيرة من أئمة الفقه الإسلامي مثل احمد بن حنبل، فقد عرف عنه بما لا يقبل الشك أنه يرى وجوب السمع والطاعة للائمة والأمراء، براً وفاجرا، ممن ولي الخلافة، وغلبهم بالسيف، وليس لأحد أن يطعن فيهم وينازعهم، ويجوز دفع الصدقات والزكوات إليهم ويجزي عنهم برا كان أو فاجرا، ويجوز إقامة الجمعة خلفه، ومن أعادها فهو مبتدع مخالف للسنة[1].

ويعلل احمد بن حنبل وجوب الطاعة وحرمة الخروج بالمحافظة على أمن المجتمع والدولة من الفتن السياسية والعسكرية.

وإلى هذا المذهب يذهب أمة كبيرة من الفقهاء فقد ادعى النووي في شرحه على صحيح مسلم: إجماع فقهاء أهل السنة على ذلك... قال: وإما الخروج عليهم ـ يعني الخلفاء ـ وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وان كانوا فسقة ظالمين، وأجمع أهل السنة (على) انه لا يُعزل السلطان بالفسق.

١ـ راجع تاريخ المذاهب الإسلامية لابن زهرة ٢: ٣٢٢.

كما نقل الإجماع نفسه ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري (فتح الباري) عن ابن بطّال قال: وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وإن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين للدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلاّ إذا وقع من السلطان الكفر الصريح.

وكلمات فقهاء أهل السنة في ذلك كثيرة نقلنا طائفة منها في كتابنا (حوار بين التسامح والعنف) و(ولاية الأمر).

وقد دخل هذا الرأي الفقهي السياسي في المجتمع الإسلامي وفي صلب الثقافة الإسلامية الرائجة الرسمية في التاريخ الإسلامي، وتحول إلى ثقافة فقهية قائمة في أوساط المسلمين.

واشتهرت مدرسة أهل البيت عليهم السلام كما قلنا بالرأي الأول في الفقه السياسي، وتكوّنت من هذا الرأي الفقهي ثقافة سياسية هي ثقافة المعارضة والخروج والمقاومة المسلحة ويعتمد هذا المذهب الفقهي آيات محكمات من كتاب الله وأحاديث صحيحة وصريحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد انطلق منها الإمام الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن محكمات كتاب الله الآيات الناهية عن طاعة الكافرين والفاسقين، والآمرة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والرادعة عن طاعة الظالمين قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[1].

١ـ الكهف: ٢٨.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[٥] [٦]

انطلق الحسين عليه السلام في الخروج على يزيد من هذا المنطلق من الكتاب والسنة، وشاع هذا الفقه في الأوساط الإسلامية بعد ثورة الحسين عليه السلام شياعا واسعا وتبنّاه الكثير من العلماء والفقهاء.

إذن نحن نواجه في التاريخ الإسلامي ثقافتين فقهيتين مختلفتين اختلافا كبيرا، إلى حد التقاطع والتقابل، وهما ثقافة مقاومة الظالم وثقافة مطاوعة الظالم والانقياد له.

وما تلوناه عليك من آيات كتاب الله المحكمات، وما نعرفه من ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشريعة يكفي في الاحتجاج به للرأي الأول، فضلا عن الأحاديث المروية بطرق صحيحة في مجامع الفريقين عن رسول الله صلى الله عليه وآله... ولسنا نريد أن ندخل التفاصيل الفقهية في هذه المسألة فقد شرحناها بشيء من التفصيل في كتاب (ولاية الأمر) وفي

١ـ الأحزاب: ١.

٢ـ القلم: ٨.

٣ـ القلم: ١٠.

٤ـ الإنسان: ٢٤.

٥ـ الشعراء: ١٥١.

٦ـ راجع تفصيل هذا البحث من كتابينا: (حوار بين التسامح والعنف) و(ولاية الأمر).

كتاب (حوار بين التسامح والعنف)، فلا نريد هنا أن نتوقف في دراسة هذه المسألة من الناحية الفقهية.

ونحن نتّهم بني أمية ثم بني العباس، ثم الحكام الظالمين في التاريخ الإسلامي في إشاعة هذا الرأي الفقهي والثقافة الفقهية القائمة على طاعة الظالم ومطاوعته وتبنّيها إلى اليوم.

ونُحمّل هذا الرأي الفقهي مسؤولية الظلم الكبير والانحراف الذي وقع في التاريخ الإسلامي في دائرة الخلافة الإسلامية، وبعدها في دائرة الأنظمة.

فقد كان الحكّام الظالمون المنحرفون يجدون في هذا الرأي الفقهي إسنادا لهم في الاستمرار في ممارسة الظلم والانحراف عن الإسلام... وكان ينزل على نفوسهم بَرْداً وسلاماً ويتعهّد لهم هذا الرأي الفقهي بخنق كل صوت للمعارضة، ومتى يجد الحكام الجائرون إسنادا أو دعما لحكمهم أفضل من ذلك.

ولا نشك في أن الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ في ترك المعارضة للظالم، والركون إليه والتسليم والطاعة له منتحلة على رسول الله ﷺ.

وآية ذلك معارضة هذه الأحاديث لمحكمات كتاب الله، ولما صح عن رسول الله ﷺ، ولسيرة الحسين عليه السلام في ثورته على يزيد وسيرة التابعين في وقعة الحرة التي أعلنوا فيها الخروج على يزيد بن معاوية بعد خروج الحسين عليه السلام في كربلاء فأبادهم يزيد، وأوقع فيهم مذبحة عظيمة، يحدثنا عنها المؤرخون.

ولولا ثورة الحسين عليه السلام لكان لهذا الرأي الفقهي في طاعة الظالم وهذه

الثقافة الفقهية دور اكبر وأوسع في القضاء على الحركات السياسية الإسلامية المعارضة، وحركات المقاومة المسلحة، وكان سبباً في فسح المجال للحكام الجائرين بشكل مطلق، ليعيثوا في الأرض فساداً وليهلكوا الحرث والنسل، فإنهم في أمان من كل اعتراض ومقاومة من قبل المسلمين، ما داموا لم ينطقوا بالكفر الصراح، كما يقول أصحاب هذا الرأي.

وقد جاءت ثورة الحسين عليه السلام رحمة على هذه الأمة، ولم يكن بوسع أحد يحترم دينه وعلمه وعقله أن يُخطّئ الحسين عليه السلام، فكانت ثورته المأساوية الدامية اختراقا لهذه الفتاوى التي أضرّت بدور الرأي العام الإسلامي في إسقاط الحكومات الظالمة ورداً عمليا لهذه الفتاوى، وقدوة صالحة للمسلمين في الموقف من الحكام الجائرين.

روى الطبري وابن الأثير في تاريخيهما: أن الحسين عليه السلام خطب في أصحابه في بعض المنازل، فقال:

«أيها الناس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطانا جائرا، مستحلا لحرام الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله. ألا وان هؤلاء، قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر»[1].

١ـ تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠، والكامل ٤: ٤٨.

وفي الخطاب الحسيني والشعارات التي رفعها الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء تأكيد وتعميق لثقافة الرفض والمعارضة والمقاومة.

وقد خطب الإمام عليه السلام في بعض منازل الطريق في أصحابه وأصحاب الحرّ فقال:

«إن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله».

ويرتجز علي بن الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين يدي أبيه ويقول:

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله أولى بالنبي

والله لا يحكم فينا ابن الدعي أطعنكم بالرمح حتى ينثني[1]

كلما يطلبه الحسين عليه السلام في هذه المقاومة المسلحة لجيش بني امية هو هاتان الكلمتان اللتان قالهما علي بن الحسين عليه السلام:

(نحن وبيت الله أولى بالنبي) و(والله لا يحكم فينا ابن الدعي).

إعلان حقه في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وإمامة هذه الأمة، ورفض إمامة وولاية بني أمية عامة على المسلمين.

١ـ مقتل أبي مخنف ١٢٧، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من طبقات ابن سعد ١٨٢، تاريخ الطبري ٥: ٤٤٦، مروج الذهب ٣: ٦١، مقاتل الطالبيين ٧٦، الفتوح لابن اعثم ٥: ١٣٠، الإرشاد للمفيد ٢: ١٠٦، مقتل الحسين للخوارزمي ٢: ٣٠، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٩، مثير الأحزان: ٦٨، البداية والنهاية ٨: ١٨٧، انساب الأشراف ٣: ٣٦١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٣، ٦٥، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٧٠، ٢٨٦، ٣٣٥، أعيان الشيعة ١: ٦٠٧ و ٨: ٢٠٧.

ملاحظة: أخذنا مصادر الارجاز عن كتاب (منظومة الحب الارغواني)، ترجمة وتأليف الدكتور علي رضا ميرزا محمد، شكر الله سعيه.

٢. الفتح والهزيمة

للإمام الحسين عليه السلام أبيات من الشعر يوم عاشوراء ألقاها على جيش بني أمية في ساحة القتال تستوقف الإنسان وتدعوه إلى التأمل والتفكير، يقول عليه السلام:

فإن نَهْزِم فهزّامون قُدْماً وإن نُهْزَم فغير مُهَزَّمينا
وما أن شابنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا[1]

يقول عليه السلام إن نحن هزمناكم فطالما هزمناكم من قبل في بدر، وما بعد بدر حتى رضختم للإسلام ودخلتم الإسلام مكرهين: (فان نهزم فهزامون قدماً).

وان كان الآخر وَهُزِمْنا، فليس علينا في ذلك من بأس، فلم ننهزم نحن في الصراع على المبادئ والقيم، ولكن هُزمنا في معركة عسكرية غير متكافئة وظالمة... وما على المؤمن بأس أن ينهزم في معركة عسكرية غير متكافئة إذا كان في موقع الدفاع عن الحق وخصمه في موقع الباطل، ولكن البأس كل البأس أن ينسحب ويتراجع من موقع المبادئ والقيم: (وإن نُهزم فغير مهزمينا).

ولا بد من وقفة قصيرة لهذا الشطر من كلام الإمام عليه السلام... وهو كلام دقيق وعميق.

إن الفتح والهزيمة في المعارك العسكرية يختلفان عنهما في المعارك الحضارية... والمعركة غير المتكافئة التي يدخلها الإمام الحسين عليه السلام في قبالة بني أمية معركة حضارية في الحقيقة، على هيئة معركة عسكرية...

١ـ مناقب ابن شهر اشوب ٤: ٨٠، بحار الانوار ٢٥: ٩٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩٨.

والإمام في هذه المعركة يطلب أهدافاً حضارية، أما بنو أمية فكانوا يطلبون في هذه المعركة التصفية الجسدية والإعلامية والسياسية الكاملة للمعسكر العلوي في كربلاء.

إن الفتح والهزيمة في المعركة الحضارية غيرها في المعارك العسكرية.

الهزيمة في المعركة العسكرية تقع من طرف على طرف آخر، شاء الطرف الآخر أو لم يشأ، قبل أم لم يقبل... فليس للهزيمة طرفان(كالعقود)، وإنما هي كـ(الإيقاعات)، يفرضها أقوى الطرفين على أضعفهما.

وليست الهزائم في المعارك الحضارية كذلك... إنّ الهزيمة في المعارك الحضارية لا تقع من طرف واحد على الطرف الآخر، كما في المعارك العسكرية، وإنما تتحقق بقبول الطرف الآخر للهزيمة وتنازله عن أهدافه وغاياته ومواقفه وقيمه... فهو من قبيل العقود، إذا صح هذا التعبير، وليس من قبيل الإيقاعات.

إن الهزيمة الحضارية لا تقع بإرادة وفعل الطرف الهازم فقط، وبصورة قهرية من جانب الطرف المنهزم، وإنّما تقع مع قبول الطرف الآخر للهزيمة، وأقصد بالقبول تنازله عن مواقفه وأهدافه وقيمه الحضارية، واستسلامه للطرف الهازم.

فإذا كان الطرف الآخر يرفض الهزيمة، ويُصرُّ على مواقفه وأهدافه ورسالته، رغم ما نزل به من فتك وبطش وقتل من الطرف الهازم، فلا تتحقق الهزيمة بمعناها الحضاري والثقافي.

الهزيمة العسكرية قضية رياضية من حيث الكم، الكم الأكبر يغلب الكم الأقل في اغلب الأحوال، وقضية فيزيائية... من حيث السلاح، السلاح القوي

يقطع السلاح الضعيف ويوقفه، فهي قضية مادية رياضية ـ فيزياوية بحتة.

أما الهزيمة الحضارية فهي أمر آخر لا تتحقق إلا بتنازل الطرف المهزوم عسكرياً عن مواقفه، وقيمه، وأهدافه، وأخلاقه، ومبادئه، تبعاً لرأي الطرف الهازم وإملائه، وبتقبّل الطرف المنهزم للهزيمة وهذا ما لم يتحقق قط في كربلاء يوم عاشوراء... فلم يزل الحسين عليه السلام وأنصاره على نفس المواقع التي أعلنها الحسين في المدينة، وفي مكة، وفي طريقه إلى العراق ثم في كربلاء، لم يتجاوزا موقع الرفض والاعتراض حتى آخر لحظة من حياتهم، ولم يتنازلوا عن شيء من أهدافهم وغاياتهم ومواقعهم في خروجهم على يزيد بن معاوية.

والفتك والبطش الحاقد الذي مارسه بنو أميه بحق الحسين عليه السلام وأنصاره، حتى داسوا جسده الطاهر بحوافر خيولهم لم يثن أهل بيته عليهم السلام وشيعتهم(رضوان الله عليهم) من مواصلة الخطاب الحسيني والإصرار على رفض سلطان بنو أمية، وإعلان إلغاء شرعيته، والدعوة إلى الخروج عليهم، والتشهير والتسقيط بهم وإعلان ظلامة الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء.

ولم يزد هذا النصر العسكري الذي كسبه بنو أمية في وقعة الطف أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم غير الإصرار على إعلان الخطاب الحسيني، ونشره والتأكيد، على مواقع الحسين عليه السلام الرافضة والمعارضة لبني أمية.

ولم يزد الناس إلا نفوراً من بني أمية، وغضباً عليهم.

ولم تعد الشرعية لبني أمية في الخلافة والسلطان بعد ذلك اليوم قط، وكانت ثورة الحسين عليه السلام نهاية قطعية لشرعية حكومة بني أمية... فأين موضع الهزيمة في ثورة الحسين عليه السلام؟.

إن الهزيمة التي ألحقها جند بني أمية بالحسين عليه السلام وأنصاره لم تكن غير هزيمة عسكرية، وهي ما كان يتوقعها الحسين عليه السلام وأعلنها يوم خطب في الناس بمكة، وأعلن خروجه إلى العراق بمن يصحبه لإعلان الثورة على سلطان بني أمية في الشام، ونعي إليهم نفسه...

فلم يكن في النصر العسكري الذي ناله بنو أمية أمر جديد لم يدخل في حساب الإمام عليه السلام وأنصاره.

وكان من غرائب القدر أن تحمل هذه الهزيمة العسكرية نواة فتح كبير في مسيرة الحسين عليه السلام وأهل بيته، بالمضمون الحضاري... وهو ما لم يكن يتوقعه بنو أمية قط. ورغم كل الجهد الذي بذلوه لإخماد الخطاب الحسيني بعد استشهاده فقد أخفقوا إخفاقا كاملاً في ذلك، وارتفع الخطاب الحسيني على لسان علي بن الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام في قصر الطاغية في الشام، ومن قبله في الكوفة بين جماهير العراق، الذين تخلفوا عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله... وبعد ذلك في المدينة، عند عودة أهل البيت عليهم السلام إلى المدينة، ثم زحف الخطاب الحسيني إلى كل أقاليم العالم الإسلامي، وتحوّل إلى وعي ويقظة وثورة على الطاغية في نفوس المسلمين إلى اليوم.

وهكذا تحولت الهزيمة العسكرية في كربلاء يوم العاشر من محرم إلى فتح حضاري واسع.

وكان الإمام الحسين عليه السلام يتوقع هذا الفتح من المدينة إلى كربلاء، ولم يكن يتردد فيه أهل بيته من بعده، حتى بعد مأساة عاشوراء.

ففي مكة أمر الإمام عليه السلام بقرطاس، وكتب إلى بني هاشم:

«أما بعد... فأنه من لحق بي استشهد، ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح

والسلام»[١].

وفي هذا الكتاب الذي عمّمه الإمام على بني هاشم يذكر الإمام عليه السلام نقاطاً هامة جديرة بالاهتمام، رغم إيجاز الكتاب.

١ ـ ينعى نفسه ونفوس من معه إلى بني هاشم، فإذن هو لم يخرج إلى فتح عسكري، وإنما يوطّن نفسه، ونفوس أنصاره لمصرعه ومصرع أنصاره، ولا يمكن أن يخرج الإنسان لفتح عسكري ثم ينعى نفسه ونفوس أصحابه.

٢ ـ يعلن لبني هاشم أنه لا محالة يكسب الفتح بخروجه على يزيد... وهذا هو معنى (ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح) فإن المفهوم الواضح من سياق الكلام أن من خرج معه يبلغ الفتح.

٣ ـ ومن تخلف عنه يفوته هذا الفتح الأكبر الذي يبقى أثره قائماً في تاريخ الإسلام إلى ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه.

وفي يوم عاشوراء يعلن الحسين عليه السلام لمعسكر بني أمية في الأبيات التي يلقيها عليهم من موقع القتال، مرتجلاً أن هزيمته ومصرعه ومصرع أنصاره في هذه المعركة لن يكون إلا هزيمة عسكرية، وهي ما لا قيمة له في حساب الحسين عليه السلام، وله تأثير وقتي وموضعي محدود، يعبر عنه الإمام عليه السلام بهذا التعبير الجميل: (منايانا ودولة آخرينا).

فلا يزيد هذا الفتح العسكري في جانب بني أمية ومصرع الحسين عليه السلام وأنصاره على أن يكون قضاءً وقدراً من الله تعالى في حلول منايا أنصار الحسين عليه السلام، وتمادي دولة بني أمية (منايانا ودولة آخرينا) وهو ليس بذي شأن قطعاً في حساب الله، ولا في حساب التاريخ.

١ـ السيد ابن طاووس في الملهوف تحت عنوان: تخلف محمد بن الحنفية عن أخيه الحسين عليه السلام.

ويقرر لهم بصراحة في ذلك اليوم الصعب: أن هذه الهزيمة العسكرية لا تعني الهزيمة له ولأنصاره إطلاقا.

فــان نهـــزم فهـــزامون قدمــاً وان نهـــزم فغـــير مهزميـــنا

وبعد مأساة الطف ـ في الشام ـ عندما دخل أهل بيت الحسين عليه السلام الشام، عاصمة حكم الطاغية، أسرى بتلك الصورة المشجية يسأل رجل الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وهو في رأينا غير شامت، ولكنه متوجّع: من الغالب يا ابن رسول الله؟ فقال له علي بن الحسين عليه السلام: إذا أذّن المؤذن تعرف من الغالب... وبهذا التعبير الوجيز يذكر الإمام زين العابدين عليه السلام السائل المتوجع من حادث الطف... إنّ هذه المأساة تتحول إلى فتح كبير، يحفظ الإسلام، ويحفظ التوحيد والتكبير والتهليل والصلاة والأذان، ويلغي شريعة بني أمية، فلا يكون لبني أمية موقع شرعي في الإسلام، ولا يكون لانحرافهم وإسرافهم وإفسادهم تأثير كبير على الإسلام، وإنما تبقى دولة بني أمية دولة طائشة في عداد الدول الطائشة في التاريخ، وهي كثيرة ولا يكون لها دور منذ اليوم في تخريب الإسلام بسبب ثورة الحسين عليه السلام.

إذن، رغم ما شاهده أهل البيت عليهم السلام من مأساة الطف الموجعة المفجعة لم يتغير رأيهم في نتيجة هذه المأساة قط، وبقوا يعتقدون ويؤمنون: أن الفتح كان في جانب الحسين عليه السلام في هذه الملحمة، وأن الهزيمة كانت في جانب بني أمية.

وفي البيت الثاني يقول الإمام عليه السلام:

ومــا أن شــابنا جبــن ولكــن مـــنايانا ودولـــة آخريـــنا

إن الهزيمة العسكرية التي تصيبنا في كربلاء والانتصار العسكري الذي

ناله أعداؤنا في هذه المعركة... لا يكون دليلاً على جبن منا ولا على شجاعة منهم... فقد ينتكس الشجاع في معركة عسكرية، ويغلب الجبان فيها... فان المعركة العسكرية لها موازينها الخاصة بها، والانتصار والهزيمة فيها لا تدل على شجاعة ولا على جبن.

إن النصر والهزيمة في المعركة العسكرية تأتي ضمن سنن إلهية، فقد ينتصر دعاة الحق، وينهزم دعاة الباطل كما حصل في بدر، وقد ينعكس الأمر فينتصر دعاة الباطل وينتكس دعاة الحق كما حصل في (أُحد).

إلا أن الأساس الثابت الذي لا يتغير في هذه المعركة التي يتردد فيها النصر والهزيمة بين الجبهتين المتقاتلتين: إن العاقبة للمتقين، من خلال هذا الخط البياني المتعرج بين النصر والهزيمة. والمؤمنون المتقون هم الأعلون، والكافرون والمشركون هم المندحرون في هذه المعركة، في العاقبة.

إن تداول الأيام للغلبة والنصر والهزيمة في هذا الصراع لا يغير من هذه السنّة الإلهية الثابتة شيئاً (ما دام الصراع بين الإيمان والشرك، وبين الجاهلية والإسلام).

إن استعلاء الإيمان وسقوط الكفر من حتميات التاريخ الثابتة التي لا تتغير. ما ثبت أهل الإيمان على إيمانهم ومتطلباته في ساحة المعركة... وأما النصر والهزيمة والصعود والنزول الذي يتخلل هذه المعركة فهو من (تداول الأيام) الذي لابدّ منه في هذا الصراع، ولا يغير من عاقبة المعركة شيئاً.

ولولا تداول الأيام لحملة التوحيد بين النصر والهزيمة العسكرية لدخل العجب والزهو والغرور نفوس المؤمنين،وأفسد عليهم نفوسهم، ونفذ

المنافقون وضعاف الإيمان إلى صفوفهم، ولم يكن بإمكانهم فرز المؤمنين عن المنافقين، ولا معرفة أقوياء الإيمان من ضعفائهم... إن هذه الانتكاسات والهزائم التي تتخلل هذا الصراع الطويل، تحصّن المؤمنين من العجب والغرور والزهو والبطر، وتمحصّهم وتهذب نفوسهم، وتبقيهم في حالة النفر والتأهّب الدائم، وتَنقي صفوفهم من المنافقين وضعفاء الإيمان، كما تَنقي نفوسهم من الزهو والغرور، وتبقى علاقتهم بالله، وثقتهم بالله، وتوكلهم على الله في ساحة المعركة... ولو كان النصر يتوالى عليهم مرة بعد أخرى لدخلهم الغرور والعجب والبطر، وأفسد عليهم ثقتهم بالله وتوكلهم على الله وإخلاصهم لله في المعركة.

ولأمر ما يصيب الله تعالى عباده المؤمنين بالانتكاسة في الصراع الطويل بينهم وبين خصومهم، مرة بعد أخرى، وكان الله تعالى قادراً على أن ينقلهم من نصر إلى نصر، ولكن الله تعالى يعلم أن مرارة هذه الانتكاسات أفضل لهم من نشوة الانتصارات التي تتوالى عليهم، فلا يتابع لهم الهزيمة بعد الهزيمة كي لا يغلبهم الشيطان، فيدخل اليأس في نفوسهم، ولا يوالي عليهم الانتصار كي لا يبطروا، ويدخل الشيطان عليهم نشوة النصر وما يستتبعه من الغرور والبطر والزهو الباطل.

إن هذه القروح التي تصيب المؤمنين في المعركة تنفعهم أولاً، ولا تغير من السُنَّة الإلهية الثابتة باستعلاء المؤمنين وسقوط الكافرين ثانياً.

وتبقى هذه السنَة تحكم التاريخ، مهما كانت الظروف التي تمّر على المؤمنين في هذا الصراع، صعبة وقاسية، بل أن قسوة ظروف الابتلاء في هذه المعركة تُعدّهم لمواصلة هذه المعركة إلى أن يأذن الله تعالى لهم

بالنصر الأكيد ولخصومهم بالاندحار والسقوط.

ومن خلال هذه القروح والانتكاسات والابتلاءات يتخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء وقيمين وأئمة على مسيرة الحضارة الإنسانية في التاريخ.

إذن ليس فيما يصيب المؤمنين في هذا الصراع من القتل والهزيمة والابتلاءات الصعبة القاسية دلالة على جبن أو ضعف أو انهيار، ما بقوا مؤمنين، وإنما هي من سنن الله تعالى في تداول الأيام الغلبة والهزيمة بين حملة التوحيد ودعاة الشرك، وهي تمحيص للمؤمنين ومحق للكافرين، والى هذه المعاني الرفيعة يشير الإمام الحسين عليه السلام في هذا البيت من الشعر الذي أنشده يوم عاشوراء على جند بني أمية في ساحة الطف.

وما إن شابنا جبن ولكن   منايانا ودولة آخرينا

إن ما أصابنا من قتل وجرح وقرح وهو ما كتبه الله تعالى لنا ـ في هذا الصراع ـ من المنايا، وما كتبه الله تعالى لأعدائنا من الغلبة والسلطة، ليكون ذلك تمحيصاً لنا ولأوليائنا وأتباعنا، ومحقاً لسلطان بني أمية، وابتلاءاً لنا، واستدراجاً وإملاءً لخصومنا.

والإمام عليه السلام يستقي هذه المعاني الرفيعة التي تضمنها هذا البيت من الآيات المباركات من سورة آل عمران التي نزلت بعد معركة (أُحُد)، وهي آيات عجيبة تحول الهزيمة العسكرية في ساحة المعركة إلى شعور قوي بالاستعلاء والنصر في نفوس المؤمنين، فلنقرأ هذه الآيات من آل عمران، ولنتوقف عندها بعض الوقت:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

﴿وَتِلْـكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

ثمانية دروس في آية آل عمران:

إنها آيات عجيبة تستوقف الإنسان، وتبعث على كثير من التأمل والتفكير، وفيها دروس عميقة في الثقافة القيادية والإدارية.

وأول شيء نلاحظه في هذه الآيات هو هذا الاستعلاء على الضعف والوهن والحزن، والدعوة إلى تجاوز حالة الخوف والإحساس بالضعف، وتعميق الشعور باستعلاء المسلمين على الكافرين ما كانوا مؤمنين بالله، قد شدوا حبلهم بحبل الله، واستمدوا حولهم وقوتهم من الله، واطمأنت قلوبهم بالله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ذلك التخلص عن الوهن والخوف والحزن، وهذا الاستعلاء على الكافرين من حقائق الإيمان، يعرفها المؤمنون جيداً، وليس وهماً، ولا من الإلقاءات والإيحاءات الوهمية.

وهذا هو الدرس الأول في آيات آل عمران ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

والدرس الثاني الاستخفاف بالقروح التي تصيبهم في المعركة، فإن

١ـ آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.

هذه القروح تصيبهم وتصيب أعداءهم على حد سواء، والذي يدخل المعركة يجب أن يوطِّن نفسه لمثلها. والتعبير بـ (المس)، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ يوحي بالاستهانة بما يصيبهم من القروح، وسرعان ما تزول وتندمل، ويعقبه الثواب والرضوان من عند الله، وهي بعد من متطلبات كل معركة، ومن أي مدخل يدخل الإنسان المعركة، من مداخل الحق أو من مداخل الباطل. ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

وهذا هو الدرس الثاني في آيات آل عمران.

والدرس الثالث أعظم هذه الدروس جميعاً، وأعظم مما قرأناه سابقاً، إن هذا الدرس يعطينا رؤية كونية تاريخية شاملة لمسألة الانتصار والهزيمة والانتكاسة والنجاح.

إن الرؤية الموضعية القريبة، للهزيمة والنكسة تصيب الإنسان بالوهن والحزن والخوف.

وأما الرؤية الكونية البعيدة من خلال سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع فتمنح الإنسان ثقة وقدرة على مواجهة التحديات وتجاوزها والاطمئنان بالعاقبة البعيدة أو القريبة من خلال سنن الله.

إن الذي يقتطع حدث الانتكاسة من أسبابها وعواقبها وموضعها في التاريخ يصيبه الوهن والضعف والحزن.

وأما الذي يضع (الانتكاسة) في موضعها من التاريخ ومن تداول الأيام، وضمن سنن الله تعالى، فلا يصيبه شيء من ذلك الوهن والحزن والخوف، ويخرج من المحنة والانتكاسة مطمئناً بالله واثقاً بنصر الله، عاملا لإنجاز ما يريده الله تعالى من المؤمنين لتحقيق النصر، واثقاً بوعد الله تعالى لهم

بالنصر. ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

وليس من الصحيح أن يقتطع الإنسان المسلم يوم النكسة من مدار التاريخ.

والـدرس الرابع هو دور هذه الانتكاسات في تصفية صفوف المسلمين مـن العناصـر المسـلمة الضـعيفة والمـنافقة التـي تدخل في الجماعة المسلمة أيام الرفاه والعافية وتتميز عنهم أيام البأساء والضراء.

وهـذا هو التمحيص الأفقي داخل المجتمع وهو قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

والـدرس الخامس أن أمثال هذه الانتكاسات تبني الجماعة المؤمنة بناءً قويـاً، وتجعـل منهم أئمة، وسادة، وشهداء، وقيمين على وجه الأرض... ولو كانـت أيـامهم كلّها تعمّها نشوة الفتوح والانتصارات، وأيام عافية ورخاء لم يتمكنوا أن يحلوا في مواقع القيمومة والشهادة والإمامة على وجه الأرض.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾.

إن الله تعـالى إنمـا يـتخذ مـنهم شـهداء فـي مثل هذه الانتكاسات والأيام والظروف الصعبة.

والدرس السـادس هـو دورة التمحيص العمودي التي تدخلها هذه الأمة في مثل هذه الانتكاسات.

وهو غير دورة التمحيص الأفقي التي تحدثنا عنها.

فكمـا أن فـي المجـتمع قـوي وضـعيف وصـالح وطالح ومؤمن ومنافق... وهـذه الانتكاسات تفرز المؤمن عن المنافق والأقوياء عن الضعفاء... كذلك فـي نفـوس المؤمنين نقاط قوة وضعف، يقين، وريب، ثقة وشك، نزوع إلى التحدي والمواجهة وإيثار للعافية، حلم وغضب، عفو وانتقام.

ومثل هذه الانتكاسات تؤدي دوراً مؤثراً في تهذيب نفوس المؤمنين وعلاج نقاط الضعف، والريب، والهلع، والجزع، والخوف، والجبن، والحرص، والحسد في نفوسهم، وتعمّق حالات اليقين، والثقة، والإيمان، والعزم، والحزم، والحسم في نفوسهم... وهذا هو التمحيص العمودي داخل النفوس وهو لا يكون إلاّ في أيام البأساء والضرّاء وهو قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

والدرس السابع هو إن هذه الانتكاسات تصيب المؤمنين والكافرين على نحو سواء في (تداول الأيام)، ولا يمكن لأمة أن تسلم منها، مهما كانت مؤمنة أم كافرة، ولكن بفارق نوعي كبير في العاقبة.

فإن هذه الانتكاسات للمؤمنين تمحيص وتهذيب وتشذيب في عرض الأمة العريض وهو (التمحيص الأفقي)، وتمحيص في عمق شخصية المؤمنين (التمحيص العمودي). ولكنها للكافرين محق وهلاك.

وشتان بين هذه العاقبة وتلك.

إن مخاض الولادة صعب ونزع الموت صعب ولكن شتان بين الصعبين.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

للمؤمنين ولادة جديدة وبعث جديد، وللكافرين محق وسقوط.

والدرس الثامن أن أمثال هذه الانتكاسات هي السبيل إلى دخول الجنة، ولا يحسبنّ أحدٌ أن السبيل إلى الجنة سهل يسير.

فلن يدخل الجنة إلاّ المجاهدين الصابرين الذين يعرف عنهم الله تعالى الصدق في الجهاد والصبر في المواقف... ولن يكون ذلك إلاّ في مثل هذه الانتكاسات. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ

منكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

إن أمة تتلقى الانتكاسات والهزائم في التاريخ في مثل هذا الإطار الثقافي الجميل حَريّة أن لا يصيبها الوهن والحزن والخوف في مسيرتها التاريخية في نشر دعوة الله وتقرير دين الله على وجه الأرض وتعبيد الناس لله تعالى وتحكيم شريعة الله على وجه الأرض.

٣ـ الفاصل الكبير بين المعسكرين

إذا كان المقاتلون في معسكر بني أمية يقاتلون ابتغاء الجائزة والذهب والفضة، ويخاطب (سنان) عبيد الله بن زياد، بعد وقعة الطف بهذا الخطاب الوقح الصلف:

املأ ركابي فضة أو ذهبا ... أنا قتلت الملك المحجبا[1]

فإن أنصار الحسين عليه السلام يقاتلون ويقتلون رجاء رحمة الله، وليس ابتغاء شيء من متاع الدنيا... وهذا فاصل كبير وشاسع بين المعسكرين. أحدهما يعمل ابتغاء الذهب والفضة، والآخر ابتغاء رحمة الله وفضله. ورجز أنصار الحسين عليه السلام يحفل بالكثير من هذا الشعر الهادف الذي يتضمن الإخلاص لله والعمل لوجهه الكريم وابتغاء مرضاته، والاستهانة بكل شيء آخر دون ذلك.

رحم الله (جون) بارز القوم وهو يقول:

كيف يرى الفجّار ضرب الأسود ... بالمشرفي القاطع المهند

١ـ ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من طبقات ابن سعد: ١٨٤، تاريخ الطبري ٥: ٤٥٤، الفتوح لابن اعثم ٥: ١٣٨، مقاتل الطالبيين: ٨٠، امالي الصدوق: ٢٢٧ـ ٢٣٩، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٧: ١٥٦.

بالسيف صلتا عن بني محمد أذب عنهم باللسان واليد
أرجو بذاك الفوز عند المورد من الإله الواحد الموحّد
إذ لا شفيع عنده كأحمد[١]

ويقول عبد الرحمن بن عبد الله الارحبي، وهو يرتجز يوم عاشوراء بين يدي الحسين عليه السلام في ساحة القتال الصعب، ويقول:

أنا ابن عبد الله من آل يزن ديني على دين حسين وحسن
أضربكم ضرب فتى من اليمن أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن[٢]

ويقول آخر من أنصار الحسين عليه السلام في ساحة القتال، وهو مالك بن دودان:

إليكم من مالك الضرغام ضرب فتى يحمي عن الكرام
يرجو ثواب الله ذو الإنعام[٣]

إنّ الفاصل المكاني الذي يفصل بين المعسكرين قليل فقد كانت تجمعها ساحة واحدة صغيرة... ولكن الفاصل المعنوي بينهما عظيم.

أحدهما، همه الدنيا ومتاعها، وجائزة الأمير والذهب والفضة، ولا يتجاوز همه هذه الدنيا ومتاعها، والآخر همه مرضاة الله، لا يطلب من هذه الدنيا شيئاً. قد عزف عنها عزوفاً كاملاً، ورغب فيما عند الله تعالى مما لا ينفذ، من

١ـ مقتل أبي مخنف: ١١١، الفتوح، ابن اعثم ٥: ١٢٢، مقتل الحسين، الخوارزمي ٢: ١٩، مناقب ابن شهر اشوب ٤: ١٠٣، انساب الاشراف ٣: ٤٠٣، بحار الانوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٦، أعيان الشيعة ٤: ٢٩٧.

٢ـ الفتوح، ابن اعثم ٥: ١١٩، مقتل الحسين، الخوارزمي ٢: ١٧،، مناقب ابن شهر اشوب ٤: ١٠٢، انساب الاشراف ٣: ٤٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٥.

٣ـ مقتل أبي مخنف: ١١٦، مناقب بن شهراشوب ٤: ١٠٤

رحمته يرجو رحمة الله ويطلب مرضاته، ويبيع نفسه لله تعالى.

وهذه المقارنة بين المعسكرين يذكرنا بالمقارنة التي يذكرها أنصار الحسين عليه السلام في أرجازهم بين القيادتين: القيادة العلوية والقيادة الأموية، وما بين هاتين القيادتين من بعد شاسع في المفاهيم، والقيم، والأخلاق، والغايات، والانتماء... فهؤلاء آل علي، ينتمون إلى الله ورسوله وأعداءهم إلى حزب الشيطان، وهذا الاختلاف بين القيادتين تتطلب، لا محالة، اختلافاً بين المعسكرين.

ولنستمع إلى أنس بن حارث الكاهلي رضي الله عنه، من أنصار الحسين عليه السلام، يرتجز يوم عاشوراء، بين يدي الإمام، ويعلن عن هذا الفارق الشاسع بين القيادة العلوية والقيادة الأموية في الغايات، والاهتمامات، والقيم، والأخلاق، فيقول:

قد علمت (كاهلها) و(الدودان) و(الخندفيون) و(قيس عيلان)
بأن قومي قصّم الأقران يا قوم كونوا كأسود الجان
آل علي شيعة الرحمن وآل (حرب) شيعة الشيطان[1]

ويرتجز حبيب بن مظاهر رضي الله عنه في ساحة المعركة، ويذكّرهم بهذا الفاصل الشاسع بين المعسكرين والقيادتين في الكم، والكيف، والأخلاق، والقيم، فيقول:

أنا حبيب وأبي مظهّرُ فارس هيجاء وحرب تسعرُ

١ـ الفتوح، ابن اعثم٥: ١٢١، أمالي الصدوق ٢٢٤ـ ٢٣٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٨، مناقب ابن شهراشوب٤: ١٠٢، مثير الأحزان: ٦٣، بحار الانوار٤٤: ٣٢٠و٤٥: ٢٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٨،١٦٩.

أنتم أعدّ عدة وأكثرُ ونحن أعلى حجّة واظهر
وانتم عند الهياج غدّر ونحن أوفى منكم واصبر[١]

وهذه مقارنة دقيقة في الكم، والكيف، وفي القيم، والأخلاق، فهم أكثر عدة، وعدداً، وقوة، ومالاً، وأنصار الحسين عليه السلام أعلى منهم وأظهر حجة، يغلبونهم بموازين العدد والعدة، ويغلبهم أنصار الحسين عليه السلام بموازين الحجة والبرهان.

وأولئك قوم غدّر ضعاف عند الهياج، وأنصار الحسين عليه السلام أوفياء لإمامهم، واصبر منهم في تحمل معاناة الحروب ومعاناتها.

وإذا كان أنصار الإمام يتميزون عن معسكر بني أمية بالحجة والبرهان، فهم يتميزون بالعناد واللجاج.

يقول حبيب رحمه الله في رجز آخر له في ساحة المعركة:

اقسم لو كنا لكم أعدادا أو شطركم وليتم أكتادا[٢]
يا شر قوم حسباً وآدا ويا أشدّ معشر عنادا[٣]

فلو كان عدد أنصار الحسين عليه السلام بعدد جيش بني أمية، أو كانوا يعدون من حيث الكم شطراً يعتد به منهم ومن قوتهم لولى الجيش الأموي فراراً من بأسهم، ثم يصفهم بأنهم شر قوم حسباً وفضاعة.

١ـ مقتل أبي مخنف ١٠٣، انساب الأشراف ٣: ٤٠٢، الفتوح، ابن اعثم٥: ١٢٢، مناقب ابن شهر أشوب ٤: ١٠٣، مثير الاحزان٦٢، البداية والنهاية ٨: ١٨٥، بحار الانوار٤٥، ٢٦، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٦٩، ٢٧٠، أعيان الشيعة ٤: ٥٥٥.

٢ـ أكتاداً: أي وليتم فرقاً وجموعا من المعركة ورد الأمر الفضيع المنكر (ظ).

٣ـ تاريخ الطبري٥: ٤٣٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٨، بحار الانوار٤٥: ٢٦، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧٠، أعيان الشيعة ٤: ٥٥٥.

ونجد هذه المقارنة في قطعتين من الشعر للإمام عليه السلام في احداهما يشير إلى أصله، وأهل بيته، وجده، وأبيه، وأمه، وفيما خصهم الله تعالى به من النور والهدية، وما خص الله تعالى شيعتهم من الكرامة.

وفي الأخرى يشير الإمام عليه السلام إلى بني أمية وأصولهم ومحاربتهم للإسلام وقتالهم لأبيه وأخيه من قبل وحقدهم ونفورهم من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم واليك هاتين القطعتين:

القطعة الأولى: يقول عليه السلام في التعريف بنفسه وأسرته وأصوله:

أنا ابن علي الخير من آل هاشم ... كفاني بهذا مفخراً حين أفخر

وجدي رسول الله أكرم من مضى ... ونحن سراج الله في الأرض نزهر

وفاطمة أمي ابنة الطهر أحمد ... وعمي يدعى ذو الجناحين جعفر

وفينا كتاب الله أنزل صادعاً ... وفينا الهدى والوحي بالخير يذكر

ونحن أمان الله في الخلق كلهم ... نسرّ بهذا في الأنام ونجهر

ونحن ولاة الحوض نسقى محبنا ... بكأس رسول الله ما ليس ينكر

وشيعتنا في الناس أكرم شيعة ... ومبغضنا يوم القيامة يخسر[1]

ويقول في القطعة الثانية في التعريف بأعدائه من معسكر بني أمية أولاً، ثم التعريف بنفسه وجده وأبيه وأمه صلوات الله عليهم:

كفر القوم وقدما رغبوا ... عن ثواب الله رب الثقلين

قتلوا قدماً علياً وابنه ... حسن الخير كريم الأبوين

حنقاً منهم وقالوا اجمعوا ... نفتك اليوم جميعاً بالحسين

١ـ مقتل أبي مخنف ١١٨، الفتوح، ابن اعثم ٥: ١٣٤، مقتل الحسين، الخوارزمي ٢: ٣٢، بحار الانوار ٤٥: ٤٩، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩١.

يــا لقــوم مــن أنـاس رُذّل جمعـوا الجمـع لأهـل الحرميـن
ثـم سـاروا وتواصـوا كلّهـم باجتـياح لرضـاء الملحديـن
لـم يخـافوا الله فـي سـفك دمي لعبـيد الله نسـل الكافريـن
وابـن سـعد قـد رمانـي عـنوة بجـنود كوكـوف الهاطليـن
لا لشـيء كـان مـنّا قـبل ذا غـير فخـري بضـياء الفرقديـن
بعلـي الخـير مـن بعـد النبـي والنبـي القرشـي الوالديـن
خـيرة الله مـن الخلـق أبـي ثـم أمـي فأنـا ابـن الخيرتيـن
فضـة قـد خلصـت مـن ذهـب فأنـا الفضـة وابـن الذهبيـن
مـن له جـدّ كجـدي في الورى؟ أو كشـيخي فأنـا ابـن العلميـن
فـاطم الزهـراء أمـي وأبـي قاصـم الكفـر بـبدر وحنيـن
عـبد الله غلامـا يافعـاً وقـريش يعـبدون الوثنيـن
يعـبدون الـلات والعـزى معـاً وعلـيّ كـان صـلى القبلتيـن
فأبـي شـمس وأمـي قمـر فأنـا الكوكـب وابـن القمريـن
ولـه فـي يـوم احـد وقعـة شـفت الغـل بفـضّ العسـكرين
ثـم فـي الأحـزاب والفـتح معـاً كـان فـيها حـتف أهـل الفيلقيـن
فـي سـبيل الله مـاذا صـنعت امـة السـوء معـاً بالعترتيـن
عـترة الـبر النبـي المصـطفى وعلـيّ القـوم يـوم الجحفليـن[1]

إن هـذه المقارنـة بيـن الجيشـين والقيادتيـن شـيء أسـاس في فهم طبيعة هـذه المعـركة، ومـا تتضمن من الفرقان الذي لا لبس فيه... فلم يتّبع من اتّبع

١ـ مقتل أبي مخنف١٣٤، الفتوح، ابن اعثم٥: ١٣٢، مناقب ابن شهر اشوب٤: ٧٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ٣٣، كشف الغمة ٢: ٢٦، بحار الانوار٤٥: ٤٧، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٩٠.

آل أمية في هذه المعركة وشهر سيفه على الحسين عليه السلام، ولم يتخلف من تخلف عن الحسين عليه السلام لالتباس في أمر هذه المعركة... فقد كان يزيد اشهر من أن يخفى أمر فسقه وظلمه على احد وكان الحسين وموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله أوضح من أن يخفى على أحد... فلم يتخلف أحد عن الحسين عليه السلام إلا إيثاراً للعافية، ولم يشهر أحد ممن شهر سيفه على الحسين، إلا حرباً على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته.

ولذلك فإن إعلان وبيان الفاصل الشاسع بينهما من حيث العروج والسقوط والقيم وأضداد القيم، أمر هام في هذه المعركة.

وهذه النقطة هي السبب في كل هذا التأكيد الذي نجده في ميراث عاشوراء من الخطاب والشعارات في طبيعة المعسكرين المتقاتلين في يوم عاشوراء والاختلاف الشاسع بينهما بل التقابل بينهما من حيث القيم والأهداف والأخلاق والتوحيد.

فنرى القاسم بن الحسن المجتبى عليه السلام يرتجز، ويخاطب عصبة القتلة والجلاوزة التي أحاطت بابن رسول الله صلى الله عليه وآله، تريد قتله، فيقول:

يا عصبة جارت على نبيها ... وكدّرت من عيشها ما قد نقى
في كل يوم تقتلون سيداً ... من أهله ظلماً وذبحاً من قفا[1]

ويقول محمد بن عبد الله بن جعفر ابن عمّ الحسين عليه السلام مندداً بهذه العصبة الأثيمة وشاكياً إلى الله تعالى ظلمهم وجوره لأهل البيت:

نشكو إلى الله من العدوان ... فعال قوم في الردى عميان

١ـ مناقب ابن شهر اشوب ٤: ١٠٧.

قـد تـركوا معالم القـرآن ومحكـم التـنزيل والتبـيان[١]

واظهروا الكفر مع الطغيان

إن قيمة التشهير بالظالمين وتسقيطهم في الإسلام لا تقل عن قيمة تعظيم الصالحين وتوقيرهم وتكريمهم، والبراءة في الإسلام توازي الولاء قيمة، وهما طرفا قضية واحدة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض.

٤. خيارات الحرب الصعبة

يرتجز علي بن الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذا الرجز القوي الحاسم:

الحـرب قـد بانـت لهـا حقـائق وظهـرت مـن بعدهـا مصـادق

والله ربّ العـرش لا نفـارق جموعكـم أو تُغمـد البوارق[٢]

لقد بادرتم أنتم بإشعال نار الحرب، وأشهرتم علينا سيوفكم من غمادها، فقبلناها ودخلناها.

والآن، وقد اشتعلت الحرب ودخلها أبطال منا، وتساقطت منكم الرؤوس والأيدي والأرجل، وأزهقت منكم الأرواح، وتجلّت لكم منها مصاديق الحرب وحقائقها... فلا سبيل لكم للانسحاب، ولا خيار لكم إلاّ أن تغمدوا السيوف (البوارق)، التي أشهرتم بوجهنا ظلماً وعدواناً. تغمدوها هذه المرة، استسلاماً وصغاراً، أو تتساقط منكم الرؤوس والأيدي، وتتقبلوا عارها وخزيها (عار قتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله)، بين يدي الله وفي التاريخ.

١ـ الفتوح، ابن اعثم٥: ١٢٧، مقتل الحسين،الخوارزمي٢: ٢٦، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠٦، بحار الانوار٤٥: ٣٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧٧.

٢ـ الفتوح لابن اعثم ٥: ١٣١، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٣١، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٩، بحار الأنوار ٤٥: ٤٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٨٦.

إن خيارات الحرب التي أشعلها بنو أمية على الحسين عليه السلام اثنتان وليس أكثر، فأما أن يعلن جيش بني أمية العجز عن مواجهة أنصار الحسين عليه السلام، ويعيدوا السيوف إلى الغماد، ويعلنوا الانسحاب والاستسلام... وهذا هو الخيار الأول، وإن لم يقبل جيش بني امية بهذا الخيار، فليس أمام أنصار الحسين عليه السلام إلا خيار واحد فقط، وهو مواصلة الكر والقتال، حتى الهزيمة الكاملة لجيش العدو، وتسجيل الخزي والعار عليهم إلى الأبد حيث بادروا بقتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يدعوهم إلى الله ورسوله.

وهذا هو معنى إنذار علي بن الحسين عليه السلام يومئذ لجيش بني أمية:

والله ربّ العرش لا نفارق جموعكم أو تُغمد البوارق

وهذه هي الحقائق والمصاديق التي تجلّت في الحرب لجيوش بني أمية.

ونقرأ نحن اليوم هذا الرجز، ونعجب مما كان ينشده هذا الشاب يومئذ على الأعداء بثقة كاملة ومن دون أي تردد أو تلجلج.

فماذا يقصد علي بن الحسين عليهما السلام؟ هل يريد إخافة العدو بسطو أنصار الحسين عليه السلام عليهم، وبأسهم، وشجاعتهم النادرة، فيلقي في قلوبهم الرعب... قد يكون ذلك. فقد يجوز في الحرب من المبالغة في إظهار القوة ما لا يجوز في السلم.

ولكنني أعتقد أنّ علي بن الحسين عليهما السلام يريد أمراً آخر غير هذا الوجه، فليس من المقبول أن ينكر علي بن الحسين عليهما السلام في رجزه ما لا يشك أحد في ذلك وهو أن هذا اليوم (عاشوراء) يشهد مصرع الحسين عليه السلام وأنصار الحسين عليه السلام جميعا... وليس من المعقول أن علي بن الحسين عليهما السلام ينكر هذه النقطة في رجزه.

إنني اتصوّر أن علي بن الحسين عليه السلام يقول لتلك العصابة المجرمة من جيش ابن زياد إنكم قدمتم إلى قتال الحسين عليه السلام وأنصاره بوهم كبير... فقد تراءى لكم إنكم سوف تكبلونهم في ساعة أو بعض ساعة، وتأتون بهم إلى ابن زياد أسرى، فيأخذ منهم البيعة للطاغية... فلما واجهتم الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء، تبين لكم أن تلك الأمنية كانت وهماً، وإنكم تواجهون اليوم ابطالاً لا يدعون السيف عن أيديهم، حتى يقتلوا منكم جمعاً كبيراً، وَيُقْتَلوا في ساحة المعركة عن آخرهم، صغيرهم، وكبيرهم. فلن تجدوا السبيل إلى ما تطلبون اطلاقاً.

وأمام جيش ابن زياد خياران لا ثالث لهما، فإما أن يتقبلوا القتال فيقتلوا منهم، ويقتلوا عن آخرهم، قبل أن تسمعوا منهم البيعة والطاعة... وعندئذ تبوؤن بخسارة الدنيا والآخرة، وبخزي الدنيا والآخرة.

فماذا يتوقع في الدنيا والآخرة ناس خرجوا لقتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليرغموه على البيعة والطاعة للطاغية ابن الطاغية، يزيد بن معاوية؟

والخيار الآخر، وهو اقرب إليكم وأيسر، وآمن لدينكم ودنياكم أن تغمدوا السيوف وتنسحبوا من القتال راضخين مستسلمين لبأس أنصار الحسين عليه السلام، وقوتهم، وصمودهم في ساحة القتال.

وهذا الخيار اولى لكم، لدينكم ودنياكم، إن كنتم احراراً في دينكم ودنياكم، ولم يستعبدكم الطاغية.

٥. أولو الأيدي والأبصار:

في يوم عاشوراء نلتقي ظاهرة نادرة في المعارك والوقائع، وهي خليط من الشجاعة والبصيرة وهذا الخليط ذو قيمة كبيرة جدا في نتائج المعركة.

وبين البصيرة والشجاعة علاقة قويةً فأن البصيرة تأتي بالشجاعة، والمقاتل الذي يمتلك بصيرة في القضية التي يقاتل من أجلها يزداد قوة وشجاعة وكفاءة في القتال.

ونحن نجد في أنصار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء هذا المزيج من البصيرة والشجاعة، بينما نجد أن المقاتلين في الجهة المقابلة يقاتلون من غير قضية ولا بصيرة... وفقدان القضية والبصيرة ينعكس سلَبياً على كفاءآتهم وقدراتهم القتالية وشجاعتهم وبسالتهم في ساحات القتال.

ونعجب ممّا ينقل أرباب السير عن الشهود الذين شهدوا المعركة كيف كان المقاتلون من جيش ابن زياد ينهزمون من أمام أنصار الحسين عليه السلام حتى كانت الخيل تقتلهم تحت حوافرها، في تزاحم الهزيمة، والتدافع للفرار، من أمام صولات أنصار الحسين عليه السلام. وهذه النقطة تفسّر لنا كثرة القتلى في صفوف جيش ابن زياد.

فلما أثخنوا جيش ابن زياد بالقتل والجرح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تصايح رجال عمر بن سعد، وقالوا لو استمرت الحرب برازاً بيننا وبينهم لأفنونا إلى آخرنا... فأمر قائدهم أن يرشقوهم بالحجار والنبال، فأحاطوا بهم وضيّقوا عليهم، وقتلوهم بالنبال والأحجار، حتى قتلوا أكثر أنصار الحسين عليه السلام بهذا النحو.

يقول الطبري في التاريخ:

لما أكثر أصحاب الحسين عليه السلام القتل في أهل الكوفة فزع أهل الكوفة من بأس أصحاب الحسين عليه السلام وسطوتهم... فصاح عمرو بن الحجاج بأصحابه: أتدرون من تقاتلون، تقاتلون فرسان المصر وأهل البصائر، وقوماً

مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منكم إلاّ قتلوه على قلّتهم. والله لو لم ترموهم إلاّ بالحجارة لقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت. أرسل في الناس من يعزم عليهم ألاّ يبارزهم رجل منهم ولو خرجتم إليهم وحداناً لأتوا عليكم[١].

وكانت العرب تترفع عن هذا النحو من القتال، وتعتبره جبناً وفراراً من المواجهة ولجوءً إلى أساليب الضعاف والمهزومين. غير أنهم لم تكن لهم حيلة في هذه المواجهة غير هذا الاسلوب من القتال.

فلما برز الإمام عليه السلام إليهم بالقتال طلب منهم البراز فما أمهل أحدا يبرز إليه بالقتال حتى قتله، فأحجموا عن مبارزته فشدّ عليهم، بالهجوم فانهزموا من أمامه.. وهو رابط الجأش، يقاتل ببسالة وشجاعة وثقة كبيرة.

يقول حميد بن مسلم، وهو راوية الطف: (ما رأيت مكثوراً[٢] قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه اربط جأشا ولا أمضى جناناً منه، إن كانت الرجّالة لتشدّ عليه، فيشدّ عليها بسيفه، فتنكشف عن شماله إنكشاف المعزى إذا شد فيها الأسد).

فلما عجز عن مواجهته أمرهم الشمر (لعنه الله) أن يرشقوه بالنبال والحجارة، فرموه بالنبال حتى صار جسمه سلام الله عليه كالقنفذ.

وليست الكفاءات القتالية والقوة الجسدية في أنصار الحسين عليه السلام هو كل شيء في هذا التفوق الحربي البارز على جند ابن زياد يوم عاشوراء، فقد كان في جند ابن زياد أبطال وقادة عسكريون معروفون بالبسالة والشجاعة...

١ـ تاريخ الطبري: ٦: ٢٥٥.

٢ـ المكثور: الذي كثر عليه الناس في القتال.

وإنما يعود السبب الأكبر في هذا التفوق القتالي إلى البصيرة التي كان يمتلكها أنصار الحسين عليه السلام في هذه المعركة، وفي الجهة المقابلة فقدان البصيرة والقضية في جيش ابن زياد... وهذه البصيرة كانت تمنحهم جرأة وشجاعة وقوّة، وتزيد في كفاءاتهم القتالية، بينما كان فقدان القضية والبصيرة في الجهة المقابلة من أهم عوامل ضعفهم عن مبارزة أنصار الحسين عليه السلام يومئذ.

وعابتِ زوجة كعب بن جابر عليه، فقالت: أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيد القرّاء (برير). لقد أتيت أمراً عظيماً من الأمر، والله لا أكلمك كلمة واحدة، فقال يخاطبها:

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ألا كُلّ من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للضرب والطعن حسرة وقد نازلوا لو أن ذلك نافع[1]

لقد كانت المرأة العجوزة تأخذ بيدها عمود الخيمة، فتبرز لقتال العدو، فتقتل منهم اثنين أو ثلاث، فيسترجعها الإمام عليه السلام ويترحّم عليها، ويطلب منها أن ترجع إلى النساء، ويقتل القاسم بن الحسن عليه السلام وهو في عمر المراهقة لا يزيد عليها، رجالاً أشداء من القوم، ويكرّ عليهم فينهزمون من أمامه، وينحني في ساحة المعركة ـ وهو بين رجال مقاتلين أشدّاء ـ ليصلح شسع نعل له، انفلت من النعل، غير هيّاب بمن يواجه من الرجال الأشداء، فيكمن له أحدهم ويضربه بسيفه، فيرديه الأرض... وكذلك سائر أنصار الحسين عليه السلام شبابا وشيوخا ومراهقين، ولسنا نعرف تفسيرا واضحاً لكل هذه

١ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤٧.

البسالة، والقوة، والكفاءة القتالية العالية، والتفوق القتالي البارز غير البصيرة التي كان يتمتع بها أنصار الحسين عليه السلام، وكان يفقدها جند ابن زياد.

وقد ذكر أرباب السير عمن شهد المعركة يومئذ أن جند ابن زياد لم يكونوا يقتلون أحدا من أنصار الحسين عليه السلام حتى يقتل منهم العشرة أو العشرين أو الأكثر...

وكلما تزاحمت عليهم المصائب ليلة عاشوراء ويومه كان يزداد وجوههم إشراقا وابتهاجا، وكان بعضهم يمازح بعض في تلك الليلة الصعبة، وهم في حصار كامل من ناحية العدو، ولا أمل لهم مطلقاً في الخلاص من هذا الحصار.

لقد كانوا على بيّنة كاملة من أمرهم، ولم يخالجهم شك قط أن مصيرهم إلى الجنة، ومصير أعدائهم إلى النار، وأنهم على هدى وأن أعداءهم على ضلال، وأنهم سائرون إلى الله، وعدوهم إلى الشيطان.

وهذه البصيرة الكاملة والشجاعة النادرة التي تستتبعها هي سّر قوتهم وبأسهم في ساحة القتال وسّر الرعب الذي كان يدخل قلوب المقاتلين من رجال ابن زياد، فيحجمون عن قتالهم.

ولقد استغرب بعضهم عن هذا التخاذل والفرار من أمام أنصار الحسين عليه السلام، وهم قلة قليلة وأعداؤهم كثيرون.

(قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟!.

فقال: عضضت بالجندل، إنّك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة، أيديها في مقابض سيوفها، كالأسود الضارية تحطِّم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في

المـال، ولا يحـول حـائل بيـنها وبين الورود على حياض المنيّة، أو الاستيلاء على الملك، فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها، فما كنا فاعلين لا أم لك)؟!(١).

وتـبرز هـذه الشـجاعة والبصـيرة في ساحة القتال فيما أثر عنهم من الرجز الـذي كـانوا يلقونـه فـي ساحة القتال على أعدائهم، فتنعكس هذه الشجاعة النادرة والبصيرة الشفافة في الرجز والشعارات التي كانوا يرفعونها في ساحة القتال، فيرهبهم أعداؤهم، ويدخلهم الرعب منهم.

والمقـاتل الجيد هـو الذي يرهـب عدوه قبل أن ينازله... ولا زال للإعلام العسـكري دور كبـير فـي تصـعيد معـنويات المقاتليـن... وإذا كـان للإعـلام العسـكري هـذا الـدور الكبـير فـي تصـعيد قـدرات وكفـاءات ومعـنويات المقاتليـن، فان الإحساس بالضعف والعجز والهزيمة النفسية من سطوة العدو لـه دور كبـير فـي إحـباط معـنويات المقاتليـن وإحباط كفاءاتهم وقدراتهم القتالية.

وفـي الرجـز الـذي يلقـيه أنصار الحسين عليه السلام في كربلاء نجد هذا العنوان واحدا من أبرز العناوين التي تغطي مساحة كبيرة من هذه الشعارات.

يقول برير رضي الله عنه:

أنـــا بريـــر وأبـــي خضـــير ليـث يـروع الأسـد عـند الزئـير(٢)

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ٢٦٣، حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ باقر شريف القرشي ١: ١١٨.

٢ـ الفتوح لابن اعثم ٥: ١١٥، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١١، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٥: ١٥، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٦٩، ٢٥٩، أعيان الشيعة ٣: ٥٦٢.

ويقول بشر بن عبد الله رحمه الله:

قـد علـم القـوم إذا تواكلـوا وأحجـم الفرسـان أو تناضـلوا
إنـي شـجاع بطـل مقـاتل كأننـي ليـث عريـن باسـلُ[1]

ويقول أنيس بن معقل الاصبحي رحمه الله:

أنـا أنـيس وأنـا ابـن معقـل وفـي يميني نصل سيف مُصقل[2]
أعلو بـه الهامات وسـط القسطل حـتى أزيـل خطـبه فينجلـي

ويقول جون رحمه الله غلام أبي ذر:

كيف يرى الفجار ضرب الأسود بالمشـرفي القـاطع المهـند[3]

ويقول الغلام التركي الذي ورد اسمه في بعض المصادر بإسم (اسلم) رحمه الله:

البحر مـن طعني وضربي يصطلي والجـو مـن نبلـي وسـهمي يمتلـي
إذا حسـامي فـي يمينـي ينجلـي يشـق قلـب الحاسـد المـبُجّل[4]

وهو من أروع ما نعرف من الرجز في التغني بالشجاعة والقوة.

وفي شعر الرجز لأنصار الحسين عليه السلام الكثير من هذا اللون من الشعر.

ثـم تمـتزج هـذه الـبطولة والشـجاعة فـي رجـزهم بالـتعريف والإعـلان

١ـ الفتوح لابن اعثم ٥: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٧، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٣٨.

٢ـ الفتوح لابن اعثم ٥: ١٢٣، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١٩، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٣، أعيان الشيعة ٣: ٥٠٧.

٣ـ مقتل أبي مخنف: ١١١، الفتوح لابن اعثم ٥: ١٢٢، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ١٩، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٣، أنساب الأشراف ٣: ٤٠٣، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٦٦، أعيان الشيعة ٤: ٢٩٧.

٤ـ مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٢٤، مناقب ابن شهرآشوب ٤: ١٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٣٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧٣.

بالبصائر التي رزقهم الله تعالى في هذه المواجهة فيكون الرجز من أجمل وأروع ما نعرف من رجز المقاتلين في ساحة القتال.

يرتجز جون غلام أبي ذرﷺ يوم عاشوراء ويعلن للعدو شجاعته النادرة وبصيرته النافذة، فيقول:

كيف يرى الفجار ضرب الأسود ... بالمشرفي القاطع المهند
بالسيف صلنا عن بني محمد ... أذب عنهم باللسان واليد
أرجو بذاك الفوز عند المورد ... من الإله الواحد الموحد

شجاعة نادرة ورجاء وثيق بالفوز عند الله.

ويضرب الفتى اليمني عبد الرحمن بن عبد الله الارحبيﷺ العدو بسيفه، وهو يرجو بثقة واطمئنان الفوز، عند الله بالجنة:

أنا ابن عبد الله من آل يزن ... ديني على دين حسين وحسن
أضربكم ضرب فتى من اليمن ... أرجو بذاك الفوز عند المؤتمن[1]

وهذا المزيج من الشجاعة والبصيرة هو الذي يحدثنا عنه القرآن في وصف إبراهيم وإسحاق ويعقوبعليهم السلام: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[2].

أي اولوا القوة والبصيرة. والله تعالى يحب اجتماع القوة والبصيرة في عباده. وكما تجتمع البصيرة مع القوة والشجاعة في أنصار الحسينعليه السلام يوم عاشوراء، كذلك تجتمع البصيرة مع الصبر والصمود فيهم في هذا اليوم. وسوف نتحدث عنه إن شاء الله فيما بعد.

١ـ الفتوح لابن اعثم ٥: ١١٩، مقتل الحسينعليه السلام للخوارزمي ٢: ١٧، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٢، أنساب الأشراف ٣: ٤٠٤، بحار الأنوار ٤٥: ٢٢ ـ ٢٣، العوالم (كتاب الحسينعليه السلام): ٢٦٥.

٢ـ سورة ص: ٤٥.

٦ـ الصبر والبصيرة

هما ضرورتان من أهم ضرورات الصراع... فلا بد في الصراع من الصبر.

ومن لا يصبر أو ينفذ صبره في ساحة الصراع يسقط لا محالة ولا بد مع الصبر من بصيرة... وقد كان أنصار الحسينعليه السلام أولي بصيرة وصبر، وكان جند ابن زياد يفقدون هذا وذاك.

وهذا هو سرّ عجزهم عن مبارزة أنصار الحسينعليه السلام، ومحاربتهم لهمعليهم السلام بالرشق بالنبال والأحجار، وهو حيلة العاجز عن القتال.

نعم. لابدّ للمقاتل في ساحة القتال من الصبر والبصيرة.

ولكن أيهما قبل الآخر البصيرة أم الصبر؟

لا شك في أن البصيرة هي مفتاح الصبر، وكلما كان الإنسان أكثر بصيرة كان أعظم صبراً، والإنسان يصبر على ما يعلم ولا يصبر على ما لا يعلم.

ولكن مع ذلك كله فان الصبر يزيد صاحبه بصيرة، وبين الصبر والبصيرة علاقة جدلية، كل منهما يؤدي إلى الآخر، ولهذه الحالة التبادلية بين خصال النفس مظاهر كثيرة في نفس الإنسان.

ولقد كان أنصار الحسين يجمعون بين الصبر والبصيرة... وفي الرجز الذي كان يلقيه أنصار الحسينعليه السلام في ساحة القتال... نجد هذا التزاوج بين الصبر والبصيرة بارزاً، يملأ مساحة واسعة من الرجز.

فكان خالد بن عمر ينشد في ساحة القتال هذه الأبيات من الشعر:

صبراً على الموت بني قحطان ... كيما تكونوا في رضا الرحمن

ذي المجد والعزة والبرهان ... وذي العلى والطول والإحسان

يـا أبـتا قـد صـرت فـي الجـنان   فـي قصـر ربّ حسـن البنـيان[1]

يدعو نفسه إلى الصبر، كيما ينال رضا الله تعالى.

ثم يخاطب أباه بما صار إليه، وكأن الله تعالى فتح عن بصيرته في تلك الساعة، فرأى ما حباه الله تعالى من الجنان.

يـا أبـتا قـد صـرت فـي الجـنان   فـي قصـر ربّ حسـن البنـيان

ويتشوّق سعد بن حنظلة التميمي(من أنصار الحسين عليه السلام)رحمه الله في تلك الساعة إلى الجنة، والى ما يرزقه إليه فيها من حور العين، فيدعوا نفسه أن يجتهد في القتال لينالها. فيقول:

صـبراً علـى الأسـياف والأسـنة   صـبراً علـيها لدخـول الجـنة

وحـور عيـن ناعمـات هـنه   لمـن يـريد الفـوز لا بالظـنة

يـا نفـس للـراحة فأجهدنـه   وفـي طـلاب الخـير فارغبـنه[2]

ويخاطب عمر بن خالد الأزدي رحمه الله نفسه في ساحة القتال ويدعوها إلى الصبر والصمود بوجه الأعداء وألاّ يجزع من بريق السيف... فمن لا يجزع اليوم من مواجهة السيوف والأسنة يعيش في رحاب الأمان عند الله غداً.

يقول رحمه الله:

اليـوم يـا نفـس إلـى الرحمـن   تمضـين بالـروح وبالـريحان

لا تجزعـي فكـل حـي فـان   والصـبر أحظـى لـك بالأمـان[3]

١ـ الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٨، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠١، بحار الانوار٤٥: ١٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٦١.

٢ـ الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٩، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠١، بحار الانوار٤٥: ١٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٦٢.

٣ـ الفتوح، ابن اعثم٥: ١١٨، مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٤، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠١، انساب الاشراف٣: ٤٠٤، بحار الانوار٤٥: ١٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام)٢٦١.

ويرتجز شبل الحسن المجتبى القاسم عليه السلام، ويقول:

لا تجزعي نفسي فكل فاني اليوم تلقين ذرى الجنان[١]

ولماذا الجزع؟ وهل يبقى أحد إلى الأبد؟ فإذا كان الإنسان لا محالة يموت فخير الموتِ الموتُ تحت بريق السيوف.

ثم يخاطب نفسه مطمئناً، واثقا بما يعدها (اليوم تلقين ذرى الجنان).

ونجد هذا الصبر والبصيرة فيما كان ينشده الإمام الحسين عليه السلام في ساحة القتال، يخاطب نفسه بان هذا الذي يلقاه هو الموت الذي لا مفر منه لأحد، ولا بد أن يتجرعه كل أحد، وهو أمر الله تعالى وقضاؤه الذي لا راد له عن عباده وأنّ الموت يطال الجميع، ولا أحد ينجو من الموت.

فهو حكم الله تعالى في خلقه لا يسلم منه بر ولا فاجر، وإذا قضى الموت على سروات قومه وأنصاره، فقد أفنى القرون الأولى.

فلا يشمت الشامتون بموتهم، فسوف يلقون من الموت ما يكرهون، وهم خاسرون:

إذا ما الموت رفّع عن أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفنى القرون الاولينا
فلو خلّد الملوك، إذن خلدنا ولو يبقى الكرام إذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا[٢]

فإذا أبصر الإنسان هذه الحقائق، وعلم أنه لا رادّ لقضاء الله، صبر لأمر الله

١ـ أمالي الصدوق:٢٢٦: ٢٣٩، بحار الانوار٤٤: ٣٢١، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٧١.

٢ـ مثير الأحزان:٥٥ والملهوف: ١٥٧ مقتل الحسين للخوارزمي: ٢: ٧ بحار الأنوار: ٤٥: ٩ العوالم: (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٥٣.

وقضائه، وتقبله أحسن قبول بالصبر والاطمئنان إلى أمر الله تعالى.

وفي هذا المعنى يقول مسلم بن عقيل عليه السلام:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع   فأنت لكأس الموت لا شك جارع

فصبراً لأمر الله جلّ جلالُه   فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

ونقرأ في الزيارة المعروفة بـ (بأمين الله):

(اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك).

إن الاطمئنان بقضاء الله وقدره عند نزول البلاء وحلول المصيبة يرتبط بشكل مباشر بما يملك الإنسان من البصيرة، فكلّما كان حظّه من البصيرة أعظم كان صبره واطمئنانه بقضاء الله تعالى وقدره أعظم.

٧. السيف الأداة المفضلة للإثبات

رحم الله احمد بن محمد الهاشمي من أنصار الحسين عليه السلام في كربلاء كان يرتجز يوم عاشوراء بين يدي الحسين عليه السلام ويقول:

اليوم أبلو حسبي وديني   بصارم تحمله يميني

أحمي به يوم الوغى عن ديني[1]

السيف رمز القوة ورمز الحرب والمعارك الدامية و(أبلو حسبي وديني) أي اختبر صدق شرف حسبي وقوة ديني بالسيف... ويمكن أن يكون المقصود من (أبلو) الإثبات، أي اثبت شرف حسبي وصدق ديني بالسيف.

وفي حياة الناس الادعاء كثير، والإثبات قليل. وما أكثر ما يدعي الناس الاحساب، والقيم، والثبات، والقوة، والمواقع، وقليل منهم من يستطيع أن

١ـ مقتل أبي مخنف: ١١٧، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٥، أعيان الشيعة ٣: ١٥٧.

يثبت ما يدعيه.

ومن افضل وسائل الإثبات (السيف).

السيف اصدق انباءً من الكتب في حدّه الحد بين الجدّ واللعب

كما أن السيف أقوى وسيلة للدفاع. ولا يحمي الإنسان دينه وتراثه واصوله وعروقه وقيمه وأمته بأفضل من السيف.

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

ويرتجز أبو الفضل العباس عليه السلام يوم عاشوراء في ساحة القتال ويقول في هذا السياق، بعد أن قطع الأعداء يمينه:

والله إن قطعتم يميني إنّي أحامي أبدا عن ديني

وعن إمام صادق اليقين سبط النبي الطاهر الأمين[2]

وناهيك من موقف وشعار، يعلنه أبو الفضل العباس عليه السلام وقد قطع العدو يمينه، والدم ينزف من يده نزيفاً، وهو يعلن ولاءه لأخيه، ودفاعه عن الدين بالسيف والدم.

٨. تحدي الموت

الموت حتمية من الحتميات الكونية في حياة الإنسان، شاء الإنسان أو لم يشأ. ومن مواضع قهر الله لعباده، تتجلى فيه صفة القهر الإلهي، ولا أحد

١ـ الحج: ٤٠.

٢ـ مقتل أبي مخنف: ٩١، مناقب ابن شهر آشوب ٤: ١٠٨، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٨٣.

يرجو أن يفلت من الموت، ولا أحد يحاول أن يسترجع حياة من تعزّ عليه حياته إذا وقع عليه الموت.

والموت حق لا يرتاب فيه أحد إنه نازل به، ولكن الناس مع ذلك يتغافلون عنه حتى كأنّ الموت يتجاوزهم.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما خلق الله عز وجل يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت»[1]

ولا يكاد أن يفلت أحد من قبضة الموت.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «انتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وان فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلّكم، الموت معقود بنواصيكم»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً: «إذا كنت في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى»[3].

فكيف إذن نتعامل مع الموت؟

وعلى الإجابة على هذا السؤال تتوقف الإجابة على سؤال آخر وهو كيف نعيش؟

فان لنهج معيشة الإنسان وحياته وكرامته علاقة وثيقة بطريقة تعامله مع الموت، فإذا كان يخاف الموت ويجزع منه، وهو حق لا مفر منه تُذلّه الحياة، وإذا كان يتلقى الموت من غير جزع ولا فزع، ويتقبل هذه الحقيقة الحتمية التي لا مفر لأحد منها، من غير خوف وجزع عاش عزيزاً.

١ـ ميزان الحكمة ٩: ٣٩١٠.

٢ـ ميزان الحكمة ٩: ٣٩١١.

٣ـ المصدر السابق.

فان الهوى والطاغوت ويذلأن من يلتصق بالحياة، ويتهرب من الموت... ولا يتمكنان ممن يتقبل الموت ويوطّن نفسه له، فإذا حلّ به تلقاه من غير رعب ولا فزع.

وعندما نقرأ نحن اليوم الرجز الذي كان ينشده الحسين عليه السلام وأنصاره يوم عاشوراء... نجد تعاملاً متميزاً من قبلهم عليهم السلام تجاه الموت.

فهذا أبو إسحاق إبراهيم بن حصين الأسدي يرتجز فيقول:

اضرب منكم مفصلاً وساقا ليهرق اليوم دمي اهراقا

أو يرزق الموت أبو إسحاقا[1]

إنه يتقدم إلى ساحة القتال طالباً للموت:

ليهرق اليوم دمي إهراقا أو يرزق الموت أبو إسحاقا

والذي يستقبل الموت لا يجزع من شيء، ولا يرعبه شيء.

ونستمع إلى رجز مسلم بن عقيل عليه السلام، وقد أحاط به القوم في الكوفة، فيقول، مستقبلاً للموت صابراً عليه، مؤمناً بقضاء الله وقدره في الموت، إذا حلّ بالإنسان، غير متهيّب و فزع ممن يحيطه من القتلة، فاستمع إليه:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع

فأنت لكاس الموت لا شك جارع

فصبراً لأمر الله جلّ جلاله

فحكم قضاء الله في الخلق ذائع[2]

١ـ مناقب ابن شهر اشوب ٤: ١٠٥، أعيان الشيعة ٢: ١٣٦.

٢ـ مناقب ابن شهر أشوب ٤: ٩٣، بحار الانوار ٤٤: ٣٥٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٠٣.

ونستمع إلى يحيى بن سليم المازني رضي الله عنه يرتجز يوم عاشوراء، مستقبلاً الموت غير متهيب، منه يعلن ذلك للقتلة الذين يحيطون به:

لا ضربن القوم ضرباً فيصلا ضرباً شديداً في العدى معجّلا
لا عاجزاً فيها، ولا مولولا ولا أخاف اليوم موتاً مقبلاً
لكنني كالليث احمي أشبلا[1]

ويعلن أبو الفضل العباس عليه السلام أخ الحسين عليه السلام للعدو في قلب العسكر أنه غير متهيب من الموت، ولا جازع منه، وأنه خرج من المدينة مع الحسين عليه السلام طالباً للموت:

لا أرهب الموت إذا الموت رقا حتى أوارى في المصاليت لقى
نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا أني أنا العباس أغدو بالسقا
ولا أخاف الشر يوم الملتقى[2]

ثم يقسم بالله الأعز الأعظم وبالحجون وبزمزم وبالحطيم وبالمسجد الحرام: أن يواصل اليوم القتال حتى يخضب دمه جسمه، ويلقى الله مخضباً بدمائه على يد شر خلقه، وهو يدعوهم إليه عز وجل:

أقسمت بالله الأعز الأعظم وبالحجون صادقاً وزمزم
وبالحطيم والفنا المحرم ليَخضبنَ اليوم جسمي بالدم
دون الحسين ذو الفخار الأقدم إمام أهل الفضل والتكرم[3]

١ـ الفتوح، ابن اعثم٥: ١٢٠. مقتل الحسين، الخوارزمي٢: ١٨، مناقب بن شهراشوب٤: ١٠٢، بحار الانوار٤٥: ٢٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٦٧.

٢ـ مقتل أبي مخنف: ٩٠، مناقب ابن شهر اشوب٤: ١٠٨، بحار الانوار٤٥: ٤٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٣٨٣، العباس بن علي، المقرم: ٢٠٩.

٣ـ مقتل أبي مخنف ٩١.

ويهوّن على نفسه الموت، ويسترخص قيمة الحياة الدنيا ولذاتها بعد مصرع الحسين عليه السلام ويرفض أن يعيش من بعد الحسين عليه السلام فيتمتع بالدنيا من دونه عليه السلام:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني
هذا الحسين شارب المنون وتشربين بارد المعين
هيهات ما هذا فعال ديني ولا فعال صادق اليقين[1]

٩. مثلث (الموت والعار والنار)

ينشد الإمام الحسين عليه السلام بيتاً من الرجز في يوم عاشوراء، يستوقف الإنسان ويحتاج إلى تأمل وتفكير وهو:

الموت خير من ركوب العار والعار أولى من دخول النار[2]

في هذا البيت يشير الإمام عليه السلام إلى الخيارات التي تتفق للإنسان في مفارق الحياة الصعبة من (الموت) و(العار) و(النار).

وهذه الخيارات تصادف الناس كثيراً، فيجب على الإنسان أن يحافظ على الأولويات في هذه الخيارات.

والإمام عليه السلام يحدد منهج الأولوية في هذه الخيارات بهذا الشكل الواضح، إذا كان خيارات الإنسان بين الموت والذل فلا يتردد من اختيار الموت على الذل. (الموت أولى من ركوب العار)

١ـ المصدر السابق.

٢ـ مثير الأحزان: ٧٢، مناقب ابن شهر أشوب ٤: ٦٨، ١١٠، بحار الأنوار ٤٥: ٥٠، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام):٢٩٣.

وقد روي في هذا المعنى عن الإمام علي عليه السلام: (إن المنيّة قبل الدنية)[١].

وروي أيضاً عنه عليه السلام: (المنية ولا الدنية، والتقلّل ولا التوسل)[٢].

إن الالتصاق بالحياة الدنيا والجزع من مفارقة الدنيا هو مصدر الذل والصغار.

في حياة الإنسان، وكلما كان طمع الإنسان في الدنيا وطول أمله فيها أكثر كان أذلّ.

عن الإمام الصادق عليه السلام: (من أحب الحياة ذلّ)[٣].

إن حب الحياة يدفع الإنسان إلى ركوب الذل، فإذا شاء الإنسان أن يعيش عزيزاً، فعليه أن لا يلتصق بالدنيا، ولا يُدخل حب الدنيا إلى قلبه، فما دخل حب الدنيا قلباً إلا أذلّ صاحبه، ووطّنه لقبول الذل والصغار.

وقد خاطب الحسين يوم عاشوراء معسكر بني أمية في كربلاء، وقال:

«ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركّز بين اثنتين: بين (السلة) و(الذلة)، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله، وجدود طابت، وحجور طهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية، لا تؤثر مصارع اللئام على مصارع الكرام»[٤].

وقد روى عنه عليه السلام في هذا المعنى أيضاً:

«موت في عز خير من حياة في ذل»[٥].

وهذا هو المفرق الأول... والخيار الكريم فيه الموت.

والمفرق الثاني أن يقف الإنسان بين (العار) و(النار)، والمقصود بـ (النار)

١ـ تحف العقول: ٩٥.

٢ـ غرر الحكم: ٣٦٢.

٣ـ ميزان الحكمة ٣: ١٣٢٤.

٤ـ بحار الأنوار ٤٥: ٩.

٥ـ بحار الأنوار ٤٤: ١٩٢.

هو غضب الله سبحانه. وفي هذا المفرق لا يتردّد الإمام عليه السلام في أن يقدم العار على النار: (والعار أولى من دخول النار).

وقد ذكرنا أن دخول النار هو غضب الرحمن وخلافه هو رضا الله... فإذا كان غضب الرحمن في الهروب من العار، ورضاه في تحمّل العار، فيما يبتلي الله تعالى عباده في دائرة الابتلاء الصعب، فلا شك أن مرضاة الله تتقدم على كل شيء آخر، وفوق كل شيء، ولا يزاحمه شيء... إن رضا الله لا يكون قسيماً لشيء إلاّ ويتقدّم عليه...

وقد عرف إبراهيم عليه السلام إن الله تعالى يأمره أن يذبح ابنه إسماعيل، فلم يتردد في أن يفاتح ابنه بذلك، ولم يتردد الولد أن يستجيب لأمر الله، ولم يتردد الوالد والولد عليهما السلام، في أن ينفّذا أمر الله تعالى، من غير تردد وتوقف.

وها هنا عقبة صعبة من عقبات الحركة إلى الله تعالى.

فقد جعل الله تعالى في نفوسنا أهواءً وشهوات، وجعل في نفوسنا رحمة ورأفة، وجعل في نفوسنا فطرة ووعياً فطرياً.

ثم جعل أمره وحكمه فوق كل ذلك، وابتلانا نحن عباده بتقديم أمره وحكمه على كل ذلك.

فيأمرنا بتقديم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من غرائز وشهوات.

ويأمرنا أن نقدم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من رأفة ورحمة... يقول تعالى في إجراء الحد على الزاني والزانية:

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾[1].

وقد يهون على الإنسان أن يعارض ما أودع الله في نفسه من الغرائز والشهوات،

١ـ النور: ٢.

ولكن يشق عليه أن يتغلب على ما جعل الله في نفسه من الرأفة والرحمة.

ويأمرنا بتقديم أمره وحكمه على ما أودع في نفوسنا من الفطرة، وفطرة الإنسان تأبى قبول الذل، وقد يمتحن الله تعالى عبده في هذه النقطة بالذات، وهي من اشق النقاط على المؤمن، امتحان الله تعالى لعباده صعب، وليس امتحان الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل حالة استثنائية في تعامل الله مع عباده، فإن الامتحان سنة إلهية جارية، يمتحن الله تعالى بها انقياد عباده وخضوعهم له... فإذا كان كذلك وتعلّقت إرادته تعالى بامتحان عباده في الذل، فالأمر كما قال الحسين عليه السلام، (والعار أولى من دخول النار).

١٠. الموت الأخضر

جميع الناس يموتون، ولا أحد يفلت من قبضة الموت ولكنّ الموت على نحوين...فقد يكون الموت عقيماً، ينقص به من الأحياء حي، ولا يضيف إلى عدد الأحياء شيئاً... وهذا هو الموت العقيم... وقد يكون الموت حدثاً مباركاً في حياة الأحياء يمنحهم العزة والقوة، ويدفع عنهم كابوس الظلم.. .وهذا هو الموت الأخضر، الذي يتحول إلى الحياة الطيبة في حياة الناس في الدنيا، وفي حياته هو في الآخرة... وليس بين الموت العقيم والموت الأخضر النافع للناس من فرق إلا أياماً معدودة، والذين بخلوا بأنفسهم عن موافقة الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد لم يبقوا بعد الحسين عليه السلام غير بضع أيام أو بضع اشهر أو بضع سنوات... وهي فترة قصيرة في حساب التاريخ، ولكنهم خسروا الموت والحياة جميعاً.

آثروا حياة الذل والخنوع على موتة العز والكرامة والدفاع عن دين الله والمستضعفين من عباده.

وما أجمل كلمة أمير المؤمنين عليه السلام في مخاطبة أهل العراق عندما كان يدعوهم ليخرج بهم إلى قتال معاوية:

«الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»[١].

إن الذين يعيشون مقهورين للظالمين، أذلاء عندهم، يسلبهم إرادتهم وكرامتهم... هؤلاء في الحقيقة أموات، وليسوا بأحياء، فأن حياة الذليل المقهور للظالم نحو من الموت على هيئة الحياة، وبالعكس، الذين يؤثرون مصارع الكرام على حياة اللئام أحياء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وإن غابت أجسامهم عن الناس... يورثون مجتمعهم وأبنائهم العزة والكرامة من بعدهم... وهذا هو الموت الأخضر الذي تحدثنا عنه.

وهذا الموت هو الذي يصوّره الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذه الصورة الجميلة الرائعة.

إن القتل في وسط الهيجاء ليس من الهزيمة، ولا من الذل في شيء، إذا قاتل الإنسان وواسى الصالحين بنفسه، وجاهد الكفار، وفارق الأشقياء العصاة، وخالف المجرمين، وجاهدهم... فإذا كتب الله تعالى له العيش عاش سعيداً، من غير تأنيب الضمير، وان مات مات سعيد من غير لوم...

سأمضي وما بالموت عار على الفتى — إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه — وفارق مثبوراً وخالف مجرما
فان عشت لم اندم وان مت لم أُلَمْ — كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما[٢]

١ـ مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٥١.

٢ـ مقتل أبي مخنف ٦٩، تاريخ الطبري ٥: ٤٠٤، مثير الاحزان ٤٥، مناقب ابن شهر أشوب ٤: ٦٩، الكامل في التاريخ ٤: ٤٩، انساب الاشراف ٣: ٣٨٢، بحار الانوار ٤٤: ١٩٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٢٩.

وإنما الذل والعار أن يعيش الإنسان مرغماً مقهورا للظالمين، وليس العار في أن يموت الإنسان وهو يجاهد الظالمين والمجرمين.

وللحسين عليه السلام كلام عن الموت في مكافحة الظالمين والحياة مع الظالمين عندما التقى بالحر بن يزيد الرياحي رحمه الله في بعض منازل الطريق، له صلة بهذا الحديث. يقول عليه السلام:

«ألا ترون أن الحق لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه. ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً، فأني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

إن الموت في مجاهدة الظالمين سعادة والحياة مع الظالمين مذلة، ومهانة، وشاقة، وصعبة، ومملة.

ويرتجز عبد الله بن مسلم بن عقيل رحمه الله، ويقول:

أقسمت لا اقتل إلا حرا ... وإن وجدت الموت شيئاً مرّا
أكره أن أدعى جباناً فرا ... إن الجبان من عصى وفرا[1]

يؤثر هذا الشاب موت الأحرار، مهما كان مرّاً، على حياة الجبناء، الفارين من الموت، وهو رحمه الله يقتبس هذا الرجز من رجز لأبيه مسلم بن عقيل رحمه الله بالكوفة، عندما كان يقاتل جلاوزة ابن زياد، وهم يقاتلونه بالسيوف والرماح والنبال، فيقول:

أقسمت لا أقتل إلاّ حرّا ... وان رأيت الموت شيئا نُكرا
أكره أن أخدع أو أغر ... أو يخلط البارد سخناً مرا[2]

١ـ أمالي الصدوق: ٢٢٥، ٢٣٩، بحار الانوار ٤٤: ٣٢١، ١، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ١٧٠.

٢ـ مقتل أبي مخنف: ٥٤، مروج الذهب ٣: ٥٨، مقاتل الطالبين: ٦٩، الفتوح، ابن اعثم ٥: ٦١، تاريخ الطبري ٥: ٣٧٤، الإرشاد المفيد ٢: ٥٨، مثير الاحزان ٣٥، الكامل في التاريخ ٤: ٣٣، بحار الانوار ٤٤:

فيقسم ألاّ يقتل إلا حرّا، ويضرب بسيفه ويجندل الرجال وأن كان الموت أمراً نكراً صعباً.

ويكره أن يخدع عن نفسه أو يملكه الغرور، أو يختلط في حياته برد الكرام بسخونة الحياة الذليلة مع الظالمين، ويستسلم للموت في كرامة وعزة في مجاهدة الظالمين ويصبّر نفسه بذلك، ويقول عليه السلام:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع
فأنت لكاس الموت لا شك جارع
فصبراً لأمر الله جل جلاله
فحكم قضاء الله في الخلق ذائع[1]

١١. القراءة الصحيحة للتاريخ

من تجليات الوعي والبصيرة في ساحة كربلاء لأنصار الحسين عليه السلام الفهم الدقيق لموقع بني أمية في الإسلام... وهذا الوعي مما يفقده الكثير من أصحاب الفكر والنظر من المسلمين حتى اليوم.

لقد حارب أبو سفيان والد معاوية وجد يزيد الإسلام طويلا قبل الهجرة وبعد الهجرة، وكاد للإسلام، ومعه ابنه معاوية، وأم معاوية (هند)، ووزيره عمرو، ثم دخل الإسلام مُكْرَها في فتح مكة، حيث لم يجد بُدّاً من إعلان الإسلام... ولم يُعْرف عنه في إسلامه غير أحاديث وقضايا منكرة، يذكرها أصحاب السير، ورغم حرص بني أمية على التعتيم على إخباره وأحاديثه

٣٥٢، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٠٢، أعيان الشيعة ١: ٥٩٢، الشعر العربي في تراث الشيخ المفيد: ٣١٧، ٢٢٩.

١ـ مناقب ابن شهر اشوب ٤: ٩٣، بحار الأنوار: ٤٤: ٣٥٤، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٠٣.

المنكرة بعد دخوله في الإسلام فأن ما يظهر من فلتات أقلام المؤرخين أمر فظيع، مثل: قوله لجيش الروم حين كانوا يميلون على جيوش المسلمين (إيه بني الأصفر)، وقوله لعثمان، وقد تولى الخلافة، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار، فزجره عثمان... وأمثال ذلك...

وتولى ابنه يزيد الشام في عهد الخليفة الثاني، ثم تولى من بعده ابنه الآخر معاوية ولاية الشام على عهد الخليفة الثاني أيضاً... فلما قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان امتنع عن بيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وشقّ جماعة المسلمين وفصل الشام، ودخل في معركة ضارية مع أمير المؤمنين عليه السلام، ثم مع الإمام الحسن عليه السلام ثم قاتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام وأستمر خلفاء بني أمية في لهوهم، وفجورهم، وإسرافهم في بيت المال، وإفسادهم في الدولة، وبذخهم، وترفهم، ومجونهم، وظلمهم، وحدِّث ولا حرج عليك.

فكيف نفهم هذا التاريخ؟ وأين نضع بني أمية بعد دخولهم في الإسلام بهذا التاريخ الذي نعرفه عنهم؟

أين يقع صفين والطف من بدر؟

وأين مواقع بني أمية بعد الإسلام؟

روي عن أسماء بن الحكم الفزاري قال:« كنا بصفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى ـ استظللنا ببُرد احمر، إذ أقبل رجل يستقري الوجوه حتى انتهى إلينا فقال: أفيكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار بن ياسر: أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إن لي حاجة إليك فانطق بها علانية أو سراً؟ قال: أختر لنفسك أي ذلك شئت. قال: لا، بل علانية، قال: فانطق.

قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه، لا اشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كان ليلتي هذه صباح يومنا هذا، فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة، فصلينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبتّ بليلة لا يعلمها إلاّ الله حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا، قال: فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه، فجئتك لذلك.

قال له عمار: هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن، ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن، أشَهِدْتَ بدراً وأُحداً وحنيناً أو شَهِدَها لك أبٌ فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، وإنّ هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب.

هل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا، مفارقا للذي نحن عليه، كانوا خلقا واحدا، فقطّعته، وذبحته. والله لدماؤهم جميعا أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا، بل حلال، قال: فأنهم كذلك حلال دماؤهم، أتراني بيّنت لك؟ قال: قد بيّنت لي، قال: فاختر ايّ ذلك أحببت.

قال: فانصرف الرجل، ثم دعاه عمار بن ياسر فقال: أما أنّهم سيضربوننا بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون: لو لم يكونوا على حق ما

ظهروا علينا، والله ما هم من الحق على ما يُقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يُبلغونا سعفات هجر، لعرفت إنّا على حق، وهم على باطل، وأيم الله لا يكون سلما سالما أبدا حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة، ولا ينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة، وان موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان احياؤهم على الباطل»[١].

إنّ القراءة صحيحة للتاريخ تربط ما بين بني أمية قبل الإسلام ما بعد الإسلام للتشابه الكبير بين سلوكية هذه الأسرة قبل وبعد الإسلام.

لقد انتزع الإسلام من آل أبي سفيان مواقعهم وزعامتهم في الجاهلية.

كما أحدث تغييرا واسعا في الأعراف الجاهلية التي كانت تحتضن هذه المواقع...

وكانت مهمة آل أبي سفيان بعد دخولهم في الإسلام استعادة مواقعهم في الجاهلية وإعادة الأعراف الجاهلية التي كانت تحتضن هذه المواقع في الجاهلية.

فلا يمكن أن يعيش معاوية في قصور الشام، يسرف في أموال المسلمين، ويقتل، ويظلم، ويقترف الإثم إلاّ بتحريف القيم التي جاء بها الإسلام في علاقة الحاكم بالرعية ومواساة الحاكم لرعيته، وتقشّف الحاكم في مصرف بيت المال وكانت هذه النقطة بالذات السبب الرئيسي في معارضة أبي ذر رضي الله عنه لمعاوية...

١ـ صفين لنصر بن مزاحم: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

فقد وجد أبو ذر رضي الله عنه أن معاوية أحدث بدعا واسعة في دين الله من موقع الخلافة، فثار في وجه معاوية، وقام في أسواق الشام ومجامعه ينكر على معاوية سرفه وإفساده وما يرتكب من المنكرات، وما يدخل في قصره من الشراب الذي حرمه الله، واختراقاته لحدود الله تعالى وأحكامه.

إن آل معاوية يعرفون، ما يعملون، إنهم يستعيدون مواقعهم الذي جرّدهم الإسلام عنها، من خلال الإسلام نفسه هذه المرة. فكان خطر بني أمية على الإسلام بعد إسلامهم أكبر من خطرهم على الإسلام قبل إسلامهم...

ويصطف الطرفان هذه المرة في صفين والطف بعد (بدر) و(أُحد).

يقف معاوية وعمرو على مواقع أبي سفيان وأبي جهل في بدر، ويصطف معهم طائفة كبيرة من أهل الشام ممّن غَرّر بهم عمرو ومعاوية، فجاءوا بهم إلى هذا الموقع للنيل من الإسلام، ولتثبيت ما استعادوه من مواقعهم في الجاهلية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويقف علي والحسن والحسين عليهم السلام على التوالي في صفين، إلى الطف مواقع رسول الله وأصحابه في بدر للدفاع عن الإسلام وتحصين الإسلام من عدوان بني أمية وتحريفاتهم، ولحماية مواقع القيادة والولاية في الإسلام من أمثال معاوية ويزيد.

إذن المعركة في صفين والطف هي ذاتها المعركة في بدر، غير أن بني أمية حاربوا الإسلام في بدر من خارج الجسم الإسلامي، وحاربوا الإسلام في هذه المرّة من داخل الجسم الإسلامي... وها هنا موقع الخطر.

ويضيف ابن معاوية بن أبي سفيان، في موقع الطف، على ما فعله أبوه

وجده من قبل في موقع بدر أن يعلن هذه المرة، الانتقام والثأر من محمد آل محمد ﷺ لقتلاهم في بدر... وإذا كان نصيب جده وأبيه في بدر الهزيمة من المسلمين من رسول الله ﷺ وأصحابه... فهذه المرة كانت الهزيمة (العسكرية) في كربلاء في جانب آل محمد ﷺ فيقول يزيد على ملأ من الناس:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحا ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم انتقم ... من بني احمد ما كان فعل

والأبيات هذه أشهر من أن يشك بها أحد فقد رواها المؤرخون وأرباب السير جميعاً، وحكم فقهاء الإسلام من المذاهب المختلفة بكفر يزيد وجواز لعنه بهذه الأبيات[1].

اجل، انه يبتهج بقتل سادات أهل البيت عليهم السلام انتقاما لمصرع جدّه عتبة وخاله وغيرهم من المشركين في بدر، فعادلت مأساة آل محمد ﷺ في الطف هزيمة المشركين في بدر (وعدلناه ببدر فاعتدل)... إنّ من يفهم (صفين) و(الطف)... بغير هذا الفهم، ويفسّرها بغير هذا الوجه، لا يستطيع أن يفهم دور أهل البيت عليهم السلام العظيم في تصحيح حركة الإسلام ومساره خلال هذه الفترة الصعبة من التاريخ. وعندما نقرأ نحن الشعر الذي كان يلقيه

١ـ راجع كتاب (الخطاب الحسيني): ١٠٦ في مصادر هذا الشعر وكلمات العلماء في تكفير يزيد ولعنه بسببه.

أنصار الحسين عليه السلام بساحة الطف نجد هذا الوعي والفهم الدقيق للتاريخ، والقراءة الواعية لمعركة بدر ووقعة الطف، والعلاقة بينهما بشكل واضح.

ونذكر مثلا على ذلك شعر عمرو بن جنادة الأنصاري رحمه الله من أنصار الحسين عليه السلام، ونختم به هذا البحث:

أضق الخناق من ابن هند وارمه ... في عقره بفوارس الأنصار
ومهاجرين مخضبين رماحهم ... تحت العجاجة من دم الكفار
خضبت على عهد النبي محمد ... فاليوم تخضب من دم الفجار
واليوم تخضب من دماء أراذل ... رفضوا القرآن لنصرة الأشرار
طلبوا بثأرهم ببدر إذ أتوا ... بالمرهفات وبالقنا الخطار
والله ربي لا أزال مضاربا ... في الفاسقين بمرهف بتّار
هذا عليَّ اليوم حق واجب ... في كل يوم تعانق وكرار[1]

١ـ الفتوح لابن اعثم ٥: ١٢٥، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٢١، بحار الأنوار ٤٥: ٢٨، العوالم (كتاب الحسين عليه السلام): ٢٧١.

وارث الأنبياء

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

الوراثة

مفهوم (الوارث) من ابرز المفاهيم الواردة في هذه الزيارة. وقد عرفت به الزيارة. ونقف هنا قليلاً عند كلمة (الوراثة).

الوراثة الحياتية والحضارية:

الوراثة الحياتية: هي انتقال الخصائص الشخصية والاجتماعية من جيل إلى جيل أو من فئة إلى فئة أو من شخص إلى شخص.

وكما تنتقل بالوراثة الخصائص الحياتية والعضوية من جيل إلى جيل، كذلك تنتقل الخصائص الحضارية والثقافية من جيل إلى آخر، ومن فئة اجتماعية إلى فئة اجتماعية أخرى.

والوراثة والتكامل الحضاريان هما سُلَّم الكمال في تاريخ الإنسان، والإنسان يتكوّن بالتدريج، وتتكون فيه خصائصه ومكوناته الثقافية والحضارية خلال تاريخ طويل.

إننا عندما نلاحظ سلوكاً اجتماعياً معيّناً أو نموذجاً حضاريّاً معيناً من الناس فإننا نلاحظ فيه اختزالاً شديداً لتاريخ طويل من حياة الإنسان وحضارته وفكره وجهده ومعيشته، وكل منا يرث من حيث يشعر أو لا يشعر أجيالاً من أسلافه جيلاً بعد جيل.

التاريخ الحضاري للإنسان:

فالإنسـان: مجموعـة مـن المواريـث الحضارية التي ينقلها كل جيل إلى الجيل الـذي يأتـي مـن بعـده، بعـد أن يـتلقاها مـن الجـيل السـابق وينمّـيها ويطوّرها.

وهكـذا تـتحرّك الحضـارة الإنسـانية عـبر الأجـيال، وتنـتقل من جيل إلى آخـر، وتـنمو، وتـتطور بموجـب قـانون الوراثـة، وتنـتقل الأفكـار والعقـائد والتصورات والأعراف والتقاليد والأخلاق من جيل إلى آخر، ولا يمكن أن تـتكون الحضـارات مـرّة واحـدة وفجـأة وخـلال جـيل واحـد، وإنّما تتكون بصورة تدريجية، عبر سنن وقرون طويلة، وخلال التاريخ.

المواريث الحضارية بين الإسلام والجاهلية:

هناك مجموعتان من المواريث الحضارية يتوارثهما الناس جيلاً بعد جيل فـي جهتيـن متقابلتيـن: المواريـث الحضـارية الإلهـية والمواريـث الحضارية الجاهلية.

ومواريـث الحضـارة الربانية في حياة الإنسان هي التي يتلقاها الناس جيلاً بعد جيل من الأنبياء والمرسلين والصدّيقين، وترسّخت وتأصّلت خلال هذه المسافة الزمنية الطويلة في حياة الإنسان.

إنّ الإيمـان بـالله تعـالى والتسـليم المطلـق لـه تعـالى وتعبـيد الناس لله عزّ وجـل، وتحكـيم شـريعته فـي حياة الإنسان، ورفض الطاغوت والتمرّد عليه، وكسر شوكته وسلطانه، ومجابهته بالنفس والمال وأفلاذ الأكباد ليس ظاهرة جديـدة فـي حياة الإنسان، ولا تخص مرحلة من مراحل حياة الإنسان، وإنّما

هو ميراث اجتماعي ضخم يتوارثه الإنسان جيلاً بعد جيل في تاريخه، ويتصل هذا الميراث الحضاري بأنبياء الله عليهم السلام ويمتدّ في حياة الإنسان عبر جهاد الأنبياء ودعوتهم وتبليغهم.

وفي حياة كل نبي من الأنبياء والمرسلين يزداد هذا الميراث الحضاري عمقاً وأصالة ونضجاً عمن كان قبله من الأنبياء عبر الصراع المستمر القائم بين هاتين الحضارتين، وعبر الجهود التي يتحملها الأنبياء وأنصارهم في حمل الدعوة وتبليغها إلى الناس، فتتبلور عبر هذه المسيرة الحضارية المفاهيم الرسالية أكثر من ذي قبل، ويتأصّل الجهاد والدعوة إلى الله وأصولها وأساليبها في حياة الإنسان في خط تصاعدي.

كما يصح العكس ايضا فتتصاعد الذنوب، والمعاصي، والإسراف، والتكبّر، والاستكبار، في الطرف الآخر ويتعمّق هذا الحقد في نفوسهم، وتتطور أساليبهم في مواجهة الدعاة إلى الله كلما تتسع الحضارة الجاهلية وتنمو وتتطور بصورة تصاعدية مستمرة.

الحسين عليه السلام وارث الأنبياء:

وسيّد الشهداء أبو عبد الله عليه السلام وارث هذه المسيرة الحضارية الربانية الضخمة التي تمتد عبر حياة وجهود ودعوة الأنبياء والمرسلين والشهداء والصدّيقين عليهم السلام، وتأتي واقعة الطف امتداداً لهذا الجهاد التاريخي المستميت مع الجاهلية.

إن الحسين عليه السلام يوم الطف كان امتداداً واختزالاً وتأصيلاً لهذه الحركة الربانية الممتدة في عمق التاريخ.

وتأتي الخصائص الحسينية التي جسدتها واقعة الطف يوم عاشوراء، امتداداً لهذه المواريث الحضارية والأخلاقية التي ورثها الحسين عليه السلام من أسلافه الطاهرين ـ الأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين ـ فالإخلاص لله، والتضحية، والبذل، والعطاء، والشجاعة، والصمود، والصرامة، والصبر، وعزّة النفس، وإباء الضيم، والاستقامة في الدعوة إلى الله، والتمرّد على الطاغوت، والرفض، والتسليم لله، وغير ذلك من الخصائص التي جسّدها الحسين عليه السلام التي تجسدت في معركة الطف ليست خصائص وظواهر فردية، وإنّما هي موارث حضارية ورسالية عريقة ورثها الحسين عليه السلام من آبائه الطاهرين في هذه المسيرة الربانية من آدم صفوة الله، ونوح نبي الله، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله عليهم السلام، ومن المصطفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخيه الحسن المجتبى عليه السلام.

فالحسين عليه السلام حصيلة هذه المسيرة الحضارية الإلهية ونتيجتها وثمرة هذه الشجرة المباركة.

وهذا هو سرّ أصالة وقعة الطف وعراقتها وقوتها وما تجلى فيها من خصائص الحركة والربانية في التاريخ، وسرّ استمرار وبقاء هذه الوقعة في التاريخ.

كما أن الجيش الأموي كان يرث في ساحة الطف خصائص الجاهلية من الظلم، والاستكبار، والتهافت على حطام الدنيا، والقهر، والقسوة، والإرهاب، والاضطهاد، والتكالب على حطام الدنيا.

الشجرة الخبيثة والشجرة الطيبة في كتاب الله:

وهذه المسيرة الحضارية هي الكلمة والشجرة الطيبة التي تضرب أُصولها في عمق التاريخ، وتمتد فروعها إلى أعماق المستقبل، وهي ذات قرار

مكين في الأرض، تؤتي ثمارها بإذن الله كل حين، وهذه الشجرة ثابتة قوية لا تهزها الأعاصير والعواصف.

أمّا الحضارة الجاهلية فهي الكلمة الخبيثة والشجرة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، ورغم قدمها ضعيفة مهزوزة، وعلى أرض رخوة، وغير ذات قرار مكين، تقتلعها الأعاصير، وتلقي بها على قارعة الطريق، يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا... * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1].

ومن عجب أن هاتين الحضارتين يمتدان معاً إلى أعماق التاريخ إلى هابيل وقابيل، ويتكونان معاً عبر الأجيال ومع ذلك فهما يختلفان في العراقة والأصالة والثبات، فالحضارة الإلهية أصيلة عريقة ذات جذور قوية ثابتة وراسخة لا تحركها الأعاصير الهوجاء، والحضارة الجاهلية مهزوزة ضعيفة مبتورة الجذور ما لها من قرار. وهذا هو الفارق بين هاتين الحضارتين اللتين يتوارثهما الناس.

سرّ القوة والثبات في الشجرة الطيبة:

والسرّ في ذلك أن الحضارة الإلهية تستمد حيويتها من العقل والضمير والقلب، والحضارة الجاهلية تستمد وجودها من الأهواء والشهوات، تلك تستمد كيانها من الإيمان والعقيدة، وهذه تستمد وجودها من الأحقاد

١ـ إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦ .

والأهواء، تلك تستمد وجودها من الإيمان والتسليم لله، وهذه تستمد وجودها من اتباع الشيطان، تلك تختزل كل ما في حضارة الإنسان من قيم وأخلاق وفضائل، وهذه تختزل كل ما في التاريخ الإنسان من أحقاد وضغائن وشهوات وأهواء.

وهذا الفارق هو الذي يهب الأولى القوة والمتانة والثبات في وجه الأعاصير والهزات والابتلاءات، ويسلب الثانية القرار والثبات ويدعها مهزوزة غير ذات قرار.

ولذلك تعقّب الآية الكريمة على هذا الاختلاف في الأُصول والجذور بقوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ..﴾[1].

فأولئك يمنحهم الله الثبات في القول في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهؤلاء يسلبهم الله تعالى الثبات والهدى ويدعهم في الضلالة.

لماذا التأكيد على مفهوم الوارث في زيارة الحسين عليه السلام؟

لقد ورد هذا المفهوم في أكثر من زيارة وكأن هناك عناية خاصة لدى أهل البيت عليهم السلام في إبراز هذا المفهوم في حياة الحسين عليه السلام؛ ذلك لأنّ معركة الطف من أصدق مشاهد صراع الحضارات في التاريخ، لقد جسّد الحسين عليه السلام الصراع بين الحق والباطل في كربلاء، فكانت معركة الطف تبلوراً حقيقياً لهذا الصراع التاريخي بين الحق والباطل، ولذلك نجد في هذه

١ـ إبراهيم: ٢٧ .

المعركة أنبل القيم والمفاهيم الربانية في طرف، وأخسّ الرذائل والأهواء الشيطانية في طرف آخر.

ويأتي تأكيد الوراثة في زيارة الحسين عليه السلام :

أولاً ـ للتنبيه على عراقة وأصالة الجهاد الحسيني، وأنه ليس ظاهرة فردية في سيرة الإمام الحسين عليه السلام وإنّما هي خاصية عريقة للمسيرة الإلهية على وجه الأرض، ورثها الحسين عليه السلام عمّن كان قبله من الأنبياء والأوصياء الدعاة إلى الله، وهذا هو سرّ قوة وصلابة الموقف الحسيني في كربلاء، رغم عدم التكافؤ الواضح بين معسكر الحسين عليه السلام ومعسكر بني أمية في هذه المعركة.

وثانياً ـ اذا كانت هذه الحركة بهذه الدرجة من الأصالة والعراقة والعمق والقوة فلابدّ ان تنتصر على الجبهة المناوئة التي كان يتزعمها الحاكم الأموي يزيد بن معاوية.

وليس الانتصار هنا بمعنى الانتصار العسكري في ساحة القتال، فقد كان الجيش الأموي هو المنتصر في ساحة القتال إذا فسّرنا الانتصار بالمعنى العسكري

وإنما الانتصار هنا انتصار خط على خط، ولا شك أن المعسكر الحسيني هو المعسكر المنتصر بهذا المعنى من النصر، فإن العمق التاريخي والأصالة والعراقة والمتانة التي يملكها هذا الخط يؤهله لنصر الله تعالى.

إن المعركة بين هاتين الجبهتين في كربلاء كانت معركة ميدانية وحضارية بالمعنى العميق لهذه الكلمة، والفئة التي تقف على مواقف الأنبياء والأوصياء والصالحين هي الفئة المنتصرة، لا محالة، والله تعالى هو

الضامن لهذا النصر والفئة التي تقف على مواقف الطغاة والجبارين والمسرفين والمفسدين هي الفئة الخاسرة في هذه المعركة.

ثالثاً ـ لا تتوقف هذه المعركة عند وقعة الطف، فهي حلقة واحدة من سلسلة من المواقف الجهادية والتضحيات والبذل والعطاء في سبيل الله تبدأ منذ أيام نوح عليه السلام وقبله وتمتد إلى أن يأذن الله تعالى بالاضمحلال الكامل للجاهلية على وجه الأرض.

وليست هذه الحركة نبتة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وإنّما هي شجرة طيبة ممتدة الجذور والأصول إلى أعماق تاريخ الاسلام والإيمان.

وكما ورث الحسين عليه السلام هذا الميراث من أبيه المرتضى عليه السلام وجده المصطفى صلى الله عليه وآله وأسلافه الطاهرين من الأنبياء المرسلين فإن أجيال المؤمنين والمجاهدين والدعاة إلى الله تعالى سوف يرثون من الحسين هذا الميراث ويتحركون على خطاه عليه السلام ويرثون منه الخصائص والمواريث التي تجلت يوم عاشوراء في كربلاء.

وهذا هو سرّ استمرارية الثورة الحسينية في كربلاء.

آلية الارتباط ومادة الارتباط

الحسين وارث الأنبياء والصالحين عليهم السلام ونحن ورثة الحسين عليه السلام، وميراثنا الذي نرثه من الحسين هو مواريث الأنبياء وواسطة العقد في هذا الارتباط يوم الطف، فلابدّ لهذا الارتباط من أن يمر بمحطات تفعيل في التاريخ،تحافظ على حرارة الخط وحيويته لئلاّ تضعف وتبرد، ويوم الطف عقد الواسطة وحلقة الارتباط ولابدّ من هذه الحلقات في التاريخ لئلاّ ينقطع الخط.

وهنا نواجه سؤالين:

الأول: كيف نرتبط وماهي آلية الارتباط؟

والثاني: ما هي المواريث التي نرثها من الأنبياء عبر يوم الطف.

والسؤال الثاني غير السؤال الأول.

١. آلية الارتباط:

مأساة الطف هي حلقة الارتباط، ولولا أمثال هذه الأيام لانقطع الخط، فهي تستقطب عواطف الجمهور وأحاسيسهم وحبهم و ... وهذه العواطف والمشاعر هي الآلية التي تحافظ على فاعلية الارتباط، وقوته، وحيويته.

والإحياء السنوي لذكرى الحسين عليه السلام، والبكاء، وإقامة مجالس العزاء، وخروج مواكب العزاء في الشوارع، ما هي إلاّ وسائل تعبير عن هذه العاطفة القوية التي يشعر بها المسلمون تجاه سيد الشهداء عليه السلام، ولابدّ من هذه العاطفة الحسينية ولابدّ من التعبير عن هذه العاطفة للإبقاء على ارتباط الأُمّة بكوكبة شهداء كربلاء، ولولا هذا الزخم العاطفي القوي لم تبق هذه الثورة

قوية وفاعلة في وجدان الأمّة إلى اليوم، ولذلك أكد أهل البيت عليهم السلام على أهمية إقامة مجالس العزاء والبكاء على مصاب الحسين عليه السلام ... ولكن هذه الشعائر والمجالس والعواطف آليات للارتباط، تحفظ لنا حرارة الارتباط بهذا الخط الربّاني الممتدّ من عمق التاريخ، منذ آدم عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأوصيائه، وأمّا مادة الارتباط فهو شيء آخر.

إنّ التعبير عن عواطفنا تجاه مصاب الحسين عليه السلام شيء ومادة الارتباط والمواريث التي نرثها من الحسين عليه السلام شيء آخر، ولكن الأولى تُعِد للثانية وتؤهل الإنسان لها. إن هذه العواطف والمجالس وسيلة وأداة لتحقيق وتفعيل تلك المواريث في حياتنا وتاريخنا.

إن زيارة (وارث) تبيّن لنا أن حقيقة الارتباط بالحسين عليه السلام بالمواريث التي نرثها منه عليه السلام، كما أن ارتباط الحسين عليه السلام بالأنبياء بالمواريث التي ورثها من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام والمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والمرتضى عليه السلام، وهذا هو ميراث الحسين عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام وميراثنا من الحسين عليه السلام.

وهذه هي حقيقة الارتباط وحقيقة الوراثة، وآلية الارتباط وأداته.

ويوم الطف هو واسطة العقد بيننا وبين هذه المسيرة الحضارية الربانية الكادحة على وجه الأرض. وبقدر ما تحمل من رسالة الحسين عليه السلام ودعوته وجهاده ومواقفه الشامخة الصلبة ومقاومته، وصبره، وتضحيته، وصلاته، وإنفاقه، وعطائه، وإخلاصه لله، وصموده، وصلابته ... يكون ارتباطنا بالحسين عليه السلام، وعلاقتنا بيوم الطف، وعند ذلك يسهل قياس الارتباط والعلاقة بكربلاء، فإن المقاييس واضحة لا تقبل الخطأ.

٢. ما هي المواريث؟

وها نحن نقرأ في هذه الزيارة المواريث التي ورثها الحسين عليه السلام من سلفه لنقيس أنفسنا بها وعلاقتنا بكربلاء.

«أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وأطعت الله ورسوله حتى أتاك اليقين».

وتأتي هذه الشهادة للحسين عليه السلام بإقامة الصلاة عقيب التحية له بعنوان الوارث، وكأن هذه الشهادة تأتي تأكيداً لوراثة الحسين عليه السلام وتشخيصاً للمواريث التي ورثها الحسين عليه السلام من سلفه عليه السلام وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، والطاعة لله ورسوله حتى اليقين، هذه مواريث الحسين عليه السلام من سلفه عليهم السلام ومواريثنا نحن من الحسين عليه السلام، ومن تقدم الحسين عليه السلام من الأنبياء والأوصياء والصالحين عليهم السلام.

وترد هذه الشهادة للحسين عليه السلام في أكثر الزيارات المطلقة والمخصوصة، وكأنّ هناك عناية خاصة بإبراز هذا البعد الموروث من أبعاد حركة الإمام الحسين عليه السلام والتنبيه إلى أن الارتباط به عليه السلام يتمّ بموجب هذه النقاط، ونورد بعض هذه الفقرات من الزيارات المطلقة والمخصوصة الواردة. ففي الزيارة المطلقة الثانية:

«أشهد أنك قد بلغت، ونصحت، ووفيت، وأوفيت، وجاهدت في سبيل الله».

التبليغ، والتضحية، والوفاء للرسالة، والإيفاء بالمسؤولية، والجهاد في سبيل الله.

وقريب من هذا المضمون في الزيارة المطلقة الثانية والرابعة والسادسة والسابعة.

وفي مخصوصة الليلة الأُولى من رجب:

«أشهد أنك قد أمرت بالقسط والعدل، ودعوت إليهما، وأنك صادق صدّيق، صدقت فيما دعوت إليه».

وفي مخصوصة ليلة النصف من رجب قريب من المضامين السابقة، وفي مخصوصة ليالي القدر ويومي العيدين:

«أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وتلوت الكتاب حق تلاوته، وجاهدت في الله حق جهاده، وصبرت على الأذى في جنبه محتسباً حتى أتاك اليقين».

وتضاف هنا إلى قائمة المواريث الحسينية تلاوة الكتاب حق التلاوة، والجهاد في سبيل الله حق الجهاد، والصبر على الأذى في جنب الله محتسباً حتى اليقين، وقريب منه في مخصوصة ليلة العيدين ومخصوصة ليلة عرفة ويومها.

وبهذه الطريقة الإيحائية الرائعة تجعل هذه الزيارات الزائر في الأجواء الرسالية لكربلاء، والتي ورثها الحسين عليه السلام من سلفه الطاهر عليهم السلام، وأورثها لخلفه الذين يأتون من بعده على هداه وخطه.

إنقلابان في رحاب عاشوراء

(إنقلاب زهير بن القين ﵁ من العثمانية إلى الحسينية)

الانقلابات الإنسانية

الأحداث في حياة الإنسان والكون على قسمين: تدريجية ودفعية (انقلابية): ومن الأمثلة التحول التدريجي تحول الصيف إلى الخريف بالتدريج والخريف إلى الشتاء وكل مخلوق ينطوي على درجات من الكمال غير حاصلة بالفعل، وقد جرت سنة الله تعالى في الكون على أن هذه المراحل من الكمال تبرز وتظهر بالتدريج، وبهذه الحركة يتحول الكائن من القوة إلى الفعل، فان الكمالات التي يستبطنها الكائن هي كمالات موجودة بالقوة غير حاصلة بالفعل[1].

وكذلك في صلاح الإنسان وفساده وقراره يتحول من الفساد إلى الصلاح بالتدريج.

وقد يأخذ قراراً مفاجئاً ويتحول من مذنب خاطيء غارق في المعاصي إلى ولي صالح من أولياء الله وهذا هو الانقلاب... وهذا هو التحول الدفعي الذي يتفق في حياة الناس كثيراً، وسميناه (الانقلاب).

إذن الانقلاب هو التحول الدفعي سواءً كان الانقلاب كونياً أو اجتماعياً أو في حياة الأفراد.

وقد يتصور الإنسان أن شيئاً طارئاً من الخارج كان هو السبب في هذا

---

١ ـ في رحاب القرآن ٨: ٢٤٠.

الانقلاب ولكن ليس الأمر كذلك، وإنما هو سبب داخلي يتنامى ويتكامل، ثم يظهر إلى الوجود دفعةً، ويتم هذا التكامل عبر طريق شاق وعسير، وعبر كفاح طويل للأهواء والغرائز الكامنة في النفس، ولكنها تبرز على السطح الظاهر من حياة الإنسان دفعة واحدة كالزلزال والبركان. انقلابان في عاشوراء وكربلاء

كربلاء ساحة لكل الظواهر الإنسانية والحضارية ولسنن الله، ونستطيع أن نجد نماذج كثيرة للسنن الإلهية في هذه الساحة خلال يوم عاشوراء وساعاته القليلة الحاشدة بالأحداث الكبيرة... ومن خلال هذا اليوم نقرأ سنن الله في التاريخ، ونفهم كيف تسقط أمة، ويستدرجها الله تعالى، ويعذبها، ويهلكها، وكيف يستبدلها بأمة أخرى،[1].

ولما كان الانقلاب ـ كما تقدم ـ ظاهرة كونية وإنسانية فإننا نجد في كربلاء على الأقل نموذجين من الانقلاب بارزين هما: انقلاب الحر بن يزيد الرياحي ﵁ وانقلاب زهير بن القين البجلي ﵁ .

ونحن هنا نحاول أن نلقي نظرة على الانقلاب الذي حدث في حياة زهير بن القين ﵁ فحوّله من إنسان أموي عثماني الهوى إلى عنصر هائم في الحسين ﵇ وهديه وخطه.

الانقلاب هو القرار

ما هو سر هذا الانقلاب العظيم الذي ينقل الإنسان من الشقاء إلى السعادة، ومن السقوط والهلاك إلى العروج؟

---

١ ـ في رحاب عاشوراء: ١٣.

إنه: القرار.

ولـم يغيّر شيء من حياة (الحر) و(زهير) غير القرار، والقرار يعني الإرادة وهو أصعب الأشياء وأسهل الأشياء.

إن عاشـوراء مـن أيـام الفـرقان فـي الـتاريخ، وأيـام الفـرقان تشطر الناس وتفرزهم كما أن أيام العافية تجمعهم.

وفي أيام الفرقان يحتاج الإنسان القرار أكثر من أي وقت آخر، وهذا من خصائص هذه الأيام.

عـند نقطة المفترق لابدّ أن يتخذ الإنسان القرار، ومن دون القرار يتحول إلى حالة عائمة خفيفة الوزن.

إن عاشوراء شطرت الناس إلى شطرين: شطر مع الحسينعليه السلام ، وآخر مع بني أمية.

قـبل عاشـوراء كـان الـناس يجمع بين حب الحسينعليه السلام وطاعة بني أمية، ولا يجـدون حـرجاً فـي ذلـك، ولكـن عاشـوراء وضـعت حداً لهذا التداخل المـتجانس. وكـان لابـدّ ان ينتخـب الـناس أحدهما. أما الحسينعليه السلام أو بني أميه، ولا بد من القرار والموقف.

وقـد حـاول الحـر بن يزيد الرياحيرضي الله عنه أن يتجنب نقطة المفرق هذه، فلا يقاتل الحسينعليه السلام ولا ينضم إلى معسكر الحسينعليه السلام عندما طلب من الإمام أن يـأخذ طـريقاً لا يصـله إلـى الكوفة ولا الحجاز، وبذلك لا يدخل في إثم قـتل الحسـينعليه السلام ولا يـتخلى عـن قـيادة الجيش الأموي، ولكن الله أراد أن يوصله إلى نقطة المفرق الذي لابدّ له فيه من القرار.

وعـندما يـتخذ الإنسـان هـذا القـرار بوعي أو بصيرة من أمره. ينتزع نفسه

بحركة قوية وسريعة مرة واحدة من وسط كل العلاقات والصلات والأواصر التي تشدّه إلى هذه الدنيا من مال وبنين، وأزواج، ومتاع الدنيا، ولذات، وشهوات، وجاه، واعتبارات اجتماعية، وبحركة واحدة يقطع كل هذه الحبال، والخيوط، والوشائج التي تشده إلى الدنيا ويخف للصعود إلى الله.

قصة فضيل بن عياض:

يروى أن الفضيل بن عياض كان في أول حياته من رؤساء العصابات، تسلق في أحدى الليالي داراً فوجد صاحبها يقرأ في أناء الليل القرآن، وقد بلغ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[١]، فتاب ورجع وأصبح من أولياء الله الصالحين من عباد الله وقال: بلى والله لقرآن يخشع قلبي لذكر الله، وكان من التوابين المعروفين[٢].

التوبة:

والتوبة تحمل هذا النوع من الانقلاب العميق.

وقيمة التوبة في العزم على العودة إلى الله، والكف عن معصية الله، والاستحياء منه، والندم. وليست التوبة في حقيقتها إلا هذا العزم، والاستحياء منه والندم[٣].

---

١ ـ الحديد: ١٦.

٢ ـ له ترجمة في تذكرة الحفاظ ١: ٢٢٥، وتهذيب التهذيب ٨: ٢٩٤، والجواهر المضيئة ١: ٤٩٠، وحلية الاولياء ٨: ٨٤؛ والرسالة التفسيرية، ووفيات الاعيان ٣: ٢١٥.

٣ ـ في رحاب القران ٩: ١٨٦.

وهي حالات يحبها الله تعالى لعبده، تستنزل رحمته، وقيمة التوبة عند الله تقدر بها.

والذي يتوب إلى ربه توبة نصوحاً لا شك يستشعر بداية هذا الانقلاب في نفسه.

انقلاب وليس اضطراب

وينبغي أن نقول أن هذا الذي نتحدث عنه هو الانقلاب وليس الاضطراب والمتقلب في المواقف بين الإقدام والإحجام..

كما نجد في الناس من يصلي يوماً ويترك الصلاة يوماً آخر ويتوب ويرجع من توبته.

ان ظواهر التقلب والاضطراب ظواهر سطحية، أما الانقلاب فظاهرة عميقة تتطلب الدراسة.

وما حدث للحر ولزهير رضي الله عنه من الانقلاب وليس من الاضطراب والتقلب السريع في المواقف والآراء والقرارات..

عوامل الانقلاب عند (الحر) و(زهير)

كان الحر يشغل موقعاً حساساً في قيادة قطع عسكرية لابن زياد، أرسل لاعتقال الحسين عليه السلام .

وكان إلى جنب هذه المهمة وهذا الموقع يتمتع بضمير حر، وكان لسلامة الضمير دور فاعل في تأريخ الحر رضي الله عنه حتى حدث ما حدث له في كربلاء يوم العاشر من محرم، وتحول من جيش ابن زياد إلى جانب الحسين عليه السلام ، وقد عبّر هو رضي الله عنه عن هذا الانقلاب بقوله: أني أخيّر نفسي بين الجنة والنار،

والله لا اختار على الجنة شيئاً ولو أحرقت، ثم ضرب جواده نحو الحسين عليه السلام منكساً برأسه حياءً من الحسين حيث جعجع بهم في هذا المكان[١].

هكذا في لحظات قصيرة، وسريعة، وبحركة خفيفة، ينتقل الحر من محور إلى محور، ومن موقع إلى موقع معاكس للأول تماماً، ويهاجر من إمارة جيش عمر بن سعد إلى جانب الحسين عليه السلام ، ومن الأنا إلى الله تعالى، وتلك هجرتان تتمان في اللحظات الأخيرة من حياته في لحظة قصيرة وسريعة[٢].

وأما الانقلاب الذي حدث في حياة زهير بن القين رضي الله عنه فكان من نوع آخر.

زهير لم يكن قائداً لابن زياد ولا في جيش يزيد، ولم يكن خارجا إلى قتال الحسين، وإنما كان يحترز من أن يلقى الحسين عليه السلام.

وظروفه لم تكن تجعله بين الجنة والنار كالذي حدث مع الحر، وإنما كان بإمكانه أن يتجنب النار بالابتعاد عن مسيرة الحسين وقد حاول بالفعل ذلك.

إن التحليل الذي ذكرناه للحر لا يكاد يصح في قضية زهير بن القين.

ونحن لا نشك في سلامة ضمير زهير، ولكن ظروف زهير لم تجعله في مواجهة توبيخ وتعنيف الضمير وجهاً لوجه.

ولذلك نحن نميل إلى القول بأن شيئاً آخر كان من وراء انقلاب زهير، ولم يحدث هذا الانقلاب على الطريقة التي تم للحر رضي الله عنه

فقد كان زهير رضي الله عنه عثماني الهوى، ولم يكن هواه مع آل محمد صلى الله عليه وآله وقد

١ـ مقتل المقرم: ٢٦٥ـ٢٦٦.

٢ـ في رحاب عاشوراء: ٧١.

حج البيت في عام(٦٠هـ)، وكان يساير موكب الحسين عليه السلام في الطريق إلى العراق إلاّ انه كان يحرص إلا ينزل بالقرب من خيام الإمام، مخافة الاجتماع به، حتى انتهت قافلة الإمام إلى منطقة (زرود)، فلم يجد زهير رضي الله عنه بداً من أن ينزل بخيامه بالقرب من خيام الحسين عليه السلام فأرسل إليه الحسين عليه السلام رسولاً يدعوه إليه وكان زهير مع صحبه يتناولون الطعام، فابلغه الرسول دعوة الحسين فطرحوا ما في أيديهم من الطعام، وكَأنَّ على رؤوسهم الطير، فأنكرت عليه زوجته (دلهم رحمها الله) ذلك، وقالت: «سبحان الله، يبعث اليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه! لو أتيته وسمعت كلامه!».

فانطلق زهير على كراهية منه إلى الإمام، فلم يلبث أن عاد مسرعاً، وقد تهلّل وجهه وامتلأ غبطة وسروراً ثم أمر بفسطاطه وما كان له من ثقل ومتاع، ان يتحول إلى خيام الحسين، وقال لزوجته: «أنت طالق» ثم قال لأصحابه سأحدثكم حديثاً: « غزونا (بلنجر) ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، ففرحنا وكان معنا سلمان[1] الفارسي. فقال لنا أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال: إذا أدركتم سيد شباب آل محمد، فكونوا اشد فرحاً بقتالكم معه مما أصبتم اليوم من الغنائم)[2]..

سبحان الله! ماذا قال الحسين عليه السلام لزهير رضي الله عنه وماذا سمع زهير من الحسين عليه السلام؟ إنّا لا نعرف شيئاً من ذلك.

١ـ في اغلب الظن ان سلمان هذا هو سلمان الباهلي القائد الإسلامي المعروف بفتوحاته العسكرية وليس هو سلمان الفارسي كما ورد في الرواية، كما نعتقد ان كلمة (بلنجر) وقع سهواً من النساخ والصحيح هو بالبحر ففي تللك الفترة كان المسلمون يغزون ما وراء البحار.

٢ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ باقر شريف القرشي ٣: ٦٦ـ٦٧. نقلاً عن الإرشاد: ٢٦٤. وتاريخ ابن الأثير: ٣: ١٧٧. وانساب الأشراف ق١: ١. والدر النظيم: ١٦٧.

الرواية تقول أن زهير حكى بعد ذلك قصته مع سلمان الفارسي.

وأنا لا انفي الرواية ولا استبعدها، ولكن أقول: أن قصة سلمان الفارسي لم تكن السبب في عودة زهير وانقلابه، وان لهذا الأمر شأناً آخر.

عناصر التحليل:

والآن نعود إلى تحليل قصة زهير في ضوء الرواية التاريخية المعروفة في السيرة، وعناصر هذه القصة كما يلي:

اولا ـ الشخصية العثمانية:

إن في شخصية زهير هوى لعثمان، ولا شأن لنا بذلك (فقد كان عثمانياً) ولم تكن العثمانية يومئذ تكلف صاحبها فقد كان الحكم عثمانياً أموياً. والاتجاه الحاكم لا يحتاج إلى تفسير وإنما الاتجاه المعارض هو الذي يحتاج إلى التفسير دائماً، والناس على دين ملوكهم، وزهير كان من هذا القبيل، ولذلك لا نتوقف طويلاً عن عثمانية زهير.

ثانيا ـ الابتعاد عن الحسين عليه السلام :

ولابدّ هنا من الإشارة إلى النقاط التالية:

١ـ لم يسجل لنا التاريخ موقفاً سلبياً عن زهير اتجاه الحسين عليه السلام كما سجل لنا مثل هذا الموقف عن الحر رضي الله عنه .

٢ـ لم يكن زهير يريد أن يدخل في شيء من أمر الحسين عليه السلام من خير أو شر، وكان يريد أن يبتعد عن الحسين عليه السلام ، لذلك كان يحاول أن يتخلف عنه في المكان حتى لا يلتقي به.

٣ـ كان من رأيه أن لا يبتلي في شيء من أمر الحسين عليه السلام فانه إن

استجاب لدعوة الحسين عليه السلام فقد دنياه، وان أصبح في مواجهته وفي مقابلته فقد آخرته. فمن الأسلم لدينه أن يبتعد عن طريق الحسين عليه السلام حتى يحافظ على دينه ودنياه معاً.

٤ـ لم تكن لديه نقطة واضحة يسجلها على الحسين عليه السلام، وإنما كان يعاني من تراكم عاطفي جرّاء ولائه لعثمان، فكان حاله يشبه حال الانغلاق والعناد، دون عزم وقرار، ولم يكن لديه قرار وعزم في القضية.

ولذلك لما دعاه الحسين عليه السلام أصيب بالوجوم، وحالة الوجوم هي حالة الإنسان الفاقد للقرار.

ثالثا ـ تدخل زوجته دلهم بنت عمرو وإنقاذ زهير من حالة التردد:

كانت زوجته دلهم بنت عمرو رحمها الله هي التي دفعته وشجعته على الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام، فقد أصابه وأصاب رفاقه وجوم غريب عندما جاء رسول الحسين عليه السلام وهو وصحبه على الطعام، يدعوه إلى زيارة الإمام، فصمت وصمتوا، وكأنّ على رؤوسهم الطير.

فاخترقت المرأة الشجاعة (دلهم بنت عمرو) رحمها الله، هذا الصمت والوجوم بقوّة، وقالت لزوجها ـ ورسول الحسين يسمعها ويشهد الموقف ـ: (سبحان الله أيبعث اليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه، لو تأتيه فسمعت كلامه؟!!)[1].

ومع ذلك فلم يتردد زهير عندما قرر الوفود على الله تعالى مع الحسين عليه السلام أن يقول لزوجته دلهم ـ هذه المرأة الشجاعة: (الحقي بأهلك)، لئلا يلحقها بشيء ما يصيبه من الأذى.

١ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ القرشي ٣: ٦٣.

رابعاً ـ الانجذاب إلى الحسين عليه السلام :

فلم يجالس (زهير) الحسين عليه السلام حتى جذبته شخصية الحسين عليه السلام جذباً قوياً، ورجع زهير عائداً إلى أهله بغير ما خرج عنهم وبشخصية أخرى تماماً، فلم يلبث أن عاد مسرعاً، وقد تهلل وجهه وامتلأ غبطة وسروراً ثم أمر بفسطاطه وما كان عنده من ثقل ومتاع، فحوله إلى خيام الإمام[1].

١ـ في رحاب عاشوراء :٧٢.

الدراسة التحليلية

١. الوجهان المختلفان لشخصية زهير

إن زهير يستبطن في داخله شخصيتين واتجاهين:

الشخصية الأولى تبتغي الراحة في الدنيا والآخرة، وتطلب الدنيا والآخرة معاً، وهو لذلك كان يتجنب اللقاء بالحسين عليه السلام، وكان عثماني الهوى في غير إفراط لا يكلفه آخرته.

هذه الشخصية تطلب العافية وتؤثر الراحة.

والشخصية الثانية شخصية نافذة قوية تحتفظ بسلامة الفطرة وتؤثر التضحية والعطاء والفداء على الراحة والعافية.

وكان زهير رضي الله عنه حتى في عثمانيته وأمويته يحتفظ بسلامة فطرته بصورة كاملة ولم يغلب حب الدنيا وأيثار العافية على أيثار العطاء والتضحية.

٢. الصراع بين شطري شخصية زهير(الصراع الداخلي)

كانت الشخصية الثانية أقوى في زهير من الأولى التي كانت تحاول أن تحجب الشطر الثاني من شخصيته، وكانت تعمل لإبعاد صاحبها عن مسير حركة الحسين عليه السلام لئلا يلتقي به، فيسلبه العافية والدنيا التي كان يتمتع بها، في غير تقاطع مع الآخرة.

إن هذا الصراع بين شطري شخصية زهير واضح لمن يتأمل في محاولة زهير الابتعاد عن مسير حركة الحسين عليه السلام ، ثم وجوم زهير عند دعوة الحسين عليه السلام له وتردده في الاستجابة.

وعندما تتدخل زوجته، مستنكرة حالة التردد والوجوم البارز عليه وصحبه تعطيه قوة وزخماً ليلتقي بالحسين عليه السلام ، فيستجيب لرسول الحسين عليه السلام ، ويمضي معه إلى الحسين عليه السلام .

٣. زهير في مجال الجاذبية الحسينية:

وفي هذا اللقاء يقع زهير تحت تأثير الجاذبية الحسينية بصورة مباشرة وينجذب بصورة قوية للشخصية الحسينية.

ويتلقى زهير بفطرته السليمة الجاذبية الحسينية.

لان الفطرة السليمة تنجذب للقيم والكمال والجمال بصورة قوية وسريعة.

وكما أن للجاذبية في الفيزياء قوانين فان لجاذبية القلوب قوانين.

وكلما تكون الفطرة أنقى وأصفى، وكلما تكون القيم ارفع وأكمل تكون الجاذبية أقوى وأسرع.

إن علماء الفيزياء بعد نيوتن استطاعوا أن يدرسوا قانون الجاذبية بتفصيل ويكتشفوا أسرارها ولكن لم يدرس العلماء إلى اليوم قوانين التجاذب بين القلوب لحد الآن.

ولكننا مع ذلك نعلم حقيقتين:

الحقيقة الأولى:

أن هذه الجاذبية سريعة جدا وتتم في لحظات قليلة وبصورة سريعة.

يقولون علماء الفيزياء أن سرعة الجاذبية سرعة خارقة، ولكن في تقابل القلوب تتحول القلوب وينتقل الإنسان بكلمة واحدة ونظرة واحدة من محور إلى محور.

أنا لا اعلم ماذا قال الحسين عليه السلام لزهير، ولكني اعلم أن لقاء الحسين عليه السلام بزهير رضي الله عنه لم يكن يخضع للصيغ المألوفة للهداية والإرشاد والتوجيه.

إن هذه الصيغ تتطلب زماناً طويلاً ومعاناة طويلة تواجه عادة صدوداً من الطرف الآخر، فماذا قال الحسين لزهير، حتى استطاع أن يغير رأيه واتجاهه في بضع دقائق.

إن هذا اللقاء لا يفسره غير قانون التجاذب بين القلوب والأرواح، ولا يفسره قانون الهداية والتوجيه.

فماذا قال الحسين عليه السلام لزهير رضي الله عنه في هذه اللحظات، وما هي الأسرار التي أودعها صدر زهير، وكيف استجاب له زهير بهذه السرعة من غير صدود وتمنع، وبصورة سريعة.

إن الجواب يبقى مجهولاً لدينا حتى نكتشف قوانين الجاذبية في عالم الميتافيزياء، كما كشفها العلماء من قبل في الفيزياء.

الحقيقة الثانية:

قوة فعل الجاذبية الحسينية.

إن زهير عندما انصرف إلى أهله كان شخصاً آخر، تماماً فقد انزوى الشطر الأول من شخصيته الذي كان يطلب العافية ويؤثرها، وها هو زهير يطلب المواجهة والقتال، ويطلّق زوجته ويتخلى عن كل شيء، ويتجرد من كل علاقة تشده إلى هذه الدنيا في حركة سريعة وخفيفة ويعيد زوجته إلى أهلها ويضم رحله إلى رحل الحسين عليه السلام .

كان عثماني الهوى فأصبح علوياً ـ حسينياً، وكان يؤثر العافية فأصبح يبحث عن الابتلاء والمواجهة، وكان يحاول أن يبتعد عن الحسين عليه السلام

فأصبح يتابع الحسين عليه السلام ولا يكاد يفارقه.

إن أمر هذا الانقلاب الشامل وقوته وسرعته ونفاذه يبقى مجهولاً لدينا ما دامت قوانين الجاذبية بين الأرواح مجهولة لنا.

ومن السذاجة أن يتصور أن حديثاً سمعه زهير من سلمان، فذكره الحسين عليه السلام به، كان سبب هذا الانقلاب وان كنا لا ننفي الحديث.

ونحن نجد قوة هذه الجاذبية في رجوع زهير عن الحسين عليه السلام إلى جماعته بشخصية أخرى تختلف اختلافاً كاملاً عن الشخصية التي قابل بها زهير رحمه الله رسول الحسين عليه السلام قبل بضع دقائق.

ونجد أثر هذا الانقلاب في كلمات زهير رحمه الله يوم عاشوراء حينما خاطب الشمر بقوله: «افبالموت تخوفني؟ فوالله للموت معه أحب إلي من الخلد معكم»[1].

قوانين الجاذبية:

إننا نجهل تماماً قوانين الجاذبية فيما بين القلوب، ولكن نعلم أنها واقعة وحاصلة.

ومن نماذج هذه الجاذبية(الحب) ولع الناس وهيامهم العجيب بالحسين عليه السلام وزيارة قبره، ومجالس عزائه.

وعشق الناس من قبله لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته. ولأولياء الله الصالحين من عباده ولأنبياء الله وأوصيائهم، وإتصال هذا الحب جيلاً من بعد جيل.

وليس من تفسير لهذا الحب والانجذاب والهيام غير هذه الجاذبية

١ـ مقتل المقرم: ٢٣٢.

الروحية التي نعرفها بحضورها في واقع علاقاتنا الاجتماعية والدينية، ونجهل أسرارها وقوانينها.

وفي حياة الناس نماذج كثيرة من هذا الجذب والتجاذب، فمن الشخصيات السياسية والأدبية والتاريخية والعلمية والزعامات من يحبهم الناس ويهيمون بهم، ومن الزعماء والسياسيين من لا يملكون في قلوب الناس هذا الرصيد من الحب، مهما بالغوا في الأعلام والدعوة إلى أنفسهم.

وليس من شك ان لصلاح الناس وخدمته دور في حب الناس له... إلا ان هذا المقدار لا يكفي لتفسير حالات الحب والهيام والتعلق الشديد الذي نجده في حياة الناس

نحوان من الجذب:

هناك بؤرتان للجذب في شخصية الإنسان: الروح والجسم، الأول يمثل جاذبية الروح وحاجاتها والثاني يمثل جاذبية الجسم وحاجاته، الأولى من متطلبات الحمأ المسنون والثانية من متطلبات النفحة الإلهية.

والذي يثير الجذب الأول في نفس الإنسان هي القيم والجمال والكمال والمعرفة... ومن هنا تنجذب الفطرة إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء والمناجاة والخشوع والحب.

ان قانون الجذب والانجذاب، والحب والانسداد... أمر واقع في حياة الناس لايمكن إنكاره... ولهذا القانون صلة بسلامة فطرة الإنسان.

فان الفطرة السليمة تنجذب إلى الصالحين وتنفر من الفاسدين والمجرمين.

وبعكس ذلك الفطرة التي تلوثها الذنوب والمعاصي، وتستغرقها الشهوات تميل إلى الفاسدين، وتنجذب اليهم وتنفر من الصالحين، وكما

كان أبو جهل ينفر من رسول الله ﷺ ...

وهذا الباب من المعرفة يفسر لنا هذا الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ في علي عليه السلام: يا علي (لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق)[١]، يقول علي عليه السلام : (لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على ان يبغضني ما ابغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها[٢] على المنافق على ان يحبني ما احبني، وذلك انه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي ﷺ انه قال: (يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق)[٣]. والذي يثير الجذب الثاني في نفس الإنسان (القناطير المقنطرة من الذهب والخيل المسومة)، وبؤرة هذا الانجذاب في النفس الأهواء والشهوات..

تقارن الانجذابين

تخضع الملائكة ـ كما ورد في الروايات ـ للجذب الأول والحيوانات للجذب الثاني.

أما في الإنسان فان هاتين الجاذبيتين تتقارنان. ذلك ان الحيوان تراكم من الأهواء والشهوات والملائكة مجردة من الأهواء والشهوات.

أما الإنسان فهو تركيب من حمأ مسنون ونفخه من الروح، وهو مزيج منهما، ولهذا تقترن فيه هاتان الجاذبيتان.

وهذا الاقتران للجاذبيتين هو الذي يؤهل الإنسان ليكون خليفة الله تعالى

---

١ ـ مسند احمد ٦: ٢٩٢، كنز العمال ١١: ٦٢٢، تاريخ دمشق ٤٢: ٢٧٩.

٢ ـ أي بأجمعها.

٣ ـ شرح نهج البلاغة ١٨: ١٧٣، البحار: ٣٤: ٣٤٤ قال المجلسي: الخيشوم اقصى الانف والجمة المكان الذي يجتمع فيه الماء.

من دون الحيوانات والملائكة، لان حركته إلى الله تعالى(إلى الأعلى) تتم من خلال معاناة الابتلاء للتخلص من جاذبية الأهواء.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1] والأمشاج الاخلاط الحاصلة من خليط الروح والجسم وحاجاتهما ومكوناتهما وهذا الخليط يعرّض الإنسان للابتلاء والمعاناة وهذه المعاناة تجعل حركة الإنسان إلى الله بالإرادة، وبمعاناة ومشقة.

إن الملائكة تتحرك إلى الله بالطبع وبفعل سلطان الجاذبية، أما في الإنسان فان هذه الجاذبية تقابلها جاذبية أخرى، ولكي يتحرك إلى الأعلى لابدّ له من أن يتخلص من جاذبية (الحمأ المسنون) ولا يتم ذلك بدون معاناة.

وهذه المعاناة تتطلب استخدام الإرادة، وحركة الإنسان إلى الأعلى عبر الإرادة حركة غير محدودة، ولا سقف لها... بينما حركة الملائكة محدودة.

ومن هنا ورد في بعض الأحاديث أن هناك ملائكة تسبح فقط، وملائكة تركع فقط وملائكة تسجد وملائكة تدعوا.

أما الإنسان فلما كانت حركته إلى الله بالإرادة فهي حركة غير محدودة وغير مقيّدة.

والعكس أيضا يصح فان سقوطه أيضا غير محدود.

والى ذلك يشير القران: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[2].

---

١ ـ الانسان: ٢.

٢ ـ الاعراف: ١٧٩.

لأن الحركة الإرادية توسع دائرة الانهماك في اللذات والمتع والإجرام، بعكس الحيوانات فان لها حظاً محدوداً من الهوى، فليس لها حب المال والمنصب مثلاً، بينما دائرة أهواء الإنسان واسعة ولا حدود لها.

إن جاذبية الحمأ المسنون تجذب الإنسان إلى الأسفل وتعمق الأنا في الإنسان إذا استسلم لها الإنسان، وجاذبية الروح تجذب الإنسان إلى الأعلى وتُخلّص الإنسان من الأنا والأنانية، وتحرك الإنسان باتجاه القرب من الله.

الطرف المنجذب والطرف الجاذب

والآن نتحدث عن جاذبية الروح في جانبين:

الطرف المنجذب

فيما تقدم عرفنا أن مركز الانجذاب (الفطرة) السليمة تنجذب إلى الله تعالى (الكمال المطلق) بقوة كما تنجذب إلى كل جمال وكمال.

ودرجة الجذب تتوقف على سلامة الفطرة، فأن الفطرة السليمة تنجذب لله تعالى وللكمال وحملة الكمال والقيم، ولكن الأهواء والشهوات قد تحجب الفطرة فتضعف في الإنسان حالة الانجذاب، وقد تتعدى الشهوات هذه المرحلة فتفسد فطرة الإنسان بشكل كامل وعندها يفقد الإنسان خاصية الانجذاب.

فلا يكون لمركز الجاذبية أي تأثير في روح هذا الإنسان، وبالعكس تقوى جاذبية المال والمنصب واللذات الأخرى في الإنسان فيتحرك الإنسان باتجاه السقوط فقط، وقد يزيد على ذلك فينفر من مراكز الجذب، وليس فقط لا يستجيب لله بل ويعرض عن الله تعالى.

إذن في فطرة كل إنسان رغبة وشوق إلى الكمال، وما لم تحجب وتفسد الفطرة فان هذه الرغبة والشوق يبقى ويفعل أثره في النفس.

لقد كان أبو ذر رضي الله عنه يلتقي رسول الله ﷺ كما كان يلتقيه أبو جهل، ولكن الأول ينجذب من النظرة الأولى ويلتصق برسول الله ﷺ والثاني ينفر ويعادي رسول الله ﷺ ، ورسول الله لم يتغير في لقاء أبي ذر رضي الله عنه عن لقاء أبي جهل، وإنما الفرق في سلامة فطرة الأول وفساد فطرة الثاني.

الإحساس المجهول:

ويمكن القول أن هناك إحساساً مجهولاً يحرك الإنسان باتجاه مركز الجذب من دون أن يفهم هو ماذا يريد،فان سلمان الفارسي رضي الله عنه عندما تحرك من بلاد فارس كان يبحث عن رسول الله ﷺ وهو لا يعلم. وهذه الجاذبية كانت تجذبه من فارس إلى المدينة وهو لا يعلم.

وهذا الإحساس المجهول يغني الإنسان عن التوجيه والأدلة والبراهين والقضايا العلمية.

وعندما يصل أبو ذر وسلمان رسول الله ﷺ يجدان سكوناً في النفس واستقراراً وركوناً واطمئناناً لا يعرفان كنهه وجوهره.

هذه الجاذبية هي الحب: والركون

ولا تفسر هذه الجاذبية إلا بالحب والركون النفسي، أي حب الله وركون النفس إليه وحب أولياء الله لحب الله، وحب القيم والكمال والجمال.

وقد ورد حب الله وحب الأولياء له وحب بعضهم لبعض كثيراً في كتاب الله.

١. الحب المتبادل بين الله وعباده:

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1] ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[2].

٢. حب العباد لله:

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[3].

٣. حب الله لعباده:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[4].

٤. حب المؤمنين بعضهم لبعض:

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[5].

إن حب الله وحب رسول الله ﷺ وأهل بيته وحب أولياء الله وحب المؤمنين من المسائل الأساسية في الإسلام، وقد ورد في الحديث: (وهل الدين إلا الحب؟) في جواب سؤال من سأل(هل الحب من الدين؟)[6].

---

١ ـ آل عمران: ٣١.

٢ ـ المائدة: ٥٤.

٣ ـ البقرة: ١٦٥.

٤ ـ البقرة: ٢٢٢.

٥ ـ الحشر: ٩.

٦ ـ بحار الانوار ٢٧: ٩٥ و ٦٥: ٦٣ و ١٠١: ١٣٠.

والحب لله تعالى أساس ومحور في حياة الإنسان المسلم، فهو أساس لكل حب آخر، فلا بد من أن يكون اشد من أي حب في حياته، ومحور لأي حب آخر، ولا بد أن يكون أي حب آخر متشعباً من هذا الحب ومتفرعاً عنه، ولا بد أن يملك هذا الحب على الإنسان كل مشاعره وعواطفه ويتحكم في حبه وبغضه وحتى في درجات حبه وبغضه.

عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «لا يمحض رجل الأيمان بالله حتى يكون الله أحب إليه من نفسه وأبيه وأمه وولده وأهله ومن الناس كلهم»[1].

جاذبية الجمال والكمال والخير:

وهذه الجاذبية هي الحب الذي تقدم الكلام عنه.

وبؤرة الانجذاب في هذه الجاذبية، هي الفطرة والقلب وبؤرة الاستقطاب والجذب في هذه الجاذبية الخير والجمال حيثما وجد.

وبؤرة الاستقطاب الأول والأقوى في هذه الجاذبية هو الله تعالى حيث تجتمع لديه كل الخير والجمال والكمال بما لانهاية له، ثم بعد ذلك قيم الجلال والجمال والخير حيث يوجد الخير والجلال والجمال والكمال في أولياء الله تعالى وعباده الصالحين.

وحتى القيم المجردة (كالوفاء والشجاعة والصدق) تعد من بؤر الاستقطاب والجذب في نفس الإنسان.

وقوة وضعف الجاذبية يرتبط بأمرين:

بقوة مصدر الجاذبية.

واستعداد الطرف الآخر للانجذاب.

١ـ كنز العمال ٨: ٣٧.

و هـناك نوع آخر من الجذب والاستقطاب في نفس الإنسان ومركز هذا الانجـذاب فـي النفس الهوى، و بؤرة الاستقطاب والجذب في هذه الجاذبية المغريات والمثيرات في الحياة الدنيا.

الحب والعشق:

هذا الذي شرحناه هو الحب.

وهو ينشطر إلى شطرين: شطر الهوى وشطر الفطرة والقلب.

وللحب درجات ولا نقصد بالحب هنا درجات الدنيا، بل الدرجات العليا من (الحب) وهو (الوله والعشق).

ولهذه المرحلة من الحب جاذبية فوق العادة.

ولسنا بصدد الحديث عن الحب الذي يصدر عن الشهوة والهوى، وإنما نقصد النمط الآخر من الحب (العشق) الذي يصدر عن القلب.

وهذا الحب يكون لله تعالى ولأوليائه في قلوب عباده.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[1].

هـذا الحب هو الحب الإلهي سواء تعلق الحب بالله تعالى أو تعلق بعباده الصالحين.

إن قوانين هذا الحب مجهولة لنا كما قلنا، ولكن نحن نجد أن هناك بعض النفوس لها تأثير قوي في البعض الآخر عندما يلتقيان، حيث ينجذب أحدهما للآخر انجذاباً قوياً.

---

١ ـ مريم: ٩٦.

الحب استجابة لجاذبية الحبيب:

ليس المحب هو الذي يسعى إلى حبيبه وإنما قيمة الحب انه استجابة والحبيب هو الذي يجذب المحب، فيستجيب المحب لجاذبية الحبيب.

وحركة الإنسان إلى الله (صلاته، دعائه، مناجاته، حبه،عمله لله، جهاده في سبيل الله)، كل ذلك من فعل جاذبية الله للإنسان والفرق بين المؤمنين والكفار ان الكفار يعاكسون هذه الجاذبية والمؤمنون يستجيبون لهذه الجاذبية.

مسكين هذا الإنسان يتصور انه يتحرك إلى الله ويسعى ويعمل ويدعو ويصلي ثم لا يسمعه الله ولا يتقبله ولا يستجيب له. ولا يعلم أن صلاته ودعائه وحرقته وبكاءوه ومناجاته هو من فعل جاذبية الله... وأكثر ما يفعل هو أن يستجيب لهذه الجاذبية ولا يعارض، ولا يعاكس هذه الجاذبية.

وهذه المسالة من المسائل الدقيقة الحساسة في علاقة المحب بحبيبه والعاشق بعشيقه إن (الحب) ليس فعلاً للمحب، وإنما هو استجابة لجاذبية الحبيب فقط وعليه فان الحركة الكبيرة والانقلاب الكبير الذي يتم في حياة المحبين من محور الذات والأنانية إلى محور حب الله. هذه الحركة والانقلاب والتوبة والعودة إلى الله تعالى يتم بفعل جاذبية الحبيب.

والمطلوب من الإنسان في دائرة الجاذبية الإلهية أن لا يعاند ولا يشاقق فقط.

اثر الحب في النفس:

الحب مصدر الانقلابات الكبرى في داخل النفس، وعندما يعيش الإنسان خارج دائرة الحب فإنه يعيش حياة خاملة ولا يشعر بقيمة الحياة إلا حينما يدخل في دائرة الحب عندئذ يتذوق الإنسان طعم الحياة.

للحب آثار عديدة في داخل النفس، أهمها:

١ ـ التحرر من الأنا:

أول أثـر لفعـل الحـب في النفس ان الحب يحرر الإنسان من الأنا ويكسر غلـواء الأنا. والإنسان الذي يدخل في دائرة حب الله ورسوله وأوليائه يتحرر مـن الأنـا ويـتحرر مـن الآثـار والتبعات التي تلحق الـ(أنا) كالحرص والطمع والجشع وطول الأمل والحسد وحب المال والدنيا والأهواء.

وهذا هو الانقلاب الأعظم في داخل النفس.

الحـب ينـتزع الأنانـية مـن نفـس الإنسان، لأن الإنسان عندما يحب ينتقل اهـتمامه وتعلقـه مـن محـور (الأنا) إلى محور آخر خارج (الأنا)... وهذا أمر طبعي في كل حب.

ولكـن لـيس معـنى ذلـك أن الحـب ينقل الإنسان من الأنا بصورة كاملة، وإنمـا الحـب يوسـع مـن دائـرة شخصية الإنسان (الأنا)، ويرقق الأنا ويلطّفه، ويسـلب مـنه الحـالات السـلبية. وفـي هذه التوسعة تلطيف وترقيق وتهذيب للأنا. فإذا أحب الإنسان شيئاً استبطن حبه في نفسه وأصبح شطراً منه

٢ ـ الحب أداة لتهذيب النفوس:

إن الحـب يوسع دائرة شخصية الأنا ويضعّف (الأنانية) في نفسه والإنسان بقـدر مـا يحـب يفنى ويذوب فيمن يحب وبنفس المقياس يضعف الأنا في شخصيته فلا يكون (الأنا) كل همّه وطلبه وسعيه.

ومحـور الأنـا فـي حـياة الإنسـان يسـتتبع جملـة من الخصال الذميمة التي يجـب أن يسـعى الإنسـان لتهذيـب نفسـه مـنها كالـبخل والشـح والطمـع والحـرص والحسـد. وكـل ذلك أعراض (الأنا) وآثاره وكلما يضعف (الأنا) فـي شخصـية الإنسـان تضـعف هذه الخصال. ولما كان الحب يلطّف (الأنا) وقعه ويكسر حدّته فمن الطبيعي أن يكون الحب وسيلة لتهذيب النفس.

٣ ـ تفجير الطاقات:

الأثر الآخر الذي يتركه الحب هو تفجير الطاقات الكامنة في نفس الإنسان. فإن الله تعالى قد أودع في الإنسان كنوزاً من المواهب والطاقات وهذه الطاقات تتفجر عندما يدخل الإنسان دائرة جاذبية الحب.

إن الحب يمنح الإنسان الجرأة والشجاعة والفداء والعطاء والإقدام والإخلاص والشوق، وقد يكون الإنسان واحداً من عامة الناس فإذا دخل في دائرة الحب تفجرت هذه الطاقات والكنوز في نفسه.

وحب الله تعالى وحب أولياء الله في الله يربط الإنسان بمبدأ كل موهبة ويفجر في نفسه هذه المواهب، ويمنح الإنسان رقّة وعاطفة في القلب.

٤ ـ الحب باب من أبواب الإلهام:

وكما يسلك الإنسان إلى المعرفة سبل الهداية والتوجيه والتعليم، كذلك قد يسلك سبل الحق إلى المعرفة والوعي. فإذا أحب الإنسان الله تعالى فتح الله على قلبه أبواب المعرفة والوعي.

والحب لله وفي الله الطريق الأقصر إلى المعرفة وليس معنى ذلك إلغاء دور التعليم والإرشاد في اكتساب المعرفة والاكتفاء بالحب عن التعلم والدراسة.

محور الحركة إلى الله تعالى:

إن للحركة إلى الله تعالى محورين ومسلكين، أحدهما عن طريق (القلب) والثاني عن طريق (العقل) والطريق الأول أسرع وأقوى من الطريق الثاني.

وقد ينجذب الإنسان إلى الله تعالى والى أولياء الله بلقاء سريع أو بكلمة عابرة، وهذا طريق سريع يقترن بالشوق والحب، وكذلك كان لقاء أبو ذر، سلمان، عمار، ومصعب برسول الله ﷺ.

وقد تكون الحركة إلى الله بالهداية والتوجيه والتعقل وهذا طريق بطيء لا يحمل حرارة وشوقاً كالأول ولكن فيه قناعة وقبول وتسليم عقلي.

وقد يقترن هذان الطريقان: (الهداية، والجذب)، ببعض فيكون الجذب بعد التوجيه والنصيحة ومعه.

إن طريق الحركة إلى الله بالجذب طريق سالك إلى الله، سلكه الكثيرون من عباد الله، وبلغوا ما يشاؤون من معرفة الله، والمعرفة التي تأتي عن طريق الحب والجذب شفافة، والطريق إليها سريع وقصير.

إن آية من القرآن يقرأها رسول الله ﷺ على أعرابي يقدم عليه من البادية فتجذبه وتغير أفكاره ومنهجه وحياته، وتحدث داخل نفسه انقلاباً عميقاً لا يمكن ان تفسر بما يألف الناس من وسائل الإقناع والاقتناع.

الانقلاب:

هذه الجاذبية تؤدي إلى انقلاب كامل وسريع في شخصية الإنسان يحرر الإنسان من سلطان الهوى ويدخله في دائرة نفوذ سلطان الله تعالى وينقله من بؤرة الهوى في نفسه إلى بؤرة الفطرة، وإذا انتقل الإنسان من محور الهوى إلى محور الفطرة يتغير كل شيء في حياته، حبه وبغضه وحركته وتوجهه وعواطفه وأخلاقه وسكونه وحركته وغضبه ورضاه.

هذا الانقلاب هو من فعل الجاذبية وتأثيرها، ومن خصائصه أنه يتم بسرعة ويغير كل شيء في الإنسان وحياته.

زهير﵀ في مواجهة الجاذبية الحسينية:

لقد كان زهير في مواجهة الجاذبية الحسينية وكان قريباً من هذه الجاذبية جداً. وكانت هذه الجاذبية تشدّه تجذبه بقوة... وكان يحتفظ في نفسه شخصية أخرى تعاكس هذه الجاذبية وتحاول أن تحجب زهير عن الحسين﵇ بينما تستجيب له فطرته...لقد حاول كثيراً ان يبتعد عن طريق الحسين﵇ لئلا يقع في محذور هذا التقاطع الغريب بين الهوى من جانب والعقل والفطرة من جانب آخر.

ان سلوك زهير﵀ النفسي في هذه المرحلة يدعو إلى كثير من التأمل... ان زهير يحتفظ في داخله بحالة من التمنع من لقاء الحسين﵇ والاستماع إليه يشبه العناد، ونجد في هذه النفس ايضاً حالة من الاستجابة السريعة القوية، والانشداد يشبه الهيام والشطر الأول من شخصيته يعرف انه إذا التقى بالحسين﵇ وسمع إليه، فسوف ينجذب إليه لا محالة انجذاباً قوياً ويقع في دائرة نفوذ كلام الحسين﵇ فيحاول ان زهير يمنع من اللقاء بالحسين﵇ ويحاول ان يبعد زهير عن طريق الحسين﵇ حتى لا يقع في هذا المجال المغناطيسي القاهر.

ولكن الله تعالى يريد لزهير﵀ ان يدخل مجال الجذب، وينجذب إلى الحسين﵇ رغم كل العناد والتمنع الذي يعمل في نفسه، فلنستمع إلى قصته برواية الطبري عن أبي مخنف.

الرواية التاريخية:

يقول أبو مخنف، عن بعض الفزاريين قال: (كنا مع زهير بن القين حين أقبلنا من مكة نساير الحسين﵇ فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في

منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلف زهير وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدم زهير)[١].

وهذا هو شطر العناد والصدود في شخصية زهير رضي الله عنه يحاول ان يبتعد عن الالتقاء بالحسين عليه السلام ...

ثم تقول الرواية: (حتى نزلنا يوماً في منزل لم نجد بداً من أن ننازله فيه فنزل الحسين عليه السلام في جانب ونزلنا في جانب فبينا نحن نتغذى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام فسلّم ودخل. فقال: يا زهير، إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام بعثني إليك لتأتيه، فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأن على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدثتني دلهم بنت عمر امرأة زهير، قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت، قالت: فأتاه زهير)[٢].

إن المنزل الذي جمع زهير رضي الله عنه بالحسين عليه السلام ماء وحيد لا يمكن ان يتجاوزه زهير رضي الله عنه ولابدّ له من الاجتماع بالحسين عليه السلام في منزل واحد... وهنا يتدخل طرف ثالث في القصة.

لحدّ الآن كنّا مع زهير والحسين عليه السلام .

الحسين عليه السلام يطلب زهير، وزهير يبتعد حتى لا يلتقي بالحسين عليه السلام .

ويدخل الآن عنصر ثالث طالما دخل في حياة الإنسان وهو يد الله تعالى لكي تجمعها من غير ميعاد، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾[٣].

١ـ إبصار العين: ٩٥.

٢ـ المصدر السابق.

٣ـ الانفال: ٤٢.

فيبعث الحسين عليه السلام رسولاً إلى زهير: (أن أبا عبد الله الحسين عليه السلام بعثني إليك لتأتيه).

فيغلبهم وجوم، فيلقي كل منهم ما في يده من الطعام، كأن على رؤوسهم الطير.

مفاجأة للشطر المعاند الصاد من شخصية زهير رضي الله عنه ، يفاجؤه الحسين عليه السلام بهذه الرسالة التي لم يكن يتوقعها، فلا يدري ماذا يفعل، ولا يدري ماذا يقول.

ومرة ثانية تتدخل يد الله تعالى وعنايته فتتكلم دلهم زوجة زهير لتنقذ الموقف فتقول في تعجّب وإنكار لوجوم زهير: (أيبعث إليك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله لتأتيه ثم لا تأتيه، لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت)... فتتدخل الإرادة الإلهية مرة ثانية لتنطق دلهم(رحمها الله) لتنقذ الموقف المحرج.

رحمك الله يا دلهم، لولا هذا التدخل السريع، والتذكير السريع، واختراق سكون الوجوم بالرأي الحاسم القاطع، بسرعة، وحسم، لكان تاريخ زهير يجري مجرى آخر.

لكان زوجك زهير شخصاً من عامة الناس، من الذين يأكل الدهر عليهم ويشرب، ويعيشون أيام ثم لا يكون لهم ذكر.

رحمك الله يا دلهم، هذه الكلمة الحاسمة القاطعة أنقذت الموقف المحرج وأدخلت زهير في دائرة رحمة الله الواسعة في الآخرة وفي رحاب التاريخ في الدنيا من أوسع الأبواب.

ونرجو ونسأل الله تعالى أن تكون أنت شريكة زوجك فيما أتاه الله تعالى من عظيم الثواب... ولم لا؟ وأنت صاحبة الفضل عليه فيما بلغه من رحمة الله الواسعة.

الكلمة التي صنعت التاريخ:

ما هو التاريخ؟

إنه إرادة الله ومشيئة الله وتوفيقه.

ومن لا يرى يد الله تعالى وإرادته في صناعة التاريخ فهو لا يبصر شيئاً من التاريخ، ولا يبصر من التاريخ إلاّ السطح الضحل.

وما أكثر ما يصل الإنسان في مسيرته السياسية والاجتماعية إلى طريق مسدود تماماً، فيفتح الله لهم الطريق.

وما أكثر نماذج السلطان الذي بلغ اقصاه في حياة الطغاة والجبابرة، ثم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر في عشية أو ضحاها، وهم يلعبون، وسادرون في غيهم وغفلاتهم وسكرهم.

وما أكثر المستضعفين الذين بسط الله تعالى السلطان والقوة والعزة لهم، وكانوا من قبل يعيشون الظلم والاضطهاد، وتضيق بهم الأرض بما وسعت.

وما أكثر ما يبذل الناس من جهد من اجل الدنيا وسلطانها ولذاتها فتذهب هباءً منثوراً لا يأتي بشيء ويذهب صاحبها معها، فلا يبقى له ذكر وخبر.

وما أكثر الذين رفعهم الله تعالى بكلمة أو موقف أرادوا به وجه الله، فأعزهم، وأكرمهم، وأدخلهم في رحاب رحمته الواسعة، ومكنهم من الأرض، وادخلهم في رحاب التاريخ من اوسع الأبواب.

إن الذين لا يرون يد الله تعالى لا يستطيعون ان يعرفوا التاريخ.

لقد شاء الله ان يغير مسار حياة زهير رحمه الله وهو في صدوده للحسين عليه السلام وامتناعه عنه بكلمة برسول من الحسين عليه السلام وكلمة من زوجته تبدد الوجوم

الـذي حكمهـم عـندما ابلغهـم رسول الحسين عليه السلام دعوته، ثم بلقاء سريع مع الحسين عليه السلام ، فيتغير كـل شـيء فـي حياة زهـير، وينقلـب زهير رضي الله عنه انقلاباً كاملاً عما كان عليه بهذه الكلمة، وبذلك اللقاء.

ينقلـب مـن العثمانية (الأموية) إلى العلوية الحسينية. وينقلب من الصدود والتمـنع إلـى الاسـتجابة الكاملة، ومن الكراهية إلى الحب، ومن إيثار العافية إلـى المخاطـرة والقدوم على الابتلاء والشهادة في سبيل الله، ومن الدنيا إلى الآخرة.

ومن الأنا إلى الله.

وكانـت لكلمـة دلهـم(رحمهـا الله) الدور الأساسي في هذا كله... ولو لم يـنطقها الله تعـالى بهذه الكلمة الحاسمة لم نكن نعلم ماذا كان يؤول اليه أمر زهير في مجاهل التاريخ.

لقـد اخترقت هذه الكلمة الحاسمة وجوم القوم، ولو أنها كانت تتأخر أو تسـكت لسـبق الشيطان دلهم إلى زهير رضي الله عنه وألقى على لسانه الاعتذار وأعانه رجالـه علـى ذلـك. ولكـن كلمـة دلهـم كانت أسرع وأنفذ من مكر الشيطان وكـيده فسـلبت المبادرة مرة أخرى من الشطر الآخر من شخصية زهير ومن الشيطان الذي يجلس له بالمرصاد.

توفيق الله في موضع التوفيق:

إن التوفـيق مـن الله تعـالى، لا شـك فـي ذلك، ولكـن أسبابه ومفاتيحه بيد الإنسـان، ولـولا أن زهـير يسـتحق هـذا التوفـيق، ولـولا ان دلهم تستحق هذا الإلهام لما ألهمها الله بهذه الكلمة، ولما رزقه الله هذا التوفيق.

روى ثقـة الإسـلام الكلينـي رحمه الله فـي الكافـي عـن ابن جميلة قال: سمعت

أبا عبد الله(الصادق)عليه السلام يقول: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى عليه السلام ذهب يقتبس ناراً، فانصرف إليهم وهو نبي مرسل[١].

ومهما يكن من أمر فإن ظاهرة التوفيق في حياة الإنسان ظاهرة واسعة وممتدة. وأي إنسان أنعم الله عليه بالبصيرة وأنعم النظر، لا يكاد تخفى عليه لمسات يد الله تعالى في حياته في سرّائه وضرّائه في الشدة والرخاء. ولا تغيب عنه رعاية الله، ولا يتخلى عنه التوفيق الإلهي، في حياته المادية وحياته المعنوية، وفي حركته وعمله.

إن الإنسان قد يريد الوصول إلى شيء من معصية الله، فيخرج إليه فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة.

وقد يسلك طريقاً إلى الراحة والعافية وإيثار الحياة الدنيا، فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى ذات الشدة والى الجنة.

وقد يسلك طريقاً إلى متاع قريب من متاع الدنيا، فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى رضوانه وقربه.

وقد يخرج من بيته في مهمة، ولا يعلم ماذا يصنع وأين يذهب، وأي باب يطرق ومن أي وجه يطلب حاجته، فيأخذ الله بيده، ويسلك به الطريق إلى حاجته، خطوة خطوة راشداً مهدياً[٢].

إن زهير رحمه الله غادر الموسم بعد الحج يريد العودة إلى أهله وقومه، فيسعى اليه التوفيق من عند الله، فيتمنع على العودة، فيسوقه التوفيق إلى الجنة، رغم تحرجه وارتباكه، فلما ان يلتقي الحسين عليه السلام يركن اليه، وتسكن اليه نفسه،

١ـ بحار الأنوار ١٣: ٣١ ـ ٣٢، وفروع الكافي ١ : ٣٥١. وفيه: فإن موسى عليه السلام ذهب ليقتبس لأهله ناراً.

٢ـ في رحاب القرآن ١٠: ٥٥ ـ ٥٦.

ويدعوه الحسين عليه السلام ان يخرج معه إلى لقاء الله، فتركن اليه نفسه، ويستجيب لدعوته، ويودّع أهله وزوجته، ويرحل إلى لقاء الله، ويبقى ذكره في دائرة النور، إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها.

الكلمة التي خلّدت دلهم:

من كان يعرف دلهم بنت عمرو لولا هذه الكلمة؟ فقد خلدت بها دلهم ودخلت دائرة النور، كثيرون من مثل دلهم ماتوا ولم يذكرهم التاريخ. ولكن دلهم تبقى بهذه الكلمة في صلب الطف. ومن يذكر قصة الطف يذكر قصة دلهم.

وهذا هو التوفيق الذي يؤتيه الله تعالى لمن يشاء من عباده.

وأينما ذكر الحسين عليه السلام ذكر زهير، وأينما ذكر زهير ذكرت دلهم.

لقد تعاونت دلهم والجزء الخيّر من شخصية زهير للتغلب على جانب الصدود والانغلاق من شخصيته.

رحمك الله يا زهير، لولا دلهم، لما دخلت في دائرة النور، ولولاك لم يكن لدلهم ذكر في العالمين.

رحمكما الله وحشركما معاً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واذا حشر الله تعالى العباد ليوم الحساب فسوف يحشر زهير رضي الله عنه ويحمل معه شهادته في كربلاء بين يدي حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتحشر دلهم وهي تحمل إلى الله هذه الكلمة من النور في عرصات يوم القيامة.

المرأة التي كتبت شطراً من ملحمة الطف:

لو سألنا التاريخ: مَنْ دلهم؟ لم يحدثنا التاريخ عنها بشيء، والتاريخ لا يعرف عنها شيئاً كثيراً، ولكن هذه المرأة المجهولة كتبت شطراً من تاريخ

الطف من الملحمة الكبرى في تاريخ الإنسانية.

إن زهيراً شطر هام من ملحمة الطف، ومع عظيم التقدير لشخصية زهير نقول: إن دلهم هي التي صنعت زهير وموقف زهير.

إن سيدة البلاط العباسي في عصرها الذهبي أم الأمين وزوجة الرشيد (زبيدة) ماتت في ترفها وبذخها ولم تترك شيئاً، والتاريخ يحدث عنها الكثير ولكن لا نجد لها في غير الليالي الحمراء ذكراً... أما هذه المرأة الصالحة، المجهولة التي لا يعرف التاريخ عنها غير هذه الكلمة، فلها شأن آخر، شاركت بهذه الكلمة في رسم ملحمة الطف، وأصبح ذكرها واسمها جزءً من هذه الملحمة الخالدة في التاريخ.

كانت أشجع من الرجال تكلمت حينما سكت الرجال.

وعندما وجم زهير وجم ورجاله، ولم يملك أي منهم الشجاعة الكافية ليقول لزهير: سبحان الله، يا زهير، إن رحمة الله الواسعة في الآخرة، وجوار رسول الله ﷺ في الجنة والدخول في دائرة النور في الدنيا تنتظرك على الباب في دعوة الحسين عليه السلام وأنت متردد متحرج!

لم يملك أي منهم القوة والشجاعة، حتى زهير نفسه، ولكن هذه المرأة كانت تملك القوة والشجاعة التي كان يفقدها أولئك الرجال الأشداء.

الدخول في المجال المغناطيسي:

يقول أبو مخنف: قالت (والكلام لا زال لدلهم):

(فأتاه زهير بن القين، فما لبث إن جاء مستبشراً، قد أسفر وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقوض وحمل إلى الحسين عليه السلام ثم قال لي: أنت طالق. الحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلاّ خير. ثم قال

لأصحابه: من أحبَّ منكم أن يتبعني وإلاّ فإنه آخر العهد)[1].

وهـذا قـرار سـريع، قوي، حاسم، نافذ، لا يدع مجالاً لأحد للمناقشة. لقد دخـل زهـير فـي المجـال المغناطيسـي، وفي مجال الجاذبية الحسينية منذ أن ترك الصدود واستجاب لدعوة الحسين عليه السلام وأخذ بنصيحة زوجته.

ومـن ذلـك يتبيـن أن الحاجـز فـي الجاذبـية الروحـية لـيس المكان وإنما الإرادة والصـدود والانغـلاق النفسـي، فلمـا ان تـنازل عـن صـدوده جذبـته الجاذبية الحسينية. ودخل في المجال المغناطيسي.

وكان اللقاء سريعاً لأن الرواية التاريخية تقول: (فما لبث).

ولكـن هذا اللقاء السريع فعل فعله، وحوّل شخصية زهير رأساً على عقب وتغير زهـير تغيراً كـاملاً، وأصـبح شخصـاً آخر يختلف عما كان عليه قبل ساعة اختلافاً كبيراً.

لقـد حـدث الانقلاب الكامل السريع فقد ذهـب زهير إلى الحسين عثمانياً ورجـع علوياً حسينياً، انقلاب كامل سريع في لحظات قصيرة ومعدودة، انقلاب من الهوى إلى الله، ومن الدنيا إلى الآخرة، هجر الدنيا وأقبل على الآخرة.

قرّر زهير مرة واحدة ان يترك دنياه ويلتحق بآخرة الحسين عليه السلام.

لقد قال الحسين عليه السلام من قبل: كأن الدنيا لم تكن وكأن الآخرة لم تزل.

لقـد قرر زهير رضي الله عنه ان يقطع علاقته بالدنيا مرة واحدة بشجاعة وبسرعة (وكأن الدنيا لم تكن) وان يركن إلى الآخرة مع الحسين عليه السلام (وكأن الآخرة لم تزل).

فقـوّض خـيامه ورحلـه، وحملها إلى خيام الحسين عليه السلام، وتحوّل عن كل شيء من دنياه، حتى زوجته التي دلته على هذا الطريق طلقها، لأنها شطر من

١ـ إبصار العين: ٩٥.

دنياه، ولقد كانت من شطر الخير في دنياه، إلاّ ان زهير ﷺ كان قد قرر في نفسه أن يتخلى عن الدنيا كلها خيرها وشرّها.

كل ذلك تمّ خلال لحظات بسرعة وبقوة وكأنه يخاف إذا أبطأ أن تلاحقه الوساوس وينشدّ من جديد إلى الدنيا.

كيف حدث ذلك؟

لم يحدث كل هذا الانقلاب لأن دنيا زهير كانت هزيلة أو قليلة فقد كان زعيماً في قومه. ولكن السرّ ان تعلقه بها لم يكن عظيماً، وفطرته وضميره كان نقياً صافياً، وإرادته كانت قوية.

وأراده الله تعالى، وسعى إليه التوفيق من عند الله.

وإن أحدنا ليضع خطوة ويرفع أخرى في الطريق إلى الله وفي زمن طويل يتعثر ويسقط، وأما زهير ففي لحظات ينقلب من الدنيا إلى الآخرة.

المظاهر النفسية للانقلاب:

هذا الانقلاب السريع المفاجئ الحاسم يتم في جو نفسي مريح، فهو لا يرجع مكتئباً لأنه قرر أن يطلق دنياه وزوجته، وإنما يرجع مستبشراً قد أسفر وجهه:

١ـ لأنه انتصر أخيراً في صراعه مع نفسه على نفسه، فقد حاولت نفسه ان تصدّه وتمنعه عن الاستجابة للحسين ؑ فأذلّها أخيراً وانتصر عليها.

٢ـ ولأنه سلم من حالة التردد الطويل الذي كان يعاني منه.

٣ـ ولأنه وجد أخيراً عند الحسين ؑ ما يبتغيه من الاطمئنان والركون والاستقرار النفسي... إن الحياة الدنيا مهما كانت أبعادها تبقى داراً للعذاب والقلق، وأما عندما يتحرك الإنسان إلى الله فإنه يجد في حركته الاطمئنان والركون الذي يطلبه.

نماذج أخرى من مواقف زهير بعد الانقلاب:

ولكي نستكمل الحديث عن زهير نذكر مواقف أخرى له بعد هذا الانقلاب:

روى أبو مخنف ان الحسين عليه السلام لما بلغ ذا حسم خطب أصحابه، فقال: (أما بعد، فإنه نزل بنا من الأمر ما قد ترون...).

فقام زهير، وقال لأصحابه: أتتكلمون، أم أتكلم؟ قالوا: بل تكلّم. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، إلاّ أن فراقها في نصرك، ومواساتك، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها، فدعا له الحسين عليه السلام، وقال: خير)[1].

وروى أبو مخنف عن الضحاك بن عبد الله المشرقي، قال: لما كانت الليلة العاشرة خطب الحسين عليه السلام أصحابه وأهل بيته، فقال: هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً. وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فإن القوم إنما يطلبونني، فقام زهير فقال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة، وان الله يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك)[2].

١ـ إبصار العين: ٩٦.

٢ـ إبصار العين: ٩٧.

الفئات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام

دراسة وتحليل

آفاق الثورة الحسينية:

سيرة الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق وشهادته وشهادة الكوكبة التي حفت به، في الحركة إلى لقاء الله، من أهل بيته وأصحابه ... سيرة غنية بالأفكار والمفاهيم، وتتصل هذه الأفكار والمفاهيم في الغالب بحياتنا اليومية، في حقول السياسة والثقافة والعلاقات الاجتماعية.

ولذلك فهي تستحق الكثير من التوقف والتأمل والدراسة، ورغم الدراسات الكثيرة لـ(عاشوراء) فلا يزال هذا الحدث العظيم يكتنز الكثير من المفاهيم والأفكار والقيم، ويجد الباحث في(عاشوراء) أمامه آفاقاً ورؤى جديدة لم يكتشفها الباحثون والمنظرون إلى هذا اليوم.

ونحن هنا نحاول أن نلقي نظرة على الجماعات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق لإعلان الخروج والثورة على حكومة بني أمية.

تصنيف الناس تجاه الثورة الحسينية:

بإمكاننا أن نصنف الناس من حيث موقعهم من الحسين عليه السلام في عاشوراء إلى خمسة أصناف.

١ـ أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه الذين صحبوه إلى لقاء الله، وهم القمة الشامخة التي يعرفها التاريخ من التسامي والتعالي على الدنيا والتضحية والإيثار والعطاء والصمود والقيم والإخلاص.

٢ـ الفئات المعارضة التي كانت تعارض خروج الإمام إلى العراق للخروج على حكومة بني أمية، إشفاقاً على الامامعليه السلام حيناً، وتظاهراً بالإشفاق حيناً آخر.

٣ـ المتفرجون، وهم الكثرة الكاثرة من الأمة يومئذ. وقد علموا أن الحسينعليه السلام خرج على طاغية عصره، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعرفوا ما يقترفه بنو أمية من الإثم والعدوان في هذه الأمة والتبذير والبذخ في بيت المال والإفساد في الساحة، ولكنهم آثروا العافية ووقفوا موقف المتفرج ينتظرون نهاية هذا المشهد الأليم (إنا ها هنا قاعدون).

٤ـ القتلة الذين اقترفت أياديهم قتال ابن رسول الله والكوكبة الطاهرة التي رافقته إلى الله، وإذا كانت الفئة الأولى قمة في التوحيد والإخلاص والقيم والخلق والصمود والعطاء والوعي.... نجد إن هذه الفئة في حضيض السقوط والشقاء والبؤس.

٥ـ الفئة الخامسة هي التي لم تشارك في القتال، ولكنها أعلنت عن رضاها ودعمها وإسنادها للقتلة، وتنكرت لخروج السبط الشهيد على حكومة بني أمية.

وكل واحدة من هذه الفئات الخمسة تحتاج إلى دراسة دقيقة وتوقف وتأمل طويلين... ولا تقل حاجتنا إلى دراسة الفئات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة عن حاجتنا إلى دراسة الفئة الأولى. فان هذه الدراسة بإبعادها الخمسة لصيقة الصلة بحياتنا السياسية والثقافية والاجتماعية... وفيما يلي نتوقف ونتأمل في دراسة الجماعات المعارضة لخروج الحسينعليه السلام من الحجاز إلى العراق.

١. تصنيف المعارضة

دراسة الساحة المعارضة لخروج الحسين عليه السلام والمثبطين والمعارضين تعكس لنا صورة دقيقة عن الأوساط المعارضة للعمل الإسلامي والحركة والثورة الإسلامية في الساحة الإسلامية المعاصرة.

إن التثبيط نفس التثبيط، والمعارضة نفسها، وعوامل ومصادر المعارضة للثورة نفسها.

يريد الحسين عليه السلام الخروج على طاغوت عصره فيواجه مساحة واسعة من المعارضة، كما تواجه القيادات الإسلامية للثورة الإسلامية نفسها هذه المعارضة عند أي تحرك سياسي.

وأسباب هذه المعارضة وعواملها في الساحة السياسية يومذاك ثلاثة:

١ـ الحسد والضغينة.

٢ـ الضعف والجبن والتخاذل.

٣ـ الجهل وفقدان الوعي السياسي.

وسوف نذكر أمثلة على هذه العوامل الثلاثة.

العامل الأول للمعارضة: العداء والحسد والحقد.

من ابرز مصاديق هذه الحالة عمرو بن سعيد الأشدق عامل بني أمية على مكة، كتب إلى الحسين عليه السلام عندما علم بخروجه عليه السلام إلى العراق، يطلب منه ان يعدل عن الخروج ويعده بالأمان إذا عدل عن الخروج.

وعلى هذه الرسالة مسحة خفيفة من النصيحة الكاذبة، كما تستبطن الكثير من المكر والكيد والخبث والحقد.

وقد قرأ الحسين عليه السلام هذه الرسالة وردّها بأدب وصرامة وقوة كعادته عليه السلام في مواجهة أمثال هذه الحالات.

وإليك الرسالة وردّها:

يقول عمرو بن سعيد الأشدق في رسالته للإمام الحسين عليه السلام :

(إني أسأل الله ان يلهمك رشدك، وأن يعرّفك عما يُراد بك، بلغني إنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق، فإني أعيذك بالله من الشقاق، فإن كنت خائفاً فاقبل إليّ فلك عندي الأمان والصلة).

فكتب إليه الحسين عليه السلام :

(أما بعد، فانه لم يشاقق الله ورسوله من دعا الى الله عز وجل وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين. وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة فخير الأمان أمان الله عز وجل، ولم يؤمِن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانة يوم القيامة.

فان كنت نويت بالكتاب صلتي وبريّ فجزيت في الدنيا والآخرة والسلام)[١]

والذي يستعرض موقف عمرو بن سعيد الأشدق لا يشك أن الأشدق كان يدبّر للحسين عليه السلام مؤامرة يستعيد فيها الحسين عليه السلام إلى مكّة ثم يغتال الحسين عليه السلام في الحرم، حيث لا يستطيع الحسين عليه السلام أن يقاتل بني أمية.

والحسين عليه السلام لا يريد أن يقتل في الحرم مكتوف اليدين.

ولا نحتاج إلى تأمل طويل لنعرف أن أسلوب الحسين عليه السلام في الخروج

١ـ وقعة الطف المستخرجة من تاريخ الطبري تحقيق الشيخ هادي اليوسفي: ١٥٥ ط. مؤسسة النشر الإسلامي. وبلفظ قريب منه تاريخ ابن عساكر ١٣: ٧٠.

من المدينة إلى مكة على الطريق العام (الجادة الرئيسية بين مكة والمدينة) ثم مقامه في مكة بدار العباس بن عبد المطلب، ثم إعلانه للمغادرة إلى العراق، كان بهدف التعبير والإعلان عن رفضه للبيعة، ولو كان الإمام يريد ان يتجنب البيعة فقط، دون تنبيه وإلفات الرأي العام الإسلامي لهذا الموقف السياسي لما احتاج إلى كل هذه الخطوات التي كلفتّه وكلفَت أهل بيته وأصحابه كثيراً، وأثارت عليه سخط بني أمية وغضبهم، وكان بوسعه أن يعتزل بني أمية في صقع من أصقاع الأرض، من دون هذا الإعلان والإشهار.

وقد اتفقت المصادر التاريخية أن الحسين عليه السلام خرج من مكة إلى العراق يوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، عندما كان الحجاج يتوجهون إلى عرفات، استعداداً ليوم عرفة، وقد أثار خروج ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يوم التروية ـ من بين الحجاج ـ إلى العراق انتباه عامّة الحجاج الذين كانوا قد أمّوا البيت الحرام من مختلف الآفاق. فهذا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يحلّ من العمرة ويغادر مكة في وقت يتوجه فيه الحجاج إلى عرفات لأداء الحج[1].

العامل الثاني للمعارضة: الضعف عن القرار الصعب.

وهو من أقوى عوامل التثبيط. ونضرب مثلا لذلك بموقف عبد الله بن عمر من المعارضة.

ونحن لا نستطيع ان نتهم عبد الله بالمكر بالحسين عليه السلام ولكن نجد في موقفه من معارضة حركة الحسين عليه السلام علامة ضعف واضحة.

فقد كان عبد الله شخصية ضعيفة، وضعفه جرّ عليه كثيراً من الابتلاءات

١ـ في رحاب عاشوراء: ٣٥٦ـ ٣٥٧.

فقد امتنع أولاً عندما رشّح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد عن البيعة وقال: إنه لا يبايع لأميرين في وقت واحد[١].

وهو جواب ضعيف وموقفه أضعف منه فإن معاوية لم يطلب منه أن يبايع يزيد أميراً ليصح منه هذا العذر وإنما طلب منه أن يبايعه ولياً للعهد.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكّنه من اتخاذ موقف جريء تجاه البيعة ليزيد فقد كان أمر يزيد في الفسق والشرب أشهر من ان يخفى على أحد، وقد كان أولى بابن عمر ان يردّ معاوية عن هذا الأمر، ويعلن إمتناعه عن البيعة ليزيد لما يعرفه فيه هو وعامّة المسلمين من فسوق وفجور.

إلاّ أن ابن عمر لم يكن يملك هذه الجرأة والشجاعة، ولم يكن يريد ان يسرع في البيعة قبل غيره من المسلمين، فاعتذر لمعاوية بهذا الجواب الضعيف. فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم، فأخذها، فدسّ إليه رجلاً فقال له: ما يمنعك أن تبايع؟ فقال: إن ذاك لذاك (يعني ان ذلك المال لأجل البيعة) إن ديني إذن لرخيص[٢].

ولم يروِ لنا التاريخ أنه ردّ المال أو أنكر على معاوية هذا الأسلوب الملتوي الماكر في اخذ البيعة ليزيد[٣].

كما أن موقفه من الحسين عليه السلام فيه غطاء رقيق من النصح ولكن فيه أيضاً إيهام بأن خروج الحسين عليه السلام خروج عمّا دخل فيه المسلمون ،وفيه دعم

١ـ فتح الباري: ١٣: ٦٠.

٢ـ المصدر السابق.

٣ـ وارث الأنبياء: ١٥٣ ـ ١٥٤.

وتأييد لسلطان يزيد. وقد استدرج هذا الموقف عبد الله إلى دعم وتأييد يزيد بصورة تدريجية، وأدى ذلك إلى استحداث مذهب سياسي فقهي ابتدعه عبد الله ودخل هذا المذهب من خلال رواياته في الثقافة الإسلامية وهذا المذهب هو مهادنة الظالم والسكوت عنه وتحريم الخروج عليه.

فإن المعروف عن عبد الله بن عمر انه كان يرى وجوب الانقياد للحاكم، مهما كان ظلمه، ومهما بلغ جوره، واعتداؤه على المسلمين، وإعلانه للفسق والفجور، ويرى وجوب الأستمرار في الطاعة، وحرمة خلع اليد من الطاعة، وكان يسعى برأيه هذا فيما بين الناس ويروّض الناس لطاعة الخليفة الفاسق يزيد بن معاوية قبل وبعد وقعة الحرّة التي انتهك فيها يزيد بن معاوية حرمات الإسلام والمسلمين، وبالغ في سفك الدماء وانتهاك الحرمات... فاستمع إلى الحديث التالي:

روى مسلم عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**ما من نبيّ بعثه الله في أمة قبلي إلاّ كان في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل**».

قال أبو رافع: فحدّثت عبد الله بن عمر فأنكره عليّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة، فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه فلمّا جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدّثنيه، كما حدثت ابن عمر[1].

١ـ صحيح مسلم ١: ٥٠ ـ ٥١، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان . ط. دار الفكر ـ بيروت ـ.

إن من حقنا أن نسمح لأنفسنا بالشك في موقف عبد الله بن عمر من شرعية الخروج والمعارضة السياسية والمسلحة للحكام الظلمة، وفي موقفه الاستسلامي من قبل من البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية من دون اعتراض أو تردد، وفي موقفه الضعيف الأول من قبول هدية معاوية والاعتذار إليه بأنه لا يريد أن يبايع لأميرين في وقت واحد.

وإن من حقّنا أن نحتمل أن معاوية قد استطاع ان يستغل ضعف عبد الله وسذاجته أسوأ استغلال، وأن يلين عوده للبيعة ليزيد ويروّضه على ذلك بأساليبه الماكرة الملتوية المعروفة، والتي لم تخف حتى على عبد الله بن عمر نفسه، بما عرف من بساطة وسذاجة، حتى قال لرسول معاوية: (إن ذاك لذاك، إن ديني عندي إذن لرخيص)[1].

العامل الثالث للمعارضة: عدم وعي أهداف الثورة

لقد كان البعض يتصور أن الإمام الحسين عليه السلام خرج على يزيد لينتزع منه الحكم والسلطان، وليتولاه بنفسه.

فهو حقه، وليس ليزيد حق فيه. لاشك في ذلك.

وهذه كانت وجهة نظر الامام عليه السلام عندما خرج من الحجاز إلى العراق، تلبية لدعوات شيعته له، إلى الخروج على يزيد.

وكان هؤلاء يعرفون جيدا أن أهل العراق لا يفون للحسين عليه السلام بعهودهم، وسوف يتخلّون عنه، إذا جدّ الجدّ، والذين يفون له عليه السلام ببيعتهم، ويقفون معه إلى الأخير قلة لا تقاوم جيوش بني أمية... إذن الامام عليه السلام

١ـ وارث الأنبياء: ١٥٦.

يسعى بنفسه في هذه الرحلة إلى مصرعه... وكان ذلك يحزّ في انفسهم ويحزنهم، فيقبلون عليه، ويسألونه أن يكف عن الذهاب إلى العراق.

ولم يكن يخفى على الامام عليه السلام ما يعرفه هؤلاء الناصحون له، الذين لم يكن الامام يشك في صدقهم ونصحهم وحبهم.

ولا يمكن أن نتصور أن الامام عليه السلام كان يرجو فيمن يجتمع حوله من شيعته في العراق أن يقاوم بهم جيوش الشام، فضلاً عن العراق... وقد عاش الامام عليه السلام من قبل ظروف تخاذل الناس في العراق عن أبيه في صفين وعن أخيه الحسن عليه السلام بعد وفاة أبيه... فماذا يمكن أن يرجو الامام في الناس بعد هاتين التجربتين.

لقد كان الامام يطلب في خروجه أمراً آخر، يختلف كثيراً عما كان يتصور عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية رضي الله عنه ونظراؤهم من الناصحين له.

كان الامام يطلب في خروجه أن يهزّ ضمير الأمة بملحمة مأساوية تنتهي بمصرعه وبمصرع أهل بيته وأصحابه في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإنكار على يزيد وإدانته، فيرتاع الناس لذلك ويعودون إلى أنفسهم ورشدهم، ويحيي بذلك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليواجه الناس بها طغاة بني أمية ويكسر حاجز الرهبة والخوف، ويسقط شرعية الخلافة الأموية في أنظار المسلمين، ويجردها عن قيمتها الشرعية التي كان الناس يعرفونها من قبل للخلفاء.

إذن لم يكن الامام يطلب في خروجه زحفاً عسكرياً على جيش الشام وحكامها كما يصنع القادة العسكريون، ولو كان يطلب شيئاً من ذلك لكان

الحق لأولئك الذين كانوا ينصحون الامام بالامتناع عن الخروج إلى العراق.

وليس ما نقوله هنا نوع من التوجيه السياسي والثقافي لخروج الحسين عليه السلام بعد مصرعه عليه السلام الدامي في كربلاء، ومصرع أنصاره رحمهم الله، وإنما نقتبس هذا التفسير لخروجه من آخر خطاب ألقاه في الناس في مكة، عند خروجه إلى العراق حيث نعى نفسه وأهل بيته وأصحابه إلى المسلمين يومئذ.

ولا يمكن أن يقدم على هذا العمل قائد عسكري ينوي أن يخرج على طاغية عصره لينتزع منه الحكم والسلطان، ويحل محله... ان هذا الخطاب في عرف القادة العسكريين تثبيط للناس، وليس دعوة إلى الخروج على الحاكم الظالم.

ولم يكن الأمر يخفى عن الامام عليه السلام ، ولا يمكن أن يخفى عليه مثل ذلك ولكن الامام كان يطلب في خروجه أمراً آخر أعلنه، وصرّح به، ولم يتفقهه الناس من حوله يومذاك.

...هؤلاء طائفة ثالثة من المثبطين للحسين عليه السلام والمعارضين لخروجه.

ونحن لا نتهم هؤلاء بالعداوة ولا بالضعف، ويكفي ان فيهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، ومحمد بن الحنفية (رحمهم الله)... إلاّ أننا لا نشك أنهم لم يستوعبوا حركة الحسين عليه السلام ، وقضية معارضتهم كانت نابعة من هذه النقطة.

وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة، ونأتي ببعض الشواهد على هذه الطائفة من الذين نصحوا الامام عليه السلام بعدم الخروج، وعزّ عليهم أن يخرج ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مصرعه، واليك بعض النماذج من موقف هؤلاء الناصحين:

١. المسور بن مخرمة

ذعر المسور بن مخرمة[١] حينما سمع بعزم الإمام على مغادرة الحجاز والتوجه إلى العراق فكتب إليه هذه الرسالة:

(إياك أن تغتر بكتب أهل العراق، ويقول لك ابن الزبير: الحق بهم فإنهم ناصروك، إياك أن تبرح الحرم، فإنهم ـ أي أهل العراق ـ إن كانت لهم بك حاجة فسيضربون آباط الإبل حتى يوافوك، فتخرج إليهم في قوة وعدة).

ولما قرأ الإمام رسالته أثنى عليه: وقال لرسوله: «استخير الله في ذلك»[٢].

٢. عبد الله بن جعفر

وخاف عبد الله بن جعفر على ابن عمه حينما علم بعزمه على التوجه إلى العراق، وشق عليه ذلك، فبعث إليه بابنيه عون ومحمد، وكتب معهما هذه الرسالة:

(أما بعد، فإني أسألك الله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم أطفأ نور الأرض فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي والسلام).

وأسرع ابن جعفر وهو خائر القوى ذاهل اللب إلى عمرو بن سعيد حاكم مكة فأخذ منه كتاباً فيه أمان للحسين عليه السلام، وجاء مسرعاً إليه وكان معه

١ـ المسور بن مخرمة بن نوفل القرشي الزهري، ولد بعد الهجرة بسنتين، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وكان من أهل الفضل والدين، كان مع ابن الزبير فلما كان حصار مكة أصابه حجر من حجارة المنجنيق فتوفي. جاء ذلك في الإصابة ٣: ٤٠٠.

٢ـ تاريخ ابن عساكر ١٣: ٦٩، من مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

يحيى بن سعيد بن العاص، فعرض عليه الإقامة في مكة وعدم النزوح إلى العراق فلم يستجيب الإمام لـه، وأخذ عبد الله يلتمس إليه ويطلب منه أن ينصرف عن نيته، فقال الإمام:

«إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي، وأمرني بأمر لابدّ أن انتهي إليه..».

فسأله ابن جعفر عن الرؤيا، فأبى أن يحدثه بها، وقال لـه: «ما حدثت بها أحداً، وما أنا بمحدّث بها حتى ألقى الله عز وجل»[1]. وانصرف ابن جعفر وهو غارق بالأسى والشجون وأيقن بنزول الرزء القاصم وقد أمر إبنيه بمصاحبة خالهما الحسين عليه السلام .

٣. عبد الله بن عباس

وأسرع عبد الله بن عباس وهو حزين كئيب إلى الإمام، فقال لـه: (إن الناس أرجفوا بأنك سائر إلى العراق، فهل عزمت على شيء من ذلك؟).

فقال الإمام عليه السلام :

«نعم، قد أجمعت على المسير في أحد يومي هذين إلى الكوفة أريد اللحاق بابن عمي مسلم إن شاء الله تعالى».

وفزع ابن عباس فقال للإمام:

(إني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم، فإن كان قد فعلوا سرْ إليهم وإن كانوا إنما دعوك وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعمالهم تجبي بلادهم، وتأخذ خراجهم فإنما دعوك إلى الحرب، ولا آمن عليك أن يغروك، ويكذبوك، ويخذلوك، ويبيعوك،

١ـ تاريخ الطبري ٦: ٢١٩، البداية والنهاية ٨: ١٦٣، سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٣.

فيكونوا أشدّ الناس عليك).

ولـم يخـف شـيء من هذه النقاط على الإمام عليه السلام ، فقد كان على بصيرة من أمره فقال لابن عباس:

«إني أستخير الله، وأنظر ماذا يكون؟».

وأحاطـت بابـن عـباس موجـة مـن القلـق والاضطراب، فلم يمتلك نفسه، فراجع الإمام، وقال له:

(إنـي أتصبّر، ولا أصـبر إنـي أتخـوف علـيك فـي هـذا الوجـه الهـلاك والاستئصـال... إن أهـل العـراق قوم غدر فلا تقربهم، أقم في هذا البلد فإنك سيد أهـل الحجـاز، فـإن كـان أهـل العـراق يـريدوك ـ كما زعموا ـ فاكتب إلـيهم فلينفوا عاملهم وعدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلاّ أن تخرج فَسِرْ إلـى اليمـن فـإن بهـا حصـوناً، وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شـيعة، وأنـت عـن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية...).

فأخـبره الإمـام عن تصميمه على مغادرة الحجاز إلى العراق، وأنه قد بتّ بـه، فقـال لــه ابـن عـباس: (إن كنـت سـائراً فـلا تسر بنسائك وصبيتك، فإني لخـائف أن تقـتل كمـا قـتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه... لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك).

وفقـد ابـن عـباس صـبره، واندفـع إلـى الامام بانفعال قائلاً ـ حسبما يروي المؤرخون ـ:

(والله الـذي لا إلـه إلاّ هـو لو أعلم إني إن أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس أطعتني فأقمت لفعلت) ولم يخف على الإمام كل ما قاله ابـن عـباس، ولـم يكن يخفى على الإمام نصحه وصدقه في النصيحة، إلاّ أن

الإمام كان قد عزم على الخروج للدفاع عن حمى الإسلام.

وخرج ابن عباس وهو يتعثر في خطاه، قد نخر الحزن قلبه فاتجه نحو ابن الزبير فقال له:

(لقد قرّت عينك يا ابن الزبير، ثم أنشد:

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز...)[١].

إن الإمام لو كان يروم الملك والسلطان لاستجاب لرأي ابن عباس ولكنه عليه السلام كان يبتغي أمراً آخر غير ما يفهمه ابن عمه وكان يعلم أن ذلك لا يتحقق إلاّ من خلال تضحية مأساوية فهي وحدها التي تحقق ما يصبو إليه.

٤ـ أبو بكر المخزومي

وهرع أبو بكر بن عبد الرحمن المخزومي[٢] إلى الإمام فقال له: (إن الرحم يظأرني[٣] عليك ولا أدري كيف أنا في النصيحة؟ كان أبوك أشدّ بأساً، والناس له أرجى، ومنه أسمع، وعليه أجمع فسار إلى معاوية، والناس مجتمعون عليه إلاّ أهل الشام ـ وهو أعزّ منه ـ فخذلوه، وتثاقلوا عنه، حرصاً على الدنيا، وضناً بها فجرعوه الغيظ، وخالفوه حتى صار إلى ما صار إليه من

١ـ تاريخ ابن الأثير ٣: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٢ـ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي القرشي أحد الفقهاء السبعة، ولد في خلافة عمر، وكان يقال له راهب قريش لكثرة صلاته، وكان مكفوفاً، وهو من سادات قريش توفي سنة (٩٥ هـ). جاء ذلك في تهذيب التهذيب: ٢ : ٣٠.

٣ـ يظأرني: أي يدفعني عليك العطف والحنو.

كرامة الله ورضوانه... ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ـ وقد شهدت ذلك كله ورأيته ـ ثم أنت تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق، ومن هو أعدى منك، وأقوى، والناس منه أخوف، وله أرجى، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعموا الناس بالأموال ـ وهم عبيد الدنيا ـ فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحبّ إليه من ينصره، فاذكر الله في نفسك...).

وشكر له الإمام نصيحته وحبه، وعرفه أنه مصمم على ما عزم عليه، ويئس أبو بكر فانطلق وهو يقول:

(عند الله نحتسب أبا عبد الله).

وأقبل أبو بكر على والي مكة وهو يقول:

كم ترى ناصحاً يقول فيعصى ... وظنين المغيب يلقى نصيحا

فقال له:

(ما ذاك يا أبا بكر؟

فأخبره بما قال للحسين عليه السلام : فقال له: نصحت له وربّ الكعبة)[١].

٥ـ عبد الله بن جعدة

وأشفق عبد الله بن جعدة بن هبيرة على الإمام فألحق به ولده عون وبعث إليه رسالة يسأله فيها الرجوع، ويذكر فيه تخوفه في مسيره إلى العراق، فلم يستجب الامام له، وقال له خيراً[٢].

١ـ مروج الذهب ٣: ٦، الطبري ٦: ٢١٦.

٢ـ أنساب الأشراف: ق١ ج ١.

٦. جابر بن عبد الله

وخفَّ جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁ إلى الإمام وطلب منه أن لا يخرج فأبى ﵇[١].

٧. عبد الله بن مطيع

والتقى الإمام بعبد الله بن مطيع، وكان في طريقه إلى العراق، وعرف عبد الله قصد الإمام ﵇ فقال له:

(يا ابن رسول الله أذكرك الله في حرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش وذمة العرب، والله لئن طلبت ما في يد بني أمية ليقتلوك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً... والله أنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب. فالله الله لا تفعل، ولا تأت الكوفة، ولا تعرض نفسك لبني أمية)[٢].

٨. محمد بن الحنفية

وكان محمد بن الحنفية في المدينة، فلما علم بعزم أخيه على الخروج إلى العراق توجه إلى مكة[٣]، وقد وصل إليها في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها إلى العراق، وقصده فور وصوله فبادره قائلاً:

(يا أخي، إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك حال من مضى، فإن أردت ان تقيم في الحرم فإنك أعزّ من بالحرم، وأمنعهم).

١ـ تاريخ الإسلام للذهبي ١: ٣٤٢.

٢ـ وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل: ١٨٩، وحياة الإمام الحسن ﵇ للقرشي: ٢٩ ـ ٣٠.

٣ـ تاريخ الإسلام للذهبي ١: ٣٤٢.

وشكر له الإمام نصحه وقال له:

«خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية، فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت».

فقال محمد: (فإن خفت ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك أحد).

قال الحسين عليه السلام: «أنظر فيما قلت»[١].

ولما كان وقت السحر بلغه شخوصه إلى العراق وكان يتوضأ فبكى حتى سمع وقع دموعه في الطست[٢] وأسرع محمد إلى أخيه، فأخذ بزمام ناقته، وقال له:

(يا أخي ألم تعدني فيما سألتك؟).

«بلى، ولكن أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما فارقتك، وقال لي: يا حسين، اخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً».

وذعر محمد، وسرت الرعدة بأوصاله، ودموعه تنحدر على خديه وهو يقول:

(فما معنى حمل هؤلاء النساء والأطفال، وأنت خارج على مثل هذا الحال).

فأجابه الإمام بعزم وطمأنينة قائلاً:

«قد شاء الله أن يراهن سبايا»[٣].

١ـ الدر المسلوك ١: ١٠٩، وقريب من هذا الحديث ما جرى بين الإمام وأخيه حينما كان في المدينة.

٢ـ أنساب الأشراف: ق١ ج١، وفي الصواعق المحرقة: ١٧٠: أنه بكى حتى ملأ الطست من دموعه.

٣ـ الدر المسلوك ١: ١٠٩.

٩. السيدة أم سلمة(ام المؤمنين)

وفزعت أم المؤمنين السيدة أم سلمة حينما علمت أن الإمام عليه السلام قد عزم على الخروج إلى العراق، وكان في ذلك الوقت في المدينة قبل ان يتوجه إلى مكة فهرعت إليه قائلة بصوت حزين النبرات:

(يا بني لا تُحْزنّي بخروجك إلى العراق فإني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها: كربلاء، وعندي تربتك في قارورة دفعها إليّ النبي صلى الله عليه وآله).

فأجابها الإمام بعزم ورباطة جأش قائلاً:

«يا أماه، وأنا أعلم إني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء عز وجل ان يرى حرمي ورهطي مشردين، وأطفالي مذبوحين، مأسورين».

❋ ❋ ❋

هذه ثلاثة عوامل ومصادر للمعارضة: (المكر)، و(الضعف)، و(العجز في الوعي).

وقد ساهمت هذه العوامل الثلاثة في تكوين المعارضة الشديدة التي واجهها الإمام الحسين عليه السلام عند الخروج من الحجاز إلى العراق.

صنفان من الناس مع الحسين عليه السلام

وإلى جانب هذه الأصناف الثلاثة التي شكلت الجبهة المعارضة لحركة الحسين عليه السلام رحل مع الحسين عليه السلام صنفان من الناس:

الصنف الأول: نخبة من المؤمنين وعوا قضية الحسين عليه السلام وانقادوا واستسلموا له، وخرجوا معه عليه السلام من غير نقاش، ولا ترديد، ولا تشكيك، ولا اعتذار، وهم النخبة الصالحة التي ثبتت مع الحسين عليه السلام إلى الأخير وقد

غيّروا بهذا الوعي والعطاء والصمود النادر مجرى التاريخ.

والصنف الثاني: وهم طائفة من الناس حسبوا ان الحسين عليه السلام غير جاد فيما يقول من أمر الاستشهاد والموت، ويسعى إلى تحصيل الحكم والسلطان.

فلما جدّ الجد ووجدوا أن الحسين عليه السلام جاد فيما يقول تركوه وتخلوا عنه.

فلم يبق معه غير العصبة المؤمنة التي لزمته إلى آخر رمق من حياتها سلام الله عليهم.

٢ـ رأي المعارضة في خروج الحسين عليه السلام

ونقصد بالمعارضة الطائفة الثالثة التي وصفناها بالنصح والصدق.

أما الطائفة الأولى والثانية فلا رأي لهما لندرس رأيهما، فقد كان منطلق الفئة الأولى في معارضة خروج الحسين عليه السلام العداوة والحقد والمكر بالحسين عليه السلام ، وليس لهم رأي لنناقشه.

وكان منطلق الفئة الثانية الصمت والجبن والخوف من الدخول في مواجهة مسلحة ضد دولة بني أمية، ولم يكن لهم من رأي لنناقشه.

وأما الطائفة الثالثة، فقد كان لهم رأي في النصح للحسين عليه السلام والصدق في النصيحة.

وعليه سوف ندرس رأي هذه الفئة من المعارضة، وناقشها وننظر في رأي الحسين عليه السلام في نصيحة هذه الفئة من الصحابة والتابعين رحمهم الله الذين كانوا يصرون على الحسين عليه السلام أن يتراجع عن مقصده إلى العراق.

هذه الطائفة تضمّ وجوه الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية، وهؤلاء كانوا يرون أن الحسين عليه السلام لا محالة يقصد احد أمرين لا ثالث لهما:

١ـ إما أن يريد الخروج والثورة على سلطان بني أمية.

٢ـ أو يريد الهروب والتخلص من البيعة.

ولا يتصوّر هؤلاء تفسيراً ثالثاً لخروج الحسين عليه السلام إلى العراق غير هذين التفسيرين.

وخروج الحسين عليه السلام لا يصح على كل من هذين التفسيرين.

أما على التفسير الأول، فان شيعة الحسين عليه السلام في العراق لا يقاومون سلطان بني أمية وجيوشهم، وسرعان ما ينفرطون عنه، ويتخاذلون عن القتال معه، كما تخاذلوا عن أبيه وأخيه من قبل.... وهذه النتيجة المتوقعة تدعمها شواهد وقرائن كثيرة هذا عن الأمر الأول.

وأما إذا كان الحسين عليه السلام يغادر الحجاز إلى العراق ليحتمي باهله في التخلص من بيعة يزيد فإن العراق أرض مكشوفة لبني أمية، ولا يصلح لإيواء الحسين عليه السلام وحمايته ولا يصلح أهله للدفاع عن الحسين عليه السلام وحمايته.

ولو كان الحسين عليه السلام يطلب التخلص من مبايعة يزيد، فإن اليمن أصلح لأنها أرض جبلية ونائية وبعيدة عن مركز سلطان بني أمية وللحسين عليه السلام فيها شيعة أما العراق فلا يصلح لهذه المهمة كما قال له عبد الله بن عباس ذلك صراحة.

(فإن أبيت إلاّ أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي

أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة)[١].

ولـم يكـن يغيـب عـن الإمـام الحسين عليه السلام ما كان يراه، ويذكره به الكثير مـن شـيعته والناصـحين والمحبيـن له، ممن كان الإمام لا يتهمهم في النصح والصدق وفهمهم لساحة العراق.

وإذا كـان العـراق لا يصـلح لهـذا ولا ذاك فـلا محالة فإن الحسين عليه السلام لا يحقق كلا من الهدفين في العراق (إسقاط يزيد أو التهرب من بيعته).

وبالنتـيجة، فـإن الحسـين عليه السلام يلقـى مصـرعه فـي العراق على يد بني أمية علـى كـل حـال، وبمصـرع الحسـين عليه السلام تسـقط وتنـتهك حـرمة عظـيمة من حـرمات الإسـلام علـى يـد بنـي أمـية ويُجَرّأ ذلك بني أمية على انتهاك سائر حرمات الإسلام ولا يبقى أحد بعد الحسين عليه السلام تحترمه بنو أمية، وقد صرح بذلـك للحسـين عليه السلام عـبد الله بـن مطيع العدوي الذي التقى الإمام في الطريق إلى العراق على ماء من مياه العرب، فقال للإمام:

(بأبـي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أقدمك؟ فقال له الحسين عليه السلام : كتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم). فقـال له عبد الله بن مطيع: (أذكرك الله يـا ابـن رسـول الله وحـرمة الإسـلام ان تنـتهك... فـوالله لـئـن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً)[٢].

هذه خلاصة آراء الفئة الثالثة التي تميزت بالنصح للحسين عليه السلام .

١ـ الكامل لابن الأثير ٤: ٣٨ ـ ٣٩، دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٥.

٢ـ الطبري ٧: ٢٩٠. وكذلك بحار الأنوار ٤٤: ٣٧١ .

٣ـ رأي الحسين عليه السلام في الخروج

أما الحسين عليه السلام فكان يرى أمامه خياراً ثالثاً لا هو بالخيار الأول ولا هو بالخيار الثاني، ولم يكن أولئك الناصحون للحسين عليه السلام يعون هذا الخيار.

ويتلخص الرأي الذي كان يراه الحسين عليه السلام على ما نظن في النقاط التالية:

١ـ إن البقاء في الحرم المكي كما كان يقول له ابن الزبير وعمرو بن سعيد الأشدق غير صحيح إطلاقاً، فإن بني أمية يخططون لاغتياله عليه السلام في الحرم وهو لا يريد ان يقاتلهم في الحرم، وبذلك يتعرض للقتل والعدوان من قبل بني أمية وهو مكتوف اليدين وبمصرعه تنتهك حرمة الحرم.

ولذلك قال لابن الزبير: **«إن أبي حدّثني: أن بمكة كبشاً به تستحلّ حرمتها فما أحب أن أكون ذلك الكبش ولئن أقتل خارجاً عنها بشبر أحبّ إليّ ان أقتل فيها. والله لو كنت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم، والله ليعتدن عليّ كما اعتدت اليهود في السبت»**[1].

٢ـ ولا يمكن أن يغادر الامام عليه السلام الحجاز إلى اليمن ليحتمي بجبالها الصعبة عن البيعة ليزيد، فلم يكن هم الحسين عليه السلام أن يمتنع عن البيعة ليزيد فقط، لو كان يطلب الامتناع عن بيعة يزيد فقط لوسعه ذلك بأهون مما حصل له عليه السلام ، وإنما كان يريد أن يعلن للمسلمين يومئذ رفضه للبيعة... ومن يتابع مغادرة الامام عليه السلام المدينة إلى مكة على الطريق الأعظم، ومقامه

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١٦٦ .

في مكة، في دار العباس بن عبد المطلب، والإعلان عن الخروج إلى العراق، واستنصار الناس في مسيره إلى العراق، يعرف جيداً أن هم الحسين عليه السلام في هذه الرحلة، لم يكن الهروب من البيعة، ولو كان ذلك لتغاضى عنه بنو أمية وتغافلوا عنه، وإنما كان الامام يريد أن يعلن رفضه للبيعة أعلاناً عاماً، والى ذلك يشير الامام عليه السلام في كلمته المعروفة (والله لا أعطيكم بيدي أعطاء الذليل والا أفرّ فرار العبيد). ويقصد بالأول البيعة ليزيد(والله لا أعطيهم يدي) ويقصد عليه السلام بالثاني أن يغيّب وجهه عن الساحة فلا يبايع، ولا يعلن الرفض والخروج... والى ذلك يشير عليه السلام بقوله(ولا أفرّ فرار العبيد)... وعليه فلا يبقى أمام الإمام عليه السلام إلاّ الخيار الثالث وهو الخروج والمقاومة وإعلان الرفض.

ولا يمكن أن يسكت عُمّال بني أمية وجلاوزتهم عن ذلك، ولا يمكن أن يتغاضوا عنه... فهم يطلبون الحسين عليه السلام أينما يذهب حتى يتمكنوا منه فيأخذون منه البيعة أو يقتلوه.

وكان الامام عليه السلام يدرك هذا المعنى جيداً، فيقول في جواب من يطلب منه أن يتحصن ببعض شعاب اليمن من ملاحقة بني أمية.

«والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة».

٣ـ إذن لم يبق للحسين عليه السلام خيار إلاّ ان يقدم على التضحية بنفسه وأهل بيته وأصحابه في مواجهة مسلحة لبني أمية فيقتلونه لا محالة فإذا قتلوه كان في مصرعه سقوطاً لبني أمية، وكما قال عليه السلام : **«يكونوا أذلّ من فرام المرأة»**.

وأصلح أرض للخروج على بني أمية العراق لأنه مركز العالم الإسلامي

وموضع شيعته. وقد كتب إليه شيعته بذلك. وبخروجه عليه السلام يتم مصرعه لا محالة، ويكون لمصرعه عليه السلام وأهل بيته وصحبه تأثير قوي في إعادة الناس إلى أنفسهم ورشدهم ودينهم.

وكان لابدّ للناس من هزة قوية عنيفة لضمائرهم تعيد إليهم وعيهم، وإرادتهم، وقيمهم، وتشعرهم بعمق الكارثة التي حلّت بهم، وتبعث الندم في نفوسهم... وكان خروج الحسين عليه السلام ومصرعه بالصورة المفجعة التي يحدثنا بها التاريخ هو مبعث هذه الهزة العميقة في ضمائر المسلمين يومئذ.

ولقد نبّهت شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، بالطريقة المفجعة التي تمت بها، ضمائر المسلمين، وأشعرتهم بالندم، ومكنتهم من ان يستعيدوا وعيهم وإرادتهم، من جديد، فيفكروا ويقرروا مصيرهم بأنفسهم[1].

وهذا الخيار الثالث لم يدركه ابن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية والآخرون ممن كانوا ينصحون الامام عليه السلام بعدم الخروج.

ونود أن نسجل هنا ملاحظة هامة وهي أننا نحتمل أن بني أمية كانوا يعملون لمنع الحسين عليه السلام من الخروج إلى العراق وكان لهم دور غير مباشر في توجيه وتحريك هذه المعارضة، ليتقبل الحسين عليه السلام أحد الخيارين السابقين فلا يكون لموقف الحسين عليه السلام عندئذٍ خطر على سلطان بني أمية وخلافتهم في العالم الإسلامي، وكان الحسين عليه السلام واعياً للمؤامرة الأموية، ولم يمكنهم من نفسه، كما يحبون..

التوطين للموت

توطئة

التهرب من الموت

من طبيعة الإنسان ان يتهرب من الموت، ويتخذ الإنسان كافة الوسائل الميسورة والممكنة لـه في التهرب من الموت... ولما كان دفع الموت أمر غير ممكن فإن هذه المحاولة تنقلب في داخل النفس إلى محاولة التهرب من الموت إذا عجز عن دفعه في الواقع الموضوعي للحياة.

وهذا الهروب النفسي يتم على نحو تناسي الموت والهروب من ذكر الموت والتشاؤم منه، وطول الامل في الدنيا. ومن أعجب الامور ان الإنسان يحاول ان يشكك في هذه الحقيقة الحتمية الواضحة والشائعة للجميع.

عن الإمام الصادق عليه السلام: **(لم يخلق الله عز وجل يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت)**[1].

وإذا كان من غير الميسور للإنسان ان ينفلت من قبضة الموت فهو يحاول ان ينسى الموت كالنعامة تخفي رأسها في التراب وتتوهم بذلك أن الصياد لا يراها إذا كانت هي لا ترى الصياد.

١ـ من لا يحضره الفقيه ١: ١٢٤.

الآثار السلبية للتهرب من الموت

والتوطين للموت هو سر قوة الإنسان وحياته، ونقصد بالحياة الحياة الكريمة التي لا ذل فيها.

فإن أكثر ضعف الإنسان وفشله ينشأ عن التعلق بالحياة الدنيا وتتكون لديه مجموعة من الصفات الذميمة مثل: طول الامل، الحرص، البخل، الجشع، الحسد، الطمع، الكذب، النفاق، الجبن.

فيكون بهذه الصفات طويل الامل، حريصاً، بخيلاً، جشعاً، حسوداً، طماعاً، كذاباً، منافقاً جباناً.

هذه الاعراض التي تلوث الروح كلها نابعة من التعلق بالدنيا والانانية القوية وكلاهما يؤولان إلى أمر واحد.

أما عندما ينزع الإنسان (الأنا) من الدنيا أو ينزع نفسه من (الأنا) ويوطئ نفسه للقاء الله فإن أمله يقصر في الدنيا فلا يحرص ولا يبخل ولا يجن ولا يخاف.

ان لقاء الله لا يتم للإنسان إلاّ عندما ينقطع إلى الله تعالى انقطاعاً كاملاً، ويزيل ما بينه وبين الله من حجب الظلمات من الذنوب والسيئات، ومن حب الهوى والشهوات، والدنيا وسلطانها على النفس.

ولقاء الله بهذا المعنى اقصى درجات القرب إلى الله. والوصول إلى هذه الغاية لا يتم إلاّ بعد كدح طويل في تهذيب النفس وتخليصها من سلطان (الهوى) و(الأنا) ومن سلطان الدنيا وفتنها... فإن الانصراف إلى الدنيا والاقبال عليها يحجب الإنسان عن الانصراف إلى الله والانقطاع إليه والاقبال عليه[1].

١ـ في رحاب القرآن ٣: ٣٢٣، ٣٢٥.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[1].

ولا نشك في (لقاء الله) فإن القرآن أنبأنا به، ولا نجد مسوغاً من الناحية العلمية لتأويل (لقاء الله) في القرآن وفي النصوص الإسلامية بالموت، فإننا إذا استعرضنا هذه النصوص جميعاً ووضعنا بعضها إلى جنب بعض نجد أن هذه النصوص تقرر (لقاء الله) بصورة مستقلة عن الموت... فما هو (لقاء الله) وماذا تحمل هذه العبارة الجليلة الواردة في الثقافة التوحيدية من مفاهيم وأفكار وتصورات؟

إن (لقاء الله) هو شهود جمال الله وجلاله وأسمائه وصفاته الحسنى. وقليل من الناس ينعمون بهذه النعمة الجليلة، اما عامة الناس فلا يجدون سبيلاً إلى هذه الموهبة الجليلة، وتحول بينهم وبين مشاهدة الجمال والجلال الالهي حجب كثيفة من سلطان الاهواء والشهوات، وتراكم الذنوب والسيئات، وحب الدنيا وسلطانها على نفوسهم[2].

بقي ان نعرف ان الدنيا ليست مذمومة في الإسلام وإنما المذموم هو حب الدنيا، وليس على المؤمن بأس في ان يتملك من الدنيا ما رزقه الله تعالى من مصادرها المشروعة وإنما البأس في ان يتملكه حب الدنيا وبينهما فرق كبير[3].

فقد يسعى المؤمن إلى الدنيا فيصيب منها ما يشاء الله قلّ أو كثر، ولكنه لا يلهث خلف الدنيا ولا يزيده السعي إلى الدنيا طمعاً ولهاثاً من ورائها.

١ـ الانشقاق: ٦.

٢ـ في رحاب القرآن: ٣٢٢، ٣٢٣.

٣ـ المصدر السابق: ص ٣٢٥ (الهامش).

إذن الاقبال على الدنيا والاعتماد عليها، والتعلق بها يؤدي بالإنسان إلى الاعراض عن الله بدرجات مختلفة على قدر إقباله على الدنيا، وتعلقه بها، وانشداده إليها، ويؤدي به إلى ضعف الثقة بالله، وضعف التوكل على الله، وضعف اليقين بالله، وينعكس انعكاساً سلبياً على يقينه وثقته وإقباله وتوكله على الله[1].

مكافحة حالة التهرب من الموت:

إن توطين النفس للموت هو العلاج النفسي لحالة التهرب من الموت، ومعنى التوطين هو أن يعد الإنسان نفسه للموت، ويستحضر حالة الموت حتى لا يفاجئه الموت.

والتوطين للموت عملية معاكسة تماماً للتهرب من الموت. ومضمون هذا الفعل النفسي هو توقع الموت وتحضير ذكر الموت في النفس، وفي الثقافة الأخلاقية في الإسلام تسمى هذه الحالة بـ(تقصير الأمل).

وحالة قصر الامل تأتي نتيجة التركيب بين حالتين:

١ـ وعي حصار الموت.

٢ـ واستحضار ذكر الموت في النفس.

وسنتحدث عن هاتين الحالتين بشيء من التفصيل.

١. وعي حصار الموت:

إن الموت حقيقة حتمية حيث يواجه الإنسان ويحاصره ولا يمكن ان يتخلص منه أي الإنسان.

١ـ في رحاب عاشوراء: ٤٩، ٥٣.

يقول الإمام الحسين عليه السلام: (خطّ الموت على ابن آدم مخط القلادة على جيد الفتاة)[١].

وتشبيه الإمام الموت بالقلادة إشارة إلى ان الإنسان في محاصرة كاملة للموت.

وفي وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: (وإنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفوته طالبه، ولابدّ انه مدركه، فكن منه على حذر ان يدركك على حال سيئة قد كنت تحدث نفسك منها بالتوبة، فيحول بينك وبين ذلك)[٢].

وفي النهج ايضا: (أنتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وأن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلكم)[٣].

وهذه المطاردة بين الإنسان والموت يرسمها الإمام في اكثر من موضع.

يقول عليه السلام: (إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب)[٤].

والامام في ذلك تلميذ القرآن حيث يبين هذه المطاردة في اكثر من آية.

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾[٥].

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٦].

---

١ ـ مثير الاحزان: ٢٩، الملهوف:٥٢ ، كشف الغمة٢: ٢٣٩.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد١٦: ٨٩ البحار٧٤: ٢٢٤.

٣ـ شرح النهج ١٥: ١٦٣، البحار٣٣: ٥٤٥و٥٨١.

٤ـ شرح النهج ٧: ٣٠٠، البحار٣٣: ٤٥٥و٩٧: ١٤.

٥ـ الجمعة: ٨

٦ـ النساء: ٧٨.

إذن اللقاء بين الإنسان والموت أمر لابدّ منه رغم هروب الإنسان منه.

عن علي عليه السلام: (إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى)[١].

وهي صورة دقيقة ومعبرة عن لقاء الإنسان بالموت، فكلما تقدم العمر بالإنسان كان الإنسان يولد برصيد من العمر، ومهما طال عمر الإنسان فإن رصيده معدود بالسنوات والأشهر والأسابيع والأيام والساعات والدقائق والثواني.

وإذا كان عمره محدوداً فلابدّ من بلوغ اللحظة الأخيرة.

عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[٢]، تعدّ السنين ثم تُعدّ الشهور، ثم تُعدّ الأيام، ثم تُعدّ الساعات، ثم يُعدّ النفس ﴿فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٣] [٤].

وهكذا نجد ان قبضة الموت قبضة متمكنة من الإنسان ومسيطرة على كيانه.

عن الإمام الصادق عليه السلام مكتوب في التوارة:

(أبناء الخمسين زرع قد دنا حصاده، أبناء الستين ماذا قدمتم وماذا أخرتم، أبناء السبعين عدّوا أنفسكم من الموتى... إلى أن قال: أبناء التسعين أنتم أسراء الله في أرضه).

ثم قال: ما يقول كريم أسّر رجلاً، ماذا يصنع به؟

١ـ بحار الأنوار ٧٣: ١٢٨، نهج البلاغة: الحكمة ٢٩.

٢ـ الجمعة: ٨

٣ـ الاعراف: ٣٤.

٤ـ فروع الكافي ٣: ٢ ـ ٢٦.

قلت: يطعمه ويسقيه.

فقال: ما ترى الله صانعاً بأسيره[١].

والإنسان في آخر عمره يكون أسيراً لله لأنه يكون في قبضة الأجل، ويكون أسير الامراض، وأسير الضعف والعجز، وعندما كان شاباً كان طليقاً وكان بينه وبين الموت فاصلة، إلاّ ان العمر والامراض ضيّقوا عليه الدائرة وحشروه في زاوية ولا يعلم متى ينقضّ عليه الأجل.

والأجل يحاصر الإنسان ويضيق على الإنسان الدائرة حتى يحشره في دائرة ضيقة ثم ينقض عليه.

إن الموت مظهر لصفة القهر الإلهي، ومعبر عن حتمية القهر الإلهي، وهذه الحتمية والقهر والحصار والإلهي هو الذي يعبر عنه الإمام الحسين عليه السلام بـ(خطّ الموت على ابن آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (أفضل العبادة ذكر الموت، وأفضل التفكر ذكر الموت، فمن... ذكر الموت وجد قبره روضة من رياض الجنة)[٢].

وروى بعضهم ان رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال: شوبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللذات. قالوا: وما مكدّر اللذات؟ قال: الموت[٣].

وعن علي عليه السلام: (أوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم... فكفى واعظاً بموتى عاينتموها)[٤].

١ـ بحار الأنوار ٦: ١٣٦ ح ٣٩.

٢ـ بحار الأنوار ٦: ١٣٧.

٣ـ تنبيه الخواطر: ٢٢٣.

٤ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٨.

وعن رسول الله ﷺ: (اذكروا هادم اللذات). فقيل: وما هو يا رسول الله؟ فقال: (الموت، فمن ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلاّ ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلاّ اتسعت عليه... والموت أقرب الاشياء من بني آدم وهو يعده أبعد فما أجرأ الإنسان على نفسه)[١].

٢. استحضار ذكر الموت في النفس:

عن علي عليه السلام: (من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير)[٢].

وعن رسول الله ﷺ: (اذكروا هادم اللذات).

فقيل: وما هو يا رسول الله؟ فقال: (الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلاّ ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلاّ اتسعت عليه)[٣].

إن الموت يهدم كل لذات الإنسان لأنه يسلب الإنسان مصادر هذه اللذات، يسلبه المال والبنين والازواج والمناصب هذه اللذات يسلبها الموت جميعاً من الإنسان فيهدم بذلك جميع لذّاته.

ثم تذكر الرواية حقيقتين متقابلتين:

(فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلاّ ضاقت عليه الدنيا ولا في شدة إلاّ اتسعت عليه).

إذا ذكر الإنسان الموت في سعة الدنيا ضاقت عليه هذه الدنيا وذهب عنه طيشه وغروره وهدم ذكر الموت لذة الدنيا عنه، لأن ذكر الموت يسلبه التعلق بالدنيا ولذّاتها، وإذا ذكر الموت في ضيق وشدة، إلاّ اتسعت عليه

١ـ بحار الأنوار ٦: ١٣٣.

٢ـ بحار الأنوار ٦: ١٣٦.

٣ـ بحار الأنوار ٦: ١٣٣.

الشدة لان ذكر الموت يهون عليه أمر الدنيا فتهون عليه شدائد الدنيا.

والموت أقرب الاشياء لانه قد يكون في لحظة واحدة وهو يراه أبعد الاشياء.

وقوله ﷺ: فما أجرأ الإنسان على نفسه، يشير إلى جرأة الإنسان في علاقته بنفسه لأنه يخدعها ويغرّها ويغشها، فيصوّر لنفسه البعيد قريباً والقريب بعيداً.

هذه الحالة النفسية والهروب النفسي من الموت ومحاولة تناسي الموت والتغافل عن الموت هي حالة (طول الامل) التي هي إحدى اثنتين هما أخوف ما يخاف رسول الله ﷺ منهما على المسلمين: (**اتباع الهوى وطول الامل**)[1].

وعن الصادق عليه السلام: (**ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله...**)[2].

كلمات الحسين عليه السلام في التوطين للموت

الكلمة الأولى:

قول الحسين عليه السلام: (**خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة**).

والحسين عليه السلام يقرر بذلك حقيقتين في هذه الكلمة:

الحقيقة الاولى: إن الموت أمر لا مفر منه، فهو يطوّق الإنسان ويحاصره، يقول تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾[3]. فلا ملجأ للإنسان من الموت.

١ـ كنز العمال١٦: ٢٠٣.

٢ـ بحار الأنوار ٦: ١٣٣.

٣ـ النساء: ٧٨.

والموت ـ كما تقدم ـ من مظاهر قهر الله تعالى للإنسان.

فإن من صفات الله القاهرة (المميت)، وحتى الدعاء والالتماس من الله ينقطع بالموت.

وان الاجل الذي يحلّ على الإنسان يدركه ولو كان في مضجعه، وما أكثر الناس الذين ماتوا في مضاجعهم الوثيرة، وما أكثر الذين سلموا من الأخطار كالامراض والحروب.

إذن الحقيقة الاولى في قول الحسين عليه السلام هي حتمية الموت وقهره للإنسان ومحاصرته له، وأثر هذه الحقيقة هو توطين النفس للموت.

وتوطين النفس يخفف على الإنسان وقع الموت كثيراً حيث يصبح الموت أمراً ينتظره ويتوقعه ولا يثير ذكره الفزع والخوف.

الحقيقة الثانية: إن الموت تكريم للإنسان وزينة للإنسان وهو نقلة للإنسان إلى حياة أفضل من الدنيا البائسة.

يقول الحسين عليه السلام: (مخطّ القلادة من جيد الفتاة).

إن القلادة على جيد الفتاة والاغلال على عنق المجرمين لهما أثر واحد وهو محاصرة العنق، ولكن القلادة زينة والاغلال إذلال.

والاسلام ينزع المعاني السلبية والسيئة من الموت ويعطي للموت صورة مشرقة (لقاء الله)، لكي يصبح الموت أمراً محبباً إلى نفس الإنسان.

بعكس الجاهلية التي تكرّه الموت للإنسان لأنها تشدّ الإنسان إلى الدنيا وتزيد من تعلقه بها.

والتصور الإسلامي للموت وكذلك التصور الجاهلي كلاهما حق، فإن حلاوة الموت ومرارته لها علاقة مباشرة بعمل الإنسان.

فإذا أحسن الإنسان عمله فالموت يكون بالنسبة له نقلة إلى حياة أفضل.

يقول الامام السجاد عليه السلام في مناجاته: (وأصلح لي آخرتي فإنها دار مقرّي واليها من مجاورة اللئام مفرّي).

والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران. فإذا أساء الإنسان عمله فالموت يكون أمراً مبغوضاً لديه، وإنما يكره المنافقون الموت لسوء أعمالهم.

يقول تعالى: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

والحسين عليه السلام يقرر هاتين الحقيقتين في الموت وهما: إن الموت أمر لا مفرّ منها، فلابدّ من توطين النفس له، والموت زينة للإنسان وجمال للإنسان.

الكلمة الثانية:

عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: (خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً وما ارتحل منه إلاّ ذكر يحيى بن زكريا وقتله).

وقال يوماً: (ومن هوان الدنيا على الله عز وجل ان رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل)[2].

وان هناك شبهاً عظيماً بين مقتل يحيى بن زكريا عليه السلام ومقتل الحسين بن علي عليه السلام:

١ـ إن الجريمة ـ جريمة القتل ـ تقع في الصالحين لأهداف سياسية، وهذه مرحلة من الجريمة كما قتلوا الحسين عليه السلام.

١ـ الجمعة: ٧.

٢ـ بحار الأنوار ٤٥: ٩٠.

٢ـ أحياناً يتجاوز هذا الحد ويصل إلى حد التشفي والحقد وذلك كما سحقوا وداسوا صدر الحسين عليه السلام بسنابك الخيول وحرقوا خيام الحسين عليه السلام.

٣ـ وأحياناً يتجاوز هذا الحد ويصل إلى حد الاستهتار بحرمات الله تعالى، كما أخذوا رأس الحسين عليه السلام ووضعوه في طست من ذهب بين يدي يزيد في مجلسه وأخذ يزيد يقرع بخيزران معه ثنايا الحسين عليه السلام.

وفي قصة يحيى بن زكريا أهدي رأسه عليه السلام إلى بغية من بغايا بني إسرائيل.

ولا أعلم ماذا في هاتين الحادثتين من التشابه والاستهتار بحرمات الله تعالى. فإن الجريمة بلغت في كلتا الحادثتين أقصاها، فلابدّ ان تكون درجة السمو في كلتا القصتين ايضا أقصى درجات السمو، وبالتالي فإن هاتين الحادثتين تمثلان من التاريخ آخر درجات الانحطاط في حياة الإنسان وأسمى درجات التعالي والسمو ايضاً.

مناقشة المواقع الثلاثة على خارطة الصراع

مواقع الناس على خارطة الصراع

للناس على خارطة الصراع ثلاثة مواقع:

موقع الولاء والبراءة: وهو الموقع المتقدم على هذه الخارطة، وأصحاب هذا الموقع يقفون في الصف الأول من مواجهة العدو، وبطبيعة الحال يملكون في ساحة المواجهة رؤية واضحة وموقعاً واضحاً.

موقع المتخلفين: وهو موقع المتفرجين على ساحة المعركة، وهؤلاء يقفون بعيدين عن خط المواجهة، ويحرصون إلا يصيبهم بأس أو ضر من ساحة المعركة، وفي الغالب يرصدون نتيجة المعركة، ليعلنوا هويتهم بصورة مكشوفة بعد انكشاف نتيجة المعركة.

موقع العداء والبراءة والمحاربة من الجهة المقابلة.

الفئتان المتحاربتان:

والموقع الأول والثالث هو الذي يدفع ضريبة المواجهة من طرفي (الحق) و(الباطل)، فان لموقع المواجهة من معسكر (الحق) ضريبة، كما أن لموقع المواجهة من معسكر الباطل ضريبة، ولكل منها هزيمة وفوز، وانسحاب وتقدم، ولله تعالى سنن ثابتة ومحكمة في هذا وذاك، والحرب بينهما سجال، فقد يفوز الحق وقد يفوز الباطل، وقد ينهزم هذا الجانب، وقد

ينهزم الجانب الأخر، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1]، ولكن هناك حقيقتين ثابتتين لا تتغيران، هما أن الجانب الأول يعرج إلى الله في هذه الحركة والجانب الثاني يسقط إلى الشيطان. أولهما إلى الجنة وثانيهما إلى النار. وهذه هي **الحقيقة الأولى**.

والحقيقة الثانية: أن العاقبة للمتقين، وهم الذين يرثون الأرض في نهاية الشوط، ويكسبون نتيجة المعركة. وأن مآل المعركة لصالح جبهة التوحيد والعدل دائماً. وهاتان حقيقتان لا تتغيران، مهما تغيرت ظروف المواجهة والصراع.

الفئة الوسطى:

أما الفئة الوسطى (المتخلفون) فهي فئة معقدة شديدة التعقيد. ولها قوانين وسنن تخصّها، ونحن نستعرض جملة من هذه السنن بإيجاز:

أن موقع (التخلّف) يتميز بسهولة الانزلاق إلى الموقع المقابل المعادي للحق. وقلّما يتفق أن يصعد الإنسان من موقع التخلف إلى الموقع الأول، (موقع التصدي لمواجهة الباطل)، وأكثر ما يقع لصفوف المتخلفين هو الانزلاق من موقع التخلّف إلى الموقع المناوئ للحق.

أن موقع التخلف يُطْمِعُ الأعداء، فهو موقع ضعف، وليس بموقع قوة، والموقع الضعيف يغري الأعداء دائماً.

أن جدار الموقع الأول رفيع ومنيع، يحجز الأعداء ويعجزهم، وجدار الموقع المتخلف واطئ يغري الأعداء بالتسلق.

---

١ ـ آل عمران: ١٣٠.

إن هـذه المنطقة منطقة مكشوفة للأعداء، يسهل غزوها و الاستيلاء عليها من جانب العدو، فهي معرّضة دائما للغزو والعدوان .

الخطاب الحسيني للجيش الأموي يوم عاشوراء

للإمام الحسين عليه السلام خطاب إلى جيش ابن زياد يوم عاشوراء وهو خطاب دقيق ويحتاج إلى توقف وتأمّل... وسبق أن تحدثنا عن هذا الخطاب سابقاً، إلا إننا سوف نتحدث في هذا الخطاب في سياق التعريف بالفئة المتخلفة وما يؤول إليه امرهم من الانزلاق إلى جانب الأعداء.

فقد كان الجيش الأموي الذي خرج إلى قتال الحسين عليه السلام في كربلاء، جلّهم، ممن كان يسكن الكوفة، وكانت الكوفة عاصمة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام... وكان هؤلاء، الكثير منهم، ومن قادتهم ممن قاتل أهل الجمل وبني أمية مع الإمام علي عليه السلام في (الجمل) و(صفين) و(النهروان) ثم غمدوا سيوفهم، وأحجموا عن القتال إلى جانب الإمام الحسين.

فكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يناديهم ويدعوهم إلى الخروج لأنهاء فتنة بني أمية فيحجمون عن الاستجابة له، حتى كان يقول لهم: «يا أشباه الرجال ولا رجال... لوددت أني لم أركم، ولم أعرفكم... قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيضاً... وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان...»[1].

(ويقول): «إذا أمرتكم بالسير اليهم في أيام الحر، قلتم: هذه حمارّة القيظ، أمهلنا يُسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير اليهم في الشتاء، قلتم:

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٧٥ دار احياء الكتب العربية بتحقيق محمد ابو الفضل.

هـذه صـبارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنا البرد، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فانتم والله من السيف افر»[١].

ثم لما تولى الإمام الحسن عليه السلام الأمر بعد أبيه، انفرطوا عنه، وأبقوه وحده، مع زمرة قليلة ممـن يتبعه حتى اضطر إلى قبول الهدنة مع معاوية، وتجرع مرارة الهدنة مع بني أمية.

فلمـا آل الأمـر إلـى بنـي أمية بشـكل كـامل أرغمهـم معاويـة على قبول ولايته وحكمـه والدخـول في سلطانه وقبلوا ذلك راغمين، ثم تدرّج أمرهم فـي الانـزلاق مـن الموقـع الوسـط إلـى موقـف العـداء لاهـل البيـت عليهم السلام أن خـرجوا لقتال الحسين عليه السلام في عهد يزيد، الموقف الذي اخبر عنه الفرزدق، عـندما سأله الحسين عليه السلام عن خبر الناس خلفه، فقال: (قلوبهم معك وسيوفهم عليك)... فقد استل يزيد بن معاوية السيوف التي غمدها أصحابها عن القتال مع علي عليه السلام ... استلها هذه المرة لقتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ونجل علي وفاطمة فـي كربلاء، وسرعان ما تبعت قلوبهم سيوفهم، ولم تطل لهم حالة الانشطار بيـن القلـوب والسـيوف، فتوافقـت قلوبهـم وسـيوفهم لقتال آل علي عليه السلام في كربلاء.

...هـؤلاء الذيـن غمدوا سيوفهم إلى جانب عليّ عليه السلام عن قتال معاوية، ثم شـهروا سـيوفهم لقـتال آل علـي عليه السلام مع ابن زياد في كربلاء ... أقول: هؤلاء هم الذين يخاطبهم الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بهذا الخطاب المشجي، الحزين، المفجع.

١ـ المصدر السابق.

يا حسرة على العباد!!

لقد ناداهم علي عليه السلام حتى بحَّ نداؤه، فلم يستجيبوا لقتال أعدائهم من آل أمية، فآل أمرهم إلى أن يقفوا مع أعدائهم من آل أمية لقتال أوليائهم من آل علي عليه السلام، من غير أن يتغير شيء في الخارطة السياسية يومئذ، فلم يزل بنو أمية أعداء الناس يقهرون الناس ويذلّونهم، ويحكمونهم بالإرهاب والتجويع والإذلال[1]، ولم يزل آل عليّ عليه السلام أولياء الناس وأولياء هذا الدين الناصحون له، يدفعون عنه التحريف والتبديل، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

...هؤلاء الناس، يخاطبهم الحسين عليه السلام في كربلاء، يوم عاشوراء بهذا الخطاب المؤثر الحزين، فلنستمع إلى الحسين عليه السلام، يخاطب أولئك الناس الذين وقفوا مع ابن مرجانة لقتاله وقتال أنصاره، يقول لهم:

(تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، وبؤساً لكم، أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين[2] سللتم علينا سيفاً لنا في ايمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل افشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم... فسحقا لكم يا عبيد الامة وشذاذ الاحزاب... ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون، اجل والله غدر قديم، وشجت عليه أصولكم، وتآزرت عليه فروعكم،

١ـ راجع فصول الكتاب الأول من هذا المسلسل (وارث الأنبياء) لتعرف دور بني أمية في الإفساد في دين الله وأمة رسول الله صلى الله عليه وآله من أمهات المصادر التاريخية.

٢ـ تواترت كتب أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام ليقدم عليهم بعد هلاك معاوية، فيقاتلون معه بني أمية، ليعيدوا الحق إلى أهله ونصابه فاستجاب لهم الإمام الحسين عليه السلام وقدم عليهم من الحجاز إلى العراق.

فكنتم أخبث ثمر، شجي للناظر، واكلة للغاصب)[1].

والآن نتوقف عند جُملَ هذا الخطاب العجيب، جملة بعد جملة:

السيف الذي سله رسول الله والنار التي فجرها ﷺ

يقول عليه السلام:

(سللتم علينا سيفا لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم).

فهذا السيف الذي سلّه رسول الله ﷺ، وشهره في وجوه أعداء الناس قد غمده الناس في أيام عليّ والحسن عليهما السلام، فلم يستجيبوا لدعوة الإمامين علي وابنه الحسن عليهما السلام للحرب، إلا بمشقة وصعوبة وبطئ، فلم يبق هذا السيف طويلاً في غمده، وإنما استله معاوية وإبنه يزيد، ولكن على أولاد علي وشيعته هذه المرة.

فإن السيف لن يبقى في غمده طويلاً. وهذا هو الذي يشير إليه الفرزدق عندما سأله الحسين عليه السلام عما راءه في العراق فقال: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»، فإن السيف الذي غمده الناس أيام علي والحسن عن محاربة معاوية سله يزيد بن معاوية لقتال الحسين عليه السلام.

أن مساحة الصراع ترفض الذي يقفون موقف المتفرجين على المعركة، ويطلوّن على الساحة من بعيد، فتجرهم ساحة الصراع إلى جهة الباطل، رغماً عنهم، إذا امتنعوا عن الاستجابة لدعوة الحق والوقوف إلى جنب الحق طوع إرادتهم.

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٦، تاريخ ابن عساكر ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: ٢١٦، بحار الأنوار ٤٥: ٨، العوالم ١٧: ٢٥١، الاحتجاج ٢: ٢٤.

ولقد كانت تلك الطفلة الصغيرة من بنات الحسين عليه السلام أوعى من حميد بنت قحطة (راوية الطف) .... عندما وجد تلك الطفلة التائهة من بنات الحسين تركض في الصحراء عشية عاشوراء وهي عطشى، فقالت له يا شيخ: (لنا أم علينا) فقال لها: (لا لكم ولا عليكم).

فليس من الممكن أن يبقى الإنسان طويلاً، لا للحق ولا على الحق، فان لم يكن للحق فسرعان ما ينزلق إلى جبهة الباطل.

ولقد أدركت تلك الطفلة الصغيرة بحسّها المرهف وفطرتها السليمة أن موقف الناس لا يمكن أن يخلو من واحد من اثنين، إن كان في البدء أو في العاقبة، إما أن يكون لهم أو عليهم.

إذن النتيجة التي ننتهي إليها: أنّ الإنسان ينزلق بسبب (الضعف) و(الجبن) و(الجزع من الموت) إلى موقع التخلف، ومن هذا الموقع ينزلق الإنسان مرة أخرى إلى موقف العداء والمجابهة للحق.

مبدأ ثنائية الموقف

إذن المواقع الحقيقية على ساحة المعركة إثنان، وليست ثلاثة، كما يقول الناس، وينشطر الناس، كل الناس إلى هذين الموقعين في أيَة معركة حضارية بين الحق الباطل.

وذلك إمّا لأنّ المواقف المتخاذلة للمتفرجين على ساحة المعركة تؤول في نهاية الشوط إلى موقف العداء والمجابهة، وينزلق المتخلفون إليه، أو لأن (الولاء) و(البراءة) بمعنى (الطاعة) و(العصيان). إذا فسرنا الولاء والبراءة بالطاعة والعصيان ولا نكاد نجد بين الولاء والبراءة برزخاً فاصلاً ليس هو بالولاء ولا بالبراءة، فانّ الذي لا يطيع دعوة الحق يكون عاصياً له، لا محالة.

ولذلك كان الإمام الحسين عليه السلام يحرص على أن يبتعد عنه المتخلفون الذين كانوا يضمرون الحب للحسين عليه السلام في قلوبهم، ولكن كانوا يؤثرون العافية لأنفسهم، ولا يريدون أن يدخلوا فيما دخل فيه الحسين عليه السلام من مواجهة وصراع مع بني أمية.

روت جرداء بنت سمين عن زوجها هرثمة بن أبي مسلم ، قال: غزونا مع علي عليه السلام صفين، فلما انصرفنا نزل كربلاء، فصلى بها الغداة، ثم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: (واها لك أيتها التربة، ليحشرن منك أقوامٌ يدخلون الجنة بغير حساب).

فرجع هرثمة إلى زوجته، وكانت شيعة لعليّ عليه السلام، فقال: ألا أحدثك عن وليك أبي الحسن؟ نزل بكربلاء، فصلّى ثم رفع إليه من ترابها، فقال: (واهاً لك أيتها التربة ليحشرن منك أقوام يدخلون الجنة بغير حساب).

قالت: أيها الرجل إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل إلا حقاً.

فلما قدم الحسين عليه السلام، قال هرثمة كنت في البعث الذين بعثهم عبيدالله بن زياد لعنه الله، فلما رأيت المنزل والشجر ـ ذكرت الحديث ـ ، فجلست على بعيري، ثم صرت إلى الحسين عليه السلام، فسلّمت عليه، وأخبرته بما سمعت من أبيه في ذلك المنزل الذي نزل فيه الحسين عليه السلام.

فقال: معنا أنت أم علينا؟

فقلت: لا معك ولا عليك، خلّفت صبية أخاف عليهم عبيد الله بن زياد.

قال: (فامض، حيث لا ترى لنا مقتلاً، ولا تسمع لنا صوتاً، فوالذي نفس حسين بيده، لا يسمع اليوم واعيتنا أحد، فلا يعيننا إلا أكبّه الله لوجهه في جهنم)[1].

١ـ أمالي الصدوق: ١١٧، تاريخ ابن عساكر(ترجمة الإمام الحسين عليه السلام:٢٢٥)، موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٣٧٩.

وأتصور أن الأمر بحاجة إلى مزيد من التوضيح لنثبت مبدأ (ثنائية الموقف)، وننفي مبدأ (تثليث الموقف السياسي).

لنفترض أن حرباً وقعت اليوم بين دولة وأخرى فانه من الممكن أن تقف دولة ثالثة لا شان لها في هذه الحرب موقفاً محايداً وسطاً، لا تميل فيه إلى أي من الدولتين المتقاتلتين، وليس من حقهما أن تطالبا الدولة الثالثة بتصنيف موقعها السياسي من هذا الصراع، فلا شان لها في هذه الحرب الدائرة بين هذين الطرفين.

ولكن المواطن الذي يعيش في كل من هاتين الدولتين إذا تخلّف عن ساحة المواجهة، ووقف موقف المتفرج من المعركة الدائرة بين بلده وبلد آخر، يرفع القانون عنه (حق العصمة)، ويتعرّض لعقوبة القانون، ولا يسمع القانون منه عذراً في ذلك، أن القانون في كل من البلدين يعتبر الفرد من هذا البلد أو ذاك مشمولاً بقانون الولاء لهذا البلد أو ذاك، فـ(التخلف) عن حضور المعركة (مخالفة)، والمخالفة ترفع عن صاحبها عصمة القانون.

نعم إذا ألغينا عنصر (الولاء) من ساحة الصراع، ولم تكن العلاقة التي تربط عناصر الساحة بعضهم ببعض عنصر (الولاء) فإن من الممكن تثليث الموقف، فتكون هناك ثلاثة مواقف، وليس موقفان.

ففي الساحة الدولية ـ مثلاً ـ لا توجد علاقة ولاء بين دولة ودولة أخرى، وطبيعة العلاقة الدبلوماسية والسياسية بين الأنظمة في العالم ليس من نسيج الولاء والبراءة، ولذلك فان من الممكن توزيع مواقع الأنظمة من ساحة المعارك الدولية، كالحرب العالمية الأولى والثانية إلى ثلاثة مواقع، وليس إلى موقعين: (الجبهتين المتقاتلتين)، والطرف المحايد في المعركة ... وعلى

هذه الطريقة جرى تاريخياً توزيع المواقع الدولية على خارطة الصراع والحرب في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

إلا أن الذي يصح بين الأنظمة والدول في العالم لا يصح في داخل النظام الواحد بين النظام والمواطنين، فان كل نظام يفترض أن تكون العلاقة بينه وبين المواطنين (علاقة ولاء)، ولذلك لا يسمح النظام للمواطن أن يقف موقف المتفرج من ساحة المعركة، إذا نشبت معركة بينه وبين نظام آخر، ولا يسمح بوجود نقطة ثالثة على ساحة المعركة، فإما أن يقف المواطن إلى جنب النظام، أو يدرج اسمه وموقعه في قائمة المعارضين لذلك النظام والدولة.

والناس في داخل أي نظام ينشطرون إلى شطرين اثنين فقط: مسالم وهو الذي يعطي ولاءه للنظام ومتمرد على سيادة النظام، وهو الذي يحجب ولاءه عن النظام، وليس من موقع ثالث.

وفي زيارة (الجامعة) المعروفة تتجلّى هذه الحالة الثنائية في ساحة الولاء والبراءة، وعلى خارطة الصراع بصورة واضحة ... ففي هذه الزيارة تجد هذه الفقرة الدقيقة: «فمعكم معكم، لا مع عدوكم». ومعنى ذلك أن موقف الإنسان المسلم تجاه أهل البيتعليهم السلام لا يكون إلا واحداً من اثنين، إما أن يكون معهم أو يكون عليهم، وليس هناك من موقع ثالث على الإطلاق، لا لهم، ولا عليهم.

عودة إلى خطاب الإمام الحسينعليه السلام:

يقولعليه السلام لجند ابن زياد يوم عاشوراء: «وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم».

ومن اجل أن نفهم هذا الخطاب الحسيني فهماً أفضل، نتساءل:

ما هي هذه النار التي يتحدث عنها الإمام الحسين عليه السلام؟

ومن أين اقتدحوها؟

ومن الذي اقتدحها؟

ثم بباب من أوقد الناس هذه النار؟

وأي دار احرق الناس بهذه النار؟

هذه أربعة أسئلة تطلب الجواب، ولننطلق في الحديث عن هذه الفقرات من كلام الحسين عليه السلام من هذه الأسئلة الأربعة.

النار التي يتحدّث عنها الإمام عليه السلام هي القوة الماردة التي انطلقت من جزيرة العرب إلى ساحة الحضارة الإنسانية على وجه الأرض، لتحرق عروش الظالمين، وقلاعهم وقصورهم وتدّمر قواعد ملكهم وسلطانهم، لتحرير المستضعفين والمحرومين على وجه الأرض، بهذه النار فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها، وأحرقوا الحضارات الجاهلية، وأسقطوا الأوثان والطغاة.

وهي من اغرب ما يعرفه الإنسان في التاريخ.

فقد كان العرب قوماً معزولين عن ساحات الحضارة المعاصرة لهم يومذاك لا يصلون اليها بسبب، اللهم إلا ما كان من رحلة الشتاء والصيف، وكانت طبيعة الصحراء تفرض عليهم هذه العزلة.

وتصف الزهراء عليها السلام حالهم قبل الإسلام، فتقول:

«وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطأ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد والورق، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي

بمحمـدﷺ بعـد اللتـيا والتي،وبعد أن مني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾»(١).

فـانطلق هـؤلاء العـرب ـ بـالذات ـ مـن عمـق الصحراء، بالإسلام، ليقوموا بـأعظم انقـلاب حضـاري فـي تاريخ الإنسان، وليغيروا مسار حركة التاريخ، ولـيحولوا القوّة والسلطان من محور الطغاة الجبارين إلى محور المستضعفين والمحرومين، ومن محور التمرد على الله، إلى محور التسليم لأمر الله.

مـن أيـن اقـتدح رسول اللهﷺ هذه النار الحارقة والمضيئة؟ اقتدحها من عمق فطـرة هـؤلاء الـناس الذيـن كانوا يعيشون الحياة الجاهلية، ومن ظلمات هذه النفوس الغارقة في الجاهلية، وتلك كانت من أعظم معجزات هذا الدين.

مـن هـذا الشـعب الضعيف والمعزول، استخرج الإسلام هذه القوة، وهذه الـنار الحارقة وهذه الغيرة والشجاعة، وهذا الغضب الذي انصبّ على الطغاة والجبارين، والرحمة التي نزلت على المحرومين والمستضعفين.

أن وقود هذه النار كان في ظلمات الجاهلية، في تلك الكتلة البشرية التي كانت تعيش في عمق الصحراء.

وعلـى يـد هـؤلاء المعزولين في عمق الصحراء، بالذات، سقطت حضارة الفـرس والروم، ومن هؤلاء بالذات اختار الله تعالى للناس على وجه الأرض أئمة وقادة وسادة.

فـيا تـرى مـاذا أودع الله تعـالى فـي عمـق هـذه الـنفوس مـن كـنوز القيم والشـجاعة، والغـيرة، والغضـب، والـرحمة، والوعـي، والإبـداع، والإيـثار،

١ـ الاحتجاج ١: ٢٦٠، بحار الانوار٢٩: ٢٢٤ ، دلائل الامامة للطبري: ١١٤، شرح الاخبار للقاضي المغربي٣: ٣٥، الشافي ٤: ٧٢.

والإيمان، والإخلاص؟

وماذا يُهدْر الإنسان من هذه الكنوز التي أودعها الله تعالى في عمق فطرته عندما يستسلم للأنظمة والحضارات الجاهلية؟

والسؤال الثالث: من هو الذي اقتدح هذه النار؟

اقتدحها رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين من أهل بيته، وأصحابه، وكما يقتدح الإنسان النور من الصخرة المعتمة، وكما يستخرج الإنسان الحرارة والنور من الحطب البارد المعتم كذلك، اقتدح رسول الله ﷺ من ظلمات هذه الجاهلية هذا النور والنار وهذا الوهج والألق.

وان الإنسان لينظر إلى قطعة الصخرة المعتمة، والى قطعة الخشب الباردة. فيقول أن لا نور في هذه ولا نار في تلك، ولكن المهندس الخبير يعرف ماذا أودع الله تعالى في هذه وتلك من نور ونار.

وكذلك اقتدح رسول الله ﷺ من هذه الظلمات نوراً وناراً، أشرقت الأرض بهما في مشارقها ومغاربها.

وان الإنسان ليجهل، فيما يرى من ظاهر هذا الإنسان، ما أودع الله في عمق نفسه من وعي وقوة وقيم ومظهر، فلا يرى في هذا الإنسان غير البؤس والفقر والشقاء فيصيبه اليأس من إصلاح هذا الإنسان.

وأخر، ينفذ نظره في العمق، فيرى ما وراء هذا البؤس والشقاء والفقر الذي يطفح على ظاهرة الإنسان، كنوزاً من المعرفة والوعي والغيرة، والشجاعة، والقيم، فيمتلئ ثقة، واملأ في استخراج هذه الكنوز وتفجير هذه الطاقات.

والفارق بين هذا وذاك: (النظر والرؤية).

فمن الناس من لا ينفذ صبره إلى ما وراء السطح الظاهر من (الإنسان)، ومن الناس من ينفذ نظره إلى العمق.

ولقد آتى الله تعالى رسوله من البصيرة بالإنسان ما استطاع بها أن يكتشف في عمق أولئك العرب في حياتهم الجاهلية الأولى هذه الكنوز من المعرفة واليقين وهذه الكنوز من القيم، والشجاعة، والقوة، فاقتدحها واستخرجها، وفجّرها، وحرق بها القلاع والقصور، وحرّر بها المحرومين والمستضعفين على وجه الأرض.

ثم ماذا كانت عاقبة هذه الانطلاقة الجبارة؟ وماذا آل إليه أمر هذه النار الحارقة؟

لقد أحرق الناس بهذه النار دار أهل بيت رسول الله ﷺ الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

لقد وضع الناس هذه القوة، وهذا السلطان، وهذا النفوذ، وهذا المال، وهذه الامكانات الضخمة في خدمة بني أمية أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته في الجاهلية والإسلام، فاستخدموها في محاربة علي والحسن والحسين، أهل بيت رسول الله ﷺ والسائرين على هدى رسول الله ﷺ من بعده.

فأي حق أضاع الناس في هذا الانقلاب الحضاري الكبير؟

وأي عهد نقض هؤلاء الناس؟

وأين ظلامة (سنمّار)[1] من ظلامة آل محمد ﷺ؟

١ـ سنمّار: اسم رجل رومي بنى الخورنق الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امريء القيس، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه، فخرّ ميتا، وإنّما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره، فضرب العرب به المثل لمن يجزي بالاسانة الاحسان.

وهذا هو الذي يخاطب به الإمام الحسين عليه السلام جيش ابن زياد يوم عاشوراء في كربلاء: (وحششتم علينا ناراً اقتدحناها لعدونا وعدوكم).

(فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم)

وهذه هي الردة الثانية، وهي أعظم من الردة الأولى، وناتجة عنها.

الردة الأولى: هي التي تحدث عنها الفرزدق وتنبأ بها، حين قال للحسين عليه السلام : (إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك).

وهذه هي ردة السيوف، وهي الردة الأولى، ولا بد أن تتبعها ردة القلوب، وهي الردة الثانية.

في الردة الأولى وضع الناس السيوف التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله في أيديهم... تحت تصرف أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله واعداء أهل بيته في الجاهلية والإسلام، الا أن قلوبهم وولاءهم وحبهم استمر مع ذلك مع أهل بيت رسول الله، وتلك درجة من الخيانة، أن سلموا السيف الذي أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أعداء الله ورسوله.

والخيانة الثانية: وهي أعظم من الأولى، أنّ قلوبهم التي حررها رسول الله صلى الله عليه وآله من اسر الطاغوت والهوى مالت إلى بني أمية، فسحب الناس حبهم وولائهم من آل البيت عليهم السلام، وقدموها لأعدائهم، فانحرفت قلوبهم من علي والحسن إلى معاوية ومن الحسين إلى يزيد بن معاوية.

وفي الحقيقة تحولوا في هذه المرة من ولاء أهل البيت إلى البراءة منهم، ومن البراءة من بني أمية إلى تقديم الولاء لهم... وهي الردة الكبرى في حياة الأمة، والانتكاسة الكاملة لها.

ولنعد إلى كلمة الإمام من جديد: (فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم).

و (الألب) القوم تجمعهم عداوة واحدة، كما يقول أهل اللغة.

نقول أن هذا الجيش ألب على الجيش الأخر يعني أن هذا الجيش يجمعهم العداء للجيش الأخر، وتألبوا عليه، أي اجتمعوا على عداوتهم.

والحسين عليه السلام يقول: إنكم إنضممتم إلى صفوف أعدائكم وتضامنتم معهم في العداء لنا، والبراءة منا، فأصبحتم (انتم وأعدائكم) نسيجاً واحداً في العداء لنا والبراءة منا.

وهي حالة غريبة في الإنسان يتبدّل فيها نسيج الإنسان، بشكل كامل، فيكون نسيجه من نسيج أعدائه، وبخلاف نسيج أوليائه، ويكون هو وعدوه من نسيج فكري وسياسي واحد ضد نسيج أوليائه في الفكر والسياسة.

وهذا الأمر يساوي ردّة كاملة في شخصية الإنسان، فإن نسيج الإنسان السياسي والفكري هو ولاؤه، وبراءته، وحبه، وبغضه، وتبدل هذا النسيج من البراءة من الأعداء وولاية الأولياء، إلى ولاية الأعداء، والبراءة من الأولياء، هو الردة الكاملة في شخصية الإنسان.

ولا بد من توضيح أكثر لهذه الفقرة من كلمة الإمام الحسين عليه السلام.

يريد الإمام عليه السلام في هذه الفقرة أن يقول لهم: إنكم تعرضتم لردة كاملة في هويتكم المبدئية (الفكرية السياسية).

وهذا الذي يذكره الإمام عليه السلام هو أكثر ما يمكن أن يحصل من ردة، في هوية الإنسان، وهو المسخ الكامل لهوية الإنسان، وليس الأمر هنا من قبيل الفساد والانحراف الذي يحدث داخل شخصية الإنسان، في بُعد أو عنصر من عناصر شخصيته، فهذا من الفساد والانحراف، وليس من (المسخ).

و(انقلاب الهوية) والذي يذكّرهم الحسين عليه السلام به في هذه الفقرة من

القبيل الثاني، وليس من قبيل الفساد والانحراف الذي يطرأ على شخصية الأمة.

ونذكر توضيحاً، نريد به المزيد من الوضوح في هذه النقطة:

يقول علماء المنطق أن لتعريف كل شيء (طرد) و(عكس) وبهذا الطرد والعكس تتحدد ماهيته وحقيقته، ويقصدون بالطرد طرد كل مفهوم آخر مغاير لهذا المفهوم عن حدّ هذا المفهوم وتعريفه، ويقصدون بالعكس إدخال كل شيء ينطوي تحت هذا المفهوم في حد هذا المفهوم وتعريفه فمثلاً لو قلنا في تعريف مفهوم الإنسان: (الإنسان حيوان مدرك) فان هذا التعريف يعكس افراد الإنسان كاملاً ويطرد النبات والجماد وبقية الحيوان كاملاً.

فإذا انقلب أمر المفهوم فأصبح يعكس الجماد ويطرد الإنسان. فقد حصل انقلاب في الهوية والماهية والحقيقة، لا في الإعراض، فأصبح هذا المفهوم مفهوماً لشيء آخر غير الإنسان.

وهذا هو الذي قلنا عنه انه ردة في الهويّة، وليس من الفساد والانحراف، والإمام هنا يقول لهم أنّ هذه الأمة المسلمة، لها نسيجها الاجتماعي والسياسي الخاص بها، وهذا النسيج هو تمام هوية هذه الأمة، وفيه يندرج كامل شخصية هذه الأمة التي جعلها الله تعالى امة وسطاً.

ولهذا النسيج مهمتان، الأولى الولاء للأولياء، والثانية البراءة من الأعداء (والولاء هو الوصل والبراءة هي الفصل) وهذا الوصل والفصل هو تمام هذا النسيج، كما أن هذا النسيج هو تمام هذا الدين.

والإمامعليه السلام يريد أن يقول لهم: أن هذا النسيج قد تعرض لردة كاملة،

ولـيس للتفتت والتمزق، فأصبح يعكس الأعداء ويطرد الأولياء (ينفصل عن الأولياء ويتصل بالأعداء)، وعلى عكس الحقيقة تماماً.

إذن هناك ردة كاملة في هويّة هؤلاء الناس، وسقوط ومسخ كامل .

والإمـام يطـرح هـنا مقياسـاً بـالغ الأهمـية لمعرفة درجة الانحراف والردة والسـقوط فـي شخصـية الأمـة، وهـذا المقياس الذي يضعه الإمام بين أيدينا يستحق منا الكثير من التأمل والتفكير.

يقـول لهـم أنكـم تعرضـتم لـردة كاملة في هويتكم الإسلامية وآية ذلك الـتعاكس فـي بؤرتي الحب والبغض في قلوبكم، حيث أصبحتم تحبون من يعاديكم وتبغضون من يحبكم.

وعندما تتعاكس هاتان البؤرتان في قلب الإنسان، تتبدل شخصية الإنسان وهويته بصورة كاملة.

وأمـا درجـات الصـلاح والفسـاد فـي شخصـية الإنسـان فهـو من إستقامة هاتين البؤرتين وتعاكسهما، حيث يمزج الإنسان الحب والبغض معاً.

إذن، فإن حجم الفساد ودرجة السقوط والانحراف كان أعظم مما تصور الفـرزدق حيـنما قـال للإمـام الحسين عليه السلام: (قلوبهم معك وسيوفهم عليك) ...

فـان الإمـام يقـول لهـم: أن سيوفكم وقلوبكم جميعاً تحوّل من أوليائكم من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أعدائكم من آل أمية.

وهذه غاية في السقوط والردة.

(بغير عدل افشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم)

فـي هذه الفقرة يشير الإمام إلى نقطة أخرى مهمة في التبدل الذي حدث عـند الناس في بؤرتي الولاء والبراءة والحب والبغض، وهي أن التبدّل الذي

حدث عند الناس في الولاء والبراءة لم يرافقه تبدل آخر في الواقع الموضوعي لأوليائهم وأعدائهم ليتطابق التعاكس في بؤرتي الولاء والبراءة في القلوب والتعاكس في مساحتي الأولياء والأعداء في ساحة المجتمع.

وإنّما بقي أوليائهم أولياءً لهم، وبقي أعداؤهم أعداءً لهم، ولم يتغير لهم عدو إلى وليّ ولم يتغير لهم ولي إلى عدو.

ومن العجب أنهم كانوا يقاتلون الحسين عليه السلام في ساحة المعركة بأمر من عبيد الله بن زياد، وكان الحسين يحبهم ويريد لهم الهداية والسعادة والخير وعبيد الله بن زياد يعاديهم ويريد لهم السوء والشر ونار الجحيم.

ويؤكد لهم الإمام عليه السلام في هذه الكلمة أن هؤلاء كانوا أعداء للناس من قبل في الجاهلية، ولا زالوا أعداء الناس بعد الإسلام، وسيبقون أعداء للناس في المستقبل.

فهم الشجرة الخبيثة التي لا تحمل إلا أسوأ الثمرات.

فهم عريقون في الشر والعداء للناس من الجذور إلى الفروع والأغصان والثمرات.

واليك إشارات الإمام للناس في هذه المراحل الثلاثة:

فهم أعداء للناس في الجاهلية وقبل الإسلام، يقول عليه السلام: «وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم» أي عدونا وعدوكم في الجاهلية وبدء ظهور الإسلام، حيث وقف هؤلاء في وجه هذا الدين، وحاربوه بكل جهدهم وإمكاناتهم.

وهم لا زالوا أعداء الناس إلى اليوم الذي وقف فيه الحسين عليه السلام أمام الناس في ساحة كربلاء سنة ٦١هـ يقول لهم: «فأصبحتم إلباً لأعدائكم على

أوليائكم».

ثم يقول لهم الإمامعليه السلام أن هؤلاء سوف يبقون أعداء للناس في المستقبل أيضاً، ولا أمل في انتقالهم من موقع الأعداء إلى موقع الأولياء للناس محل العداء للناس، فيقول لهم الإمامعليه السلام: «ولا أمل أصبح لكم فيهم».

إذن لم تتغير هذه الشجرة الخبيثة إطلاقاً ولا أمل أن تتغير في المستقبل، فهم أعداء الناس في الماضي والحاضر والمستقبل، لم تتغير هويتهم العدائية للناس، ولكن الناس هم الذين تغيّروا وانقلبوا على أعقابهم، وأي انقلاب، انقلبوا في العمق، والهوية، وفي الحب والبغض، وفي الولاء والبراءة.

وهذه الفقرة من كلام الإمامعليه السلام تستوقف الإنسان وتكشف عن حقيقة خطيرة. فان هؤلاء الناس لم يكونوا مخدوعين ببني أمية، كما قد يتصوره الإنسان، ذلك الإمامعليه السلام يقول لهم: «بلا أمل أصبح لكم فيها».

إذن هؤلاء لم يكن لهم أمل في صلاح بني أمية، ومن أن يترك بنو أمية خبثهم ومكرهم وكيدهم بالإسلام والمسلمين.

فلماذا اتبعوهم؟

وإذا كان ذلك بالإجبار والقهر والقوة، فلماذا أحبوهم ووالوهم ؟

وهذا من اغرب الأمور. فإذا كان هناك من سبب يبرّر للناس إتباعهم لهم في المواقف المعلنة أو كما يقول الفرزدق أن يُسلَموا سيوفهم لبني أمية، ويحتفظوا بقلوبهم لبني عليّعليه السلام، فليس من سبب يبرّر لهم أن يُسلَموا قلوبهم وحبّهم وولاءهم لبني أمية، إلا أن ينخدعوا بهم.

ولكن الإمامعليه السلام يؤكد أنهم كانوا غير مخدوعين ببني أمية، وليس لهم

من أمل في بني أمية.

فكيف أحب الناس بني أمية إذن، ووالوهم، وهم يعرفونهم؟ وكيف عادى الناس الحسين عليه السلام وحاربوه وهم يعرفونه؟

أن جذور المسألة تكمن في حالة (الذل)، إن حالة (الذل) توطّئ نفس الإنسان للمسخ والردة، وللانقلاب في الحب والبغض والهوية.

وليس كذلك أمر التضليل والخداع، فقد ينخدع الإنسان بعدوه فيتوهمه ولياً له فينصره، وينخدع في وليه، فيتصوره عدواً، فيحاربه، دون أن ينتكس قلبه، فإذا انكشف وليّه وعدوه، عاد إلى وليه بالحب والى عدوه بالعداء.

هذا فيما إذا انقلب السيف في يد الإنسان لعدوه على وليه بالتضليل والخداع.

إما عندما ينقلب السيف في يد الإنسان لعدوه على وليه بالقهر والإذلال، فإن الأمر يختلف كثيراً فتتبع السيوف القلوبُ، عن علم، لا عن جهل، فيكون ولاء الإنسان وحبه حيث يعطي سيفه، ويكون عداء الإنسان وبراءته حيث يشهر سيفه.

بل ماذا أقول: أن القلوب تفقد في (حالة الذل والقهر) خاصيتها الطبيعية في تنظيم الحب والبغض والولاء والبراءة على محاورها الأصلية من المجتمع، وتتبلّد القلوب، بصورة كاملة، فيتدخل الطاغية بنفسه، لينظم مواقع الحب والبغض والولاء والبراءة في قلوب الناس، كما يريد، وبموجب نظام جديد يخدم مصالحه، لا بموجب النظام الذي خلق الله تعالى القلوب عليها.

وقد أذل بنو أمية الناس بالترهيب والترغيب، وبالسيف والذهب، فنكّسوا قلوب الناس، فأصبحوا يعادون أولياءهم، ويوالون أعدائهم عن علم، ومن

غير أمل لهم فيهم.

نسيان الذات:

ولعلنا لا نجد تعبيراً دقيقاً لهذه الحالة التي يصفها الإمام الحسين عليه السلام في نفوس هؤلاء الناس في العلم النفسي الحديث ... ولكن في القران تسمية معبرة ودقيقة لهذه الحالة:

يقول تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

هؤلاء الناس يصدق عليهم هذا التعريف بشكل دقيق فهم في الحقيقة، قد نسو أنفسهم، فعادوا لا يذكرون أنفسهم.

فان الإنسان في الحياة الاجتماعية شبكة من العلاقات الايجابية والسلبية الموزعة بين الحب والبغض.

ويشخَص الإنسان في المجتمع، وفي حركته الاجتماعية، بهذا الحب والبغض، وليس باسمه واسم أبيه وعنوانه، وعمله، كما يألف الناس ذلك في سجلات النفوس والعناوين البريدية.

فهو يحب أباه وأمه وأبناءه وعائلته وأصدقاءه، ويكره أعداءه، ويحب من أحسن إليه، ويبغض من أساء إليه، وضمن هذه الشبكة الواسعة من الحب والبغض والولاء والبراءة، يتشخص الإنسان ويتعين.

فإذا إختلت هذه الشبكة من العلاقات الايجابية والسلبية، وتداخلت خيوط هذه الشبكة واضطربت ضيّع الإنسان نفسه وفقدها ونسى نفسه، ولم يعد يذكرها، فهو يتشخص في حبه وبغضه، وقد اضطربت عليه خارطة

١ـ الحشر: ١٩.

الولاء والبراءة، فعاد يوالي عدوه من غير مبرر ويعادي وليه من غير سبب.

ولكي نتصور مقدار الضياع ونسيان الذات في هذه الردة النفسية العميقة والمسخ الذي يصيب الإنسان نحاول أن نستعين بالمسألة التالية:

تصوروا أن إنساناً يعيش ويتحرك في وسط مجتمع تربطه به علاقات حب وبغض، وولاء وبراءة، في شبكة واسعة ... ثم يفقد هذا الإنسان ذاكرته مرة واحدة، مآة في مآة ١٠٠٪، فلم يعد يذكر أي شيء ممن يحبهم أو يبغضهم، ويتساوى عنده في اللقاء أبوه وأمه وأبناءه وزوجته مع أعداؤه والذين حاربوه وظلموه.

أي مصيبة تحل بهذا الإنسان، وأي إخلال يدخل على قلب هذا الإنسان، وعلى صفحة الولاء والبراءة من نفسه، وعلى شبكة علاقاته في المجتمع.

أنه يتحول إلى شخص آخر يختلف تماماً عن الشخص الذي كان يعيش فيما بين الناس قبل أن يفقد ذاكرته.

لقد أصيب هؤلاء الناس بشيء يشبه هذه الحالة من نسيان الذات فأصبحوا يوالون أعداءهم من غير سبب، ويعادون أولياءهم من دون مبرر.

ويحكم أهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون

ثم يستصرخ الإمام ضمائرهم في هذه الفقرة.

وقد تكون فيهم بقية من الضمير، فتكون لهم بمثابة حبل الإنقاذ. ففي هذا الانهيار الذي يحدث في شخصية الإنسان من الداخل يكون (الضمير) الحصن الأخير الذي يقاوم في داخل النفس موجة الردّة والخراب، فإذا سقط الضمير، سقط كل شيء، ولم يبق بعد أمل في هذا الإنسان.

ولكن ما دام للضمير بقية في نفس الإنسان ففي هذا الانسان بقية من الأمل.

والخطاب هنا إلى ضمائر هؤلاء القوم. ولست ادري ماذا في هذا الخطاب من معاناة ومرارة تختلج في نفس الإمام.

يا عبيد الأمة وشُذاّذ الاحزاب

وهذه أخلاق العبيد، وحالة العبيد، وليست بحالة الأحرار.

أن العبيد ولاءهم لمن يشتريهم من سوق النخاسة، وليس لولائهم اصل ثابت.

فمن يشتري العبد يستحق ولاءه، سواء كان يحبه أم يكرهه، وسواء كان ينفعه أم يضره.

فيتحول ولاءه من مولى إلى مولى.

في لحظة واحدة، يدفع المولى الجديد الثمن إلى المولى القديم فينتقل ولاء العبد من المولى القديم إلى المولى الجديد، عندما ينتقل الثمن من المولى الجديد إلى المولى القديم، وعندما يدفع المولى القديم السوط إلى المولى الجديد ... فينتقل مع الثمن والسوط ولاء العبد وطاعته من المولى القديم إلى مولاه الجديد.

في لحظة واحدة، فقط، ينسى ولاءه القديم، ويفسخ ميثاقه مع المولى القديم، وينقض طاعته له، ويحل محله ولاء جديد، وميثاق جديد، وطاعة جديدة للمولى الجديد.

أين يحصل هذا الانقلاب كله في ولاء العبد؟

وكيف يحصل بهذه السهولة في لحظة واحدة؟

هذا الانقلاب كله يحصل في أسوق النخاسة وبانتقال الثمن من المشتري إلى البائع وبانتقال السوط من البائع إلى المشتري.

الدينار والسوط العاملان الرئيسيان في ولاء العبيد

وهذه حالة (شذاذ الاحزاب)، فإن الناس في معسكر الحق والباطل ولاؤهم لأوليائهم، وبراءتهم لأعدائهم في السراء والضراء، على نحو سواء، ولكن (شذاذ الأمة) لا يستقيم لهم ولاء وبراءة على حال، ولا يستقيم ولاءهم لأحزابهم وأولياءهم، ولا يكون لهم محور ثابت للولاء والبراءة، وإنما يكسب المنتصر دائماً ولائهم، ويفرض عليهم البراءة من أعدائه، مهما كان هذا المنتصر.

(فسحقاً لكم)

وهذا دعاء الإمام عليه السلام عليهم.

ودعاء الإمام عليه السلام يجري على سنن الله، ويعكس سنن الله تعالى في خلقه، وأروع ما في الدعاء هذا التطابق بين الدعاء وسنن الله.

عندما دعا العبد الصالح نوح عليه السلام ربه تبارك وتعالى أن ينجي ابنه من الغرق، فقال بكل أدب العبودية: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾، فأجابه الله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1]، وليس على نوح من بأس أن يدعو الله تعالى بما يشاء، وليس في ذلك ما ينافي العصمة ومقام النبوة، ولكن مع ذلك كله لم يكن لنوح عليه السلام أن يدعو الله تعالى على خلاف سنن الله.

وسلام الله على نوح نبي الله، العبد الصالح الصابر الذي أدبّه ربه فأحسن

١ـ هود: ٤٥ ـ ٤٦.

تأديبه، فما أسرع ما تذكر واستسلم وانقاد لمشيئة الله وسننه في إبنه واستغفر ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

إن أفضل الدعاء وأقربه إلى الاستجابة الدعاء الذي يعكس سنن الله تعالى، ويجري في اتجاه سنن الله.

والحسين عليه السلام هنا يدعو على هؤلاء الناس عندما لم يجد فيهم أملاً للخير فيقول لهم (سحقاً لكم).

ويدعو الله تعالى أن يقطع عنهم رحمته ويُبعدهم عنها، وهذا دعاء يعكس سنن الله تعالى في الناس عندما ينضب في نفوسهم معين الخير، ولنتأمل في هذا الدعاء:

علاقة الرحمة بمواقع نزولها

أن بين رحمة الله تعالى ومواضع نزولها علاقة وصلة متبادلة.

فإن رحمة الله تعالى إذا نزلت على موقع من حياة الإنسان ازدهرت وأثمرت، فإذا نزل المطر على ارض إخضرّت وأثمرت وأينعت، وآتت أكلها، وتفجرت فيها العيون، وجرت عليها المياه، وتأهلت بالإنسان والحيوان.

وهذه هي علاقة (الرحمة النازلة)، بـ(مواقع نزولها).

والعكس أيضاً صحيح، فإن للموقع تأثير على نزول الرحمة وانقطاعها.

فيستنزل الرحمة الإلهية، عندما يكون مؤهلاً ومستعداً لقبول الرحمة، وتنقطع الرحمة إذا فقد الموقع الاستعداد لقبول الرحمة.

١ـ هود: ٤٧.

وان هذا التأهيل والاستعداد في مواقع الرحمة هو بمثابة طلب نزول الرحمة، ولكنه طلب بالتكوين، كما أن الدعاء طلب باللسان، وكما أن الرجاء طلب بالقلب والحال.

وفقدان الأهلية والاستعداد لقبول الرحمة بمثابة رفض الرحمة وردها، وبمثابة الإعراض عن الرحمة. فلا تهبط الرحمة الإلهية على ذلك الموقع حينئذ.

وهذه الحقيقة التكوينية في العلاقة بين الرحمة ومواقع نزولها، أو بين العرض والطلب في الرحمة، تصح في حياة الإنسان، بشكل دقيق.

فإذا نضب معين الخير في نفس الإنسان، انقطعت عنه رحمة الله. ورحمة الله تنزل على الإنسان بقدر ما ينبع في نفسه الخير والرحمة.

ومنابع الخير في نفس الإنسان القلب والعقل والضمير والفطرة والإرادة.

فإذا نضبت هذه النبوع، فلا خير يرجى من هذا الإنسان، ولا تنزل عليه الرحمة الإلهية، ويكون مطروداً عن رحمة الله.

تأملوا في دعاء العبد الصالح نوح نبي الله عليه السلام بعد ما يأس من قومه، وعلم أن معين الهداية قد جف في نفوس قومه، فلا يرجى منهم خير بعد ذلك ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].

فلم يبق في نفوس هؤلاء القوم من خير ، ولا أمل في أن يكون في نفوس ذرياتهم من خير. فقد نضبت ضمائرهم وقلوبهم وفطرتهم بشكل كامل. ولم يبق في نفوسهم موقع لنزول الرحمة.

١ـ نوح: ٢٦ ـ ٢٧.

إذن فقد استحقوا الطرد من رحمة الله، وهو بمعنى(اللعن).

فيدعوا نوح عليه السلام عليهم أن يهلكهم الله.

وهذا التطابق بين سنن الله تعالى التكوينية والدعاء نجده هنا في دعاء الحسين عليه السلام على هؤلاء الناس في كربلاء.

فلم يبق في نفوس هؤلاء موضع لنزول رحمة الله، فعلى ماذا تهبط رحمة الله.

فيقول عليه السلام لهم: (فسحقاً لكم).

(غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم)

وكما للخير في نفس الإنسان أصالة وعمق، وكما يزداد العمق التاريخي والوراثي للخير في نفس الإنسان، فيتأهّل ويترسخ أكثر، كذلك للشر في نفس الإنسان أصالة، وكلما يزداد العمق التاريخي والوراثي للشر في نفس الإنسان يزداد قوّة ويترسخ أكثر. وهذا القانون يجري فيَ الخير والشر على نحو سواء في نفس الإنسان.

وقانون الوراثة هو عامل هذا التأهيل والترسيخ، يؤصّل الخير، فينقحه ويزيده ويركزه، ويؤصّل الشر، فينقحه ويزيده، ويركزه.

ولست أريد أن أقول أن عامل الوراثة يسلب الإرادة من الإنسان في الخير والشر، فيقهر هؤلاء وأولئك على الخير والشر. فإن ذلك مما لا يصح حتماً، وعامل الإرادة يبقى نقطة ثابتة في حياة الإنسان.

ولكن مما لا يمكن الشك فيه أن البشرية شجرتان: شجرة طيبة وشجرة خبيثة، ولكل من الشجرتين جذور وثمار، وتتشابه الجذور والثمرات، وتكون الثمار من جنس الشجرة والشجرة من جنس الجذور.

وتنتقل خصائص الجذور في كل شجرة إلى الشجرة، من خير أو شر، فجذور الشر تنقل الشر إلى الأغصان والثمرات، وجذور الخير تنقل الخير إلى الأغصان والثمرات، وتنقحه وتؤصّله.

وهذه حقيقة في الوراثة لا يمكن أن نشكك فيها بغض النظر عن التفاصيل الفنية والعلمية لهذه الحقيقة.

وكذلك الناس شجرتان شجرة طيبة وشجرة خبيثة، ولكل من هاتين الشجرتين جذور وراثية في عمق التاريخ. وهذه الجذور تنقل إلى الفروع الطيّب والخبيث، كلٌ على شاكلة فتنقل الجذور الطيبة الإبراهيمية التوحيد، والعبودية، والإخلاص، والقيم إلى فروعها، وتنقل الجذور النمرودية الخبيثة إلى فروعها الشرك والتمرد والاستكبار.

وتتوزع البشرية، هاتان الأسرتان (الأسرة الإبراهيمية والأسرة النمرودية) و (الأسرة الموسوية والأسرة الفرعونية).

وعامل الوراثة عنصر أساسي في نقل مواريث التوحيد والعبودية، والشرك، والاستكبار، من جيل إلى جيل، وفي تأصيل وتركيز حالة التوحيد والعبودية وحالة الشرك والاستكبار فيهما أيضاً.

ولكن هاتين الأسرتين منفتحتان على بعض، ويمكن كل عضو في كل من هاتين الأسرتين أن ينتقل من أسرة إلى أخرى، وعامل هذا الانتقال (حرية الإرادة) . وليس في تكوين هاتين الأسرتين حالة الانغلاق، كما في الوراثة الحياتية وما أكثر ما انتقل أعضاء هذه الأسرة إلى تلك الأسرة، وبالعكس، ويتّم العبور هنا بحرية كاملة من كل من الطرفين، ولكلٍ من هاتين الشجرتين جذورهما الوراثية في عمق التاريخ، وثمراتهما من طيب

وخبيث على شاكلة الجذور.

ويبقى في تاريخ الإنسان خط إبراهيمي صاعد وخط نمرودي هابط، والأول يزداد بمرور الزمان عروجاً نوراً وهدى والثاني يزداد بمرور الزمن سقوطاً وظلاماً وضلالاً.

وذلك أن مهمة هذه الجذور ليست فقط نقل الخصائص التاريخية لكل من الأسرتين، وإنما تُنقّح هذه الخصائص ايضاً، فيزداد احدهما عروجاً ويزداد الأخر سقوطاً وتتسع الفجوة بينهما عبر التاريخ، حتى تنقطع أسباب الرحمة عن هذه الشجرة، ولا يبقى فيها موضع لنزول الرحمة، ولا أمل للعودة إلى الله، فتهلك هذه الشجر فيبدأ التاريخ دورة جديدة في هذا المضمار. والى هذه الحقيقة يشير الإمامعليه السلام في خطابه لهؤلاء الناس يوم عاشوراء في كربلاء.

(اجل والله غدر قديم، وشجت عليه أصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمر، شجي للناظر، واكلة للغاصب).

يقول لهم الإمامعليه السلام أن هذا الغدر والخبث فيكم أصل عريق، وشجت عليه أصولكم (اشتبكت عليه أصولكم) وتآزرت (هاجت وتنقحت وتأصلت) عليه فروعكم، فانتم أخبث ثمر لأخبث شجر.

وكان الإمامعليه السلام ينذرهم بعذاب البوار والهلاك، كما انذر نوحعليه السلام قومه قبل بالبوار والهلاك.

عوامل التخلف عند العبادلة الثلاث

استعرضنا ظاهرة التخلف وما يؤول إليه وهذه الظاهرة لشيوعها وانتشارها في تاريخ الصراع والمواجهة بحاجة أن نمنحها مزيداً من الوقت والتفكير.

والقران يستعرض ظاهرة التخلف في أكثر من موضع. وقصة المتخلفين الثلاثة معروفة، يشير إليها القرآن، ونجد تفاصيلها في كتب التفسير والسير.

وهؤلاء المتخلفون يشكلون مساحة اجتماعية واسعة ولها أحكامها وأصولها الخاصة بها.

وليس لحالة التخلف سبب واحد، وإنما ينتج التخلف من أسباب وبواعث مختلفة.

فقد يكون التخلف من الجبن والضعف وإيثار العاقبة. وهذا باب واسع للتخلف، وقد يكون ناشئاً عن البخل والشح. وهذا باب آخر للتخلف.

وقد يكون التخلف ناشئاً عن الاستكبار والاستعلاء عن الحق. وهذا باب واسع أيضاً للتخلف.

وليس فارق (الوعي) و(الأيمان) دائماً هو الفارق بين (المتخلفين) و(المتقدمين) فلم يكن المتخلفون الثلاثة الذين يذكر القران قصتهم في سورة التوبة ينقصهم وعي أو إيمان، وإنما الفارق في الشجاعة والقوة والزهد في الدنيا والعطاء والتواضع والتسليم للحق.

فهـذه هـي أسـباب (السـبق) و (الـتقدم) وعكسها سبب التخلف في حياة الإنسان.

التخلف والسبق:

والقـرآن يكشـف عـن بعـد غريـب فـي شخصـية المتخلفيـن وهـي حالة التسـلق والمـزايدة فـي الـتقدم فـي حـالات اليسـر والـرخاء، فـي مقابل حالة الخوف والجبن والهزيمة في حالات البأساء والضراء.

ومن عجب أن يكون هذان الوجهان وجهين لشخص واحد.

ولـنقرأ هـذه الآيـات المباركات من سورة الأحزاب: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَـاءَ الْخَـوْفُ رَأَيْـتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَـوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[1]، تدور أعينهم كالذي يغشـى عليه من الموت في حالة الخوف والشدة والبأس، فإذا ذهب الخوف سـلقوكم بالسـنة حـداد. وهـؤلاء المسـلقون المـزايدون فـي حالـة النصر هم المهزومون المخالفون في حالة الخوف.

ولهـذا أردنـا أن نقـارن حالـة التسلّق بحالة التخلّف في هؤلاء، ونقيّم هذه الحالـة وتلك، فإننا نعتقد أن ضرر حالة التسلق إلى الدعوة والثورة الإسلامية أبلغ من حالة التخلف عن الدعوة والثورة.

فـان ضـرر حالـة الـتخلف في فقدان عنصر مقاتل في ساعات القتال وفي تثبـيط الآخريـن عـن الصـراع والمواجهـة، ولكـن ضـرر التسـلق فـي الـورم والانـتفاخ الكـاذب لجـبهة الحـق، وفـي الخـواء الداخلـي الـذي يُغطـيّه هذا

١ـ الأحزاب: ١٩

الانتفاخ الكاذب، وتسقيط لحركة الدعوة، من حركة تضحية ومعاناة إلى باب من أبواب تجارة الدنيا.

ومهما يكن، فإن خطر التسلّق على الإسلام ابلغ من خطر التخلّف.

ولنعد إلى حديث (التخلّف)، لقد كان حدوث التخلف في عصر الرسول ﷺ وعصر الإمام الحسين عليه السلام واحداً، ولكن بفارق واحد، فقد كان (التقدم والسبق) في عصر الرسول ﷺ هو الأصل و (التخلف) هو الاستثناء، وفي عصر الإمام الحسين عليه السلام انعكس الأمر فكان التخلف هو الأصل والتقدم هو الاستثناء.

وهذا الفارق الكمي بين العصرين يكشف عن فارق كيفي بين السابقين والمتقدمين في هذا العصر أو ذاك.

فلم يكن (السبق) في عصر الرسول ﷺ اختراقاً للوسط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه أصحاب رسول الله ﷺ.

ولكن (السبق) في عصر الإمام الحسين عليه السلام كان اختراقاً قوياً للوسط الاجتماعي والسياسي الذي كان يعيش فيه أصحاب الحسين عليه السلام.

ولذلك فان قيمة السبق في العصر الثاني كان أعظم من قيمة السبق في العصر الأول ومن هنا يقول الإمام الحسين عليه السلام:

أني لا اعلم أصحاباً خيراً من أصحابي[1].

١ـ مقاتل الطالبيين: ٧٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٧، اللهوف: ٣٩.

الأبعاد السياسية والحركية لثورة الإمام الحسين عليه السلام

حينما نستعرض كلمات الإمام الحسين عليه السلام ومواقفه حين تولّى «يزيد» الأمر بعد أبيه «معاوية» ودُعِيَ الإمام من قبل عامل يزيد على المدينة إلى البيعة، إلى أن هبط الإمام أرض كربلاء، ووقف بها في مواجهة جيش بني أُمية... نجد عاملين اثنين رئيسيين كانا السبب الباعث على الخروج والثورة على الحكم الأُموي، والذي انتهى إلى استشهاد الإمام عليه السلام في وقعة الطف.

الأول: العامل السياسي.

الثاني: العامل الحركي.

لابدّ لنا من أن ندرس هذين العاملين في كلمات الإمام الحسين عليه السلام في هذا المسير (من المدينة إلى كربلاء) لنستطيع أن نقدم تفسيراً وافياً ودقيقاً لحركة الإمام وثورته.

العامل السياسي

ونبدأ بدراسة العامل السياسي في هذه القضية. كان أول شيء اهتم به يزيد بن معاوية بعد أن تولّى الخلافة من بعد أبيه هو فرض البيعة على الحرمين الشريفين، وكان الحرمان الشريفان يعتبران نقطتي الثقل السياسي في إعطاء الشرعية أو سلب الشرعية من مركز الخلافة في الشام. وأكثر ما كان يهم يزيد من أمر البيعة ثلاثة أشخاص: الإمام الحسين عليه السلام وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله ابن الزبير.

ولذلك فقد كانت بيعة الحرمين الشريفين، أول ما فكر فيها يزيد بن معاوية بعد أن تولّى الأمر في الشام.

ولاشكّ أن أمر الحسين عليه السلام كان يشغل بال الخليفة الجديد ومستشاريه من بني أُمية أكثر من أي شخص آخر. وكان معاوية قد سعى من قبل لأخذ البيعة من الحسين عليه السلام بولاية العهد لابنه يزيد فلم يفلح. وكان من جواب الإمام الحسين عليه السلام له حين دعاه إلى قبول ولاية العهد لابنه يزيد:

«وهيهات هيهات يا معاوية، فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتّى محلت، وجزت حتى جاوزت، ما بذلت لذي حقّ من اسم حقّه بنصيب، حتّى أخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل. وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأُمّة محمّد صلى الله عليه وآله، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد، فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه. فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم، حتّى ملأت الأسقية. ما بينك وبين الموت إلاّ غمضة، فتقدّم على عملٍ محفوظ في يومٍ مشهود، ولات حين مناص»[1].

فلما مات معاوية، وتولّى يزيد الأمر كان أول ما فكر فيه أن يأخذ البيعة

---

١ ـ الإمامة والسياسة: ١٨٦. ط. مصر ـ ١٩٦٩م.

من الحسين عليه السلام، فكتب في ذلك إلى عامله على المدينة «الوليد بن عتبة»[١]، فامتنع الحسين عليه السلام امتناعاً شديداً في قصة طويلة، يذكرها الطبري[٢]، وابن الأعثم[٣]، وغيرهما من المؤرّخين. فقد قال الحسين عليه السلام لمروان، وكان حاضراً ذلك المجلس، وكان يحث الوليد ألا يترك الحسين حتّى يأخذ البيعة منه في ذلك المجلس، وإلاّ فيضرب عنقه.. فقال له الإمام الحسين:

«ويلي عليك يا ابن الزرقاء[٤]، أتأمر بضرب عنقي، كذبت والله. والله لو رام ذلك أحد من الناس لسقيت الأرض من دمه قبل ذلك. فرم ضرب عنقي إن كنت صادقاً».

ثمّ أقبل الحسين عليه السلام على الوليد بن عتبة فقال:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[٥].

وعندما خرج الحسين عليه السلام من عند الوليد، لامُه مروان على ذلك لوماً شديداً، فقال له عامل يزيد:

«ويحك أتشير عليّ أن أقتل الحسين، فوالله ما يسرّني أن لي بذلك الدنيا

---

١ ـ الفتوح لابن الأعثم ١٠: ٥، وتاريخ الطبري ٧: ٢١٦. وقد ذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة:٢٠٣، أن عامل المدينة حينذاك كان خالد بن الحكم، كتب إليه يزيد يطلب منه أن يأخذ البيعة من الحسين عليه السلام.

٢ ـ الطبري ٧: ٢١٦ ـ ٢١٩ ط. ليدن.

٣ ـ الفتوح ٥: ١٠ ـ ١٩ ط. حيدر آباد ـ ١٩٦٨م.

٤ ـ الزرقاء هي جدّة مروان وكانت من البغايا المومسات ذوات الرايات.

٥ ـ الفتوح لابن الأعثم ١٨: ٥.

وما فيها، وما أحسب أن قاتله يلقى الله بدمه إلاّ خفيف الميزان يوم القيامة».

فقال له مروان مستهزئاً:

إن كنت إنّما تركت ذلك لذلك فقد أصبت[١].

وقد كان موقف الإمام عليه السلام في الامتناع من البيعة ليزيد موقفاً واضحاً، لا يشكّ فيه أحد، وكلمات الإمام في مواقف متعدّدة في مسيره من المدينة إلى كربلاء توضح هذه الحقيقة. يقول الإمام عليه السلام لمحمّد بن الحنفية (أخيه):

«يا أخي، والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوىً لما بايعت والله يزيد بن معاوية أبداً»[٢].

وخطب الإمام يوم عاشوراء في جيش بني أُمية فقال:

«ألا وأن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة. يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطهرت، تؤثر مصارع الكرام على طاعة اللئام»[٣].

وقال لأخيه عمر الأطرف عندما دعاه إلى أن يتجنب مجاهدة يزيد:

«إنـي لا أُعطي الدنيةَ من نفسي أبداً، ولتلقينّ فاطمة أباها شاكيةً مما لقيت ذريته من أمته»[٤].

وعندما خرج الإمام عليه السلام يوم عاشوراء، ليقاتل جيش ابن سعد بنفسه كان

---

١ ـ الإمامة والسياسة: ٢٠٥.

٢ ـ الفتوح لابن الأعثم ٣٢:٥. والمقتل للخوارزمي: ١٨٨. ومقتل المقرّم: ص ١٣٤. ط ٢ النجف ١٩٥٦ م. ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ٧٤.

٣ ـ إثبات الوصية للمسعودي: ١٤٢، ط. النجف: الحيدرية.

٤ ـ اللهوف: ١٥، ط. صيدا.

يرتجز ويقول:

الموت أوّلى من ركوب العار والعار أوّلى من دخول النار[١]

فلم يكن الإمام ـ إذن ـ ليبايع يزيد مهما يكن من أمر. ومن طرف آخر لم يكن يزيد ليترك الإمام عليه السلام من دون بيعة مهما تكن النتيجة.

وقد كان الإمام الحسين عليه السلام يؤمن بهاتين القضيتين معاً. فلا سبيل إلى بيعة يزيد مهما يكن من أمر، ولا يمكن أن يتركه يزيد من دون بيعة أيضاً. وكانت النتيجة المترتبة على هذين الأمرين واضحة للإمام كلّ الوضوح، لا يشك فيها لحظة واحدة.

وقال الإمام لأصحابه حينما أرادوا الخروج من الحجاز إلى العراق: **«وأيم الله لو كنتُ في جحر هامة لاستخرجوني»**[٢].

ولما علم عبدالله بن جعفر أن الحسين يريد الخروج إلى العراق كتب إليه يدعوه إلى البقاء، فكتب إليه الحسين عليه السلام:

«والله يا بن عمّ لو كنتُ في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني حتّى يقتلوني. والله يا بن عمٍّ ليعدينّ عليّ كما عدت اليهود على السبت»[٣].

وفي رواية أُخرى يرويها الشيخ المفيد في الإرشاد عن الإمام عليه السلام بنفس المضمون:

«والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا

---

١ ـ نفس المهموم: ٣٥٣. تحقيق الشيخ رضا استادي، ١٤٠٥هـ ـ قم.

٢ ـ الطبري ٧: ٢٧٦، الكامل لابن الأثير ٢٨: ٤.

٣ ـ الفتوح لابن الأعثم ١١٦: ٥. مقتل الخوارزمي: ط. المفيد قم ٢: ٨ باختلاف يسير.

سلّط الله عليهم من يذلهم، حتّى يكونوا أذل فرق الأُمم»[1].

إذاً فلم يكن للإمام الحسين عليه السلام غير طريق واحد؛ وهو الشهادة... فأنّ يزيد لا يقبل من الإمام بغير البيعة، والحسين عليه السلام لا يعطي البيعة ليزيد، مهما تكن الأسباب، فلا طريق للحسين إلاّ الشهادة، ولابدّ أن يكون الحسين عليه السلام عازماً على الشهادة، حين خرج من الحجاز إلى العراق.

الخيار الثالث:

وكان هناك خيار آخر ثالث، اقترحه عليه بعض الناصحين، رفضه الإمام رفضاً قاطعاً، وهو أن يبتعد عن ساحة المعركة، ويعتزل الناس، ويذهب بعيداً إلى اليمن، أو إلى بعض شُعب الجبال، ويحتجب عن الناس فيكون قد حقّق الغاية، وهو الامتناع عن البيعة ليزيد، دون أن يعرّض نفسه وأهل بيته وأصحابه للأذى والهلاك من قبل يزيد وولاته وعمّاله.

يقول ابن الأثير: لما عزم الحسين عليه السلام على الخروج من الحجاز إلى العراق جاءه ابن عباس فقال:

«يا ابن العم إني أتصبّر، ولا أصبر. إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إن أهل العراق قوم غُدّر، فلا تقربنهم. أقم في هذا البلد (مكة المكرّمة)، فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا، فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثمّ أقدم عليهم، فإن أبيت إلاّ أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض

---

١ ـ الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٠٦. وفي رواية ابن الأثير في الكامل ٤: ٣٩. «حتى يكونوا اذل من فرام المرأة» أو (الأمة في بعض الروايات) وفرام المرأة: الخرقة التي تستعملها المرأة في الحيض. راجع كذلك بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٥.

عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة»[١].

وكان ممن يحمل هذا الرأي أخوه محمّد بن الحنفية إذ جاء إلى الحسين عليه السلام لمّا عزم على مغادرة المدينة بأهل بيته، فقال له كما يروي ابن الأثير:

«يا أخي أنت أحب الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقّ بها منك. تنح ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعث رسلك إلى الناس... فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك... قال الحسين عليه السلام: فأين أذهب؟ قال: أنزل مكّة فإن أطمأنت بك الدار فبسبيل ذلك، وان نأت بك لحقت بالرمال وشعب الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتّى تنظر إلى ما يصير أمر الناس»[٢].

وفي العراق اقترح الطرمّاح بن عدي على الإمام أن يمتنع عن جيش يزيد بن معاوية بمعاقل طيّ المنيعة، فقال للإمام:

«فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به، حتّى ترى من رأيك وتستبين لك ما أنت صانع، فسر حتّى أنزلك مناع جبلنا، الذي يدعى (أجا) امتنعنا والله به عن ملوك غسان، وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر. والله أن دخل علينا ذل قط، فأسير معك حتّى أنزلك القرية»[٣].

إلاّ أنّ الإمام ردّ هؤلاء جميعاً من دون تردّد، لا لأنه كان يشكّ في

---

١ ـ الكامل لابن الأثير ٤: ٣٨ ـ ٣٩. دار صادر بيروت ١٩٦٥.

٢ ـ الكامل لابن الأثير ٤: ١٦ ـ ١٧.

٣ ـ تاريخ الطبري ٧: ٣٠٤. وكتاب نفس المهموم للشيخ عباس القمي: ١٩٤. والمقتل للسيد عبد الرزاق المقرّم: ٢٠٠. وبحار الأنوار ٤٤:٣٦٩. دار إحياء التراث ـ بيروت ١٩٨٣م.

صدقهم ونصحهم له، ولا لأنّهم كانوا موضع ارتياب وشكّ عند الإمام، ولكن لأن هؤلاء لم يكونوا يفهمون الإمام ورأيه وموقفه بالشكل الصحيح، فلم يكن همّ الإمام فقط أنّه لا يبايع يزيد، وألاّ يضع يده في يد ابن معاوية، ولو كان الإمام يكتفي بهذا الحدّ ما كلّفه ذلك كثيراً. فما كان أيسر على الإمام أن يعتزل الناس ويغادر الحجاز إلى بلد ناء من هذه البلاد النائية التي نصحه بها أخوه محمّد وابن عمّه عبد الله بن عباس، أو نصحه بها الطرمّاح بن عديّ، إلاّ أن الإمام لم يكن يكتفي بهذا الموقف السلبي في أمر خلافة يزيد بن معاوية، ولم يكن هذا الموقف السلبي في رفض البيعة إلاّ وجهاً واحداً من وجهي الموقف. أما الوجه الآخر وهو الأهم، والذي كلّف الإمام نفسه، وأهل بيته، وأصحابه، وشيعته، فهو إعلان هذا الرفض على الملأ من المسلمين.

وهذا الإعلان هو الذي أغضب بني أُميّة وأثارهم، فقد اعتبروه تحدياً صارخاً لسلطانهم وحكمهم، وخروجاً على حكمهم وسلطانهم، ولم يكن بنو أُميّة يتحملون شيئاً من ذلك في أيّام سطوتهم وسلطانهم وزهوهم. وكان الإمام الحسين عليه السلام يتوخى من هذا الإعلان مطلباً سياسياً لم يكن يتحقّق لولا إعلان الرفض؛ وهو إسقاط شرعية خلافة بني أُميّة في نظر العامّة من المسلمين. فقد كانت الخلافة رغم كلّ السلبيات التي أحاطت بها إلى هذا الحين تتمتع بالشرعية في نظر الأكثرية من المسلمين، وكانت هذه الشرعية تمكّن بني أُميّة من رقاب المسلمين، وتشل عمل ودور المعارضة، وتعطي للنظام الأُموي قوّة ومقاومة كبيرة. وأخطر من هذا كلّه، إن هذه الشرعية كانت تمكّن بني أُميّة من إدخال الانحرافات الجاهلية ـ التي جاء بها بنو أُمية معهم إلى الحكم ـ إلى الإسلام، فيمسّ الخطر عندئذٍ الإسلام، وتكون

مصيبة المسلمين مصيبتين:مصيبة في حياتهم ونظام أُمورهم، ومصيبة أُخرى أكبر وأخطر في دينهم. وكانت هذه النقطة الثانية تشغل بال سيد الشهداء أكثر من أي شيء آخر، فقد بدأ هذا الانحراف يتسرب إلى الإسلام نفسه من داخل قصور بني أُميّة، بما يقترفون من لهو وفساد وظلم. والى هذه النقطة بالذات يشير الإمام عليه السلام في كلامه مع مروان بن الحكم صبيحة الليلة التي خرج فيها الإمام من بيت الوليد، رافضاً البيعة، حيث التقى مروان بالإمام في الطريق فنصح الإمام بالبيعة ليزيد، فقال الإمام لمروان:

«**على الإسلام السلام، إذ بليت الأُمّة، براع مثل يزيد. ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان**»[1].

إذن كان الإمام يخشى أكثر ما يخشى على الإسلام ـ بالذات ـ من أن يدخل عليه ما جاء به بنو أُميّة إلى الحكم من انحراف وفساد، وإذا كان لا يمكن إسقاط الخليفة وانتزاع السلطان منه، فإن من الممكن انتزاع الشرعية من الخلافة، وتجريد الحكم الأُموي من الشرعية التي كان يحرص عليها حكام بني أُميّة. ومثل هذا الأمر يتطلب موقفاً صريحاً معلناً في رفض البيعة، والامتناع عن قبول خلافة يزيد من جانب الإمام في وسط الرأي العام الإسلامي حينذاك. وهذا ما عمد إليه الحسين عليه السلام عندما رفض البيعة ورفض أن يخفي موقفه السلبي هذا، ويعتزل الوسط السياسي إلى بعض الشعاب والوديان والجبال، ليسلم بنفسه وأهل بيته وأصحابه من ملاحقة حكّام بني أُميّة. لقد كان الإمام يخطط ليجعل من موقفه هذا موقفاً سياسياً صارخاً،

---

١ ـ اللهوف للسيد ابن طاووس: ١٣. والفتوح لابن الأعثم ٥: ٢٤. مقتل الخوارزمي: ١٨٤ـ ١٨٥. وليس في المصدرين الأخيرين عبارة «ولقد سمعتُ جدي رسول الله». ومقتل المقرّم: ١٣٠.

واحتجاجاً في وجه حكّام بني أُميّة وإعلاناً لسحب الثقة والشرعية من حكّام بني أُميّة وإعلام الأُمّة كلّها بذلك. وهذه بعض النماذج من كلمات الإمام ومواقفه الصريحة في هذا الصدد:

أولاً: غادر الإمام المدينة إلى مكّة ليلاً بجميع أهله وسار على الجادة التي يسلكها الناس، فقال له ابن عمه مسلم بن عقيل: «لو عدلنا عن الطريق وسلكنا غير الجادة، كما فعل عبد الله بن الزبير[1] كان عندي الرأي، فإنّا نخاف أن يلحقنا الطلب». فقال له الحسين عليه السلام:

«لا والله يا ابن عمّ لا فارقت هذا الطريق أبداً أو أنظر إلى أبيات مكّة أو يقضي الله في ذلك ما يحب ويرضى»[2].

ثانياً: دخل الإمام مكّة بصورة علنية متحدياً سلطان بني أُمية. ويصف الخوارزمي نزول الحسين عليه السلام بمكّة فيقول: «وكان قد نزل بأعلى مكّة، وضرب هناك فسطاطاً ضخماً، ثمّ تحول الحسين إلى دار العباس، حولها إليه عبد الله بن عباس... فأقام الحسين مؤذناً يؤذن، رافعاً صوته، فيصلي بالناس»[3]. وتجمع الناس حول ابن بنت رسول الله في مكّة اجتماعاً كبيراً. يقول ابن أعثم:

دخل الحسين إلى مكّة ففرح به أهلها، فرحاً شديداً، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشية، واشتد ذلك على عبد الله بن الزبير لأنه قد كان طمع أن

---

١ ـ تنكّب عبد الله بن الزبير عند مغادرة المدينة الجادة العامّة التي يسلكها الناس. راجع الطبري ٧: ٢١٩ ـ ٢٢٠. والإرشاد للمفيد: ٢٠٣ مكتبة بصيرتي قم.

٢ ـ الفتوح لابن الأعثم ٥: ٣٤ ـ ٣٥. ومقتل الخوارزمي: ١٨٩. والطبري ٧: ٢٣٢.

٣ ـ مقتل الخوارزمي: ١٩٠.

يبايعه أهل مكّة. فلما قدم الحسين شقّ ذلك عليه... لكنه كان يختلف إليه ـ إلى الحسين ـ ويصلي بصلاته، ويقعد عنده ويسمع من حديثه، وهو مع ذلك يعلم أنه لا يبايعه أحد من أهل مكّة، والحسين بن علي بها، لأن الحسين عندهم أعظم في أنفسهم من ابن الزبير[1] وكان عمرو بن سعيد الأشدق يومئذٍ عامل يزيد على مكّة، فهاب الحسين، وهرب إلى المدينة، وكتب إلى يزيد بأمر الحسين: يقول الخوارزمي: وهاب ابن سعيد أن يميل الحُجاج مع الحسين، لما يرى من كثرة اختلاف الناس إليه من الآفاق فانحدر إلى المدينة وكتب بذلك إلى يزيد[2].

ثالثاً: تتفق المصادر التاريخية؛ إن الحسين عليه السلام خرج من مكّة إلى العراق يوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، عندما كان الحجاج يتوجهون إلى عرفات استعداداً ليوم عرفة، وقد أثار خروج ابن بنت رسول الله يوم التروية ـ من بين الحجاج ـ إلى العراق انتباه عامّة الحجاج الذين كانوا قد أمّوا البيت الحرام من مختلف الآفاق. فهذا ابن بنت رسول الله يحل من العمرة ويغادر مكّة في وقت يتوجه فيه الحجاج إلى عرفات لأداء الحج.

ولا نحتاج إلى تأمل طويل لنكشف أن طريقة الحسين عليه السلام في الخروج من المدينة إلى مكّة ثم مقامه في مكّة، ثمّ مغادرته لها إلى العراق، كان بهدف التعبير والإعلان عن رفضه للبيعة، ولو كان الإمام يريد أن يتجنب البيعة فقط، دون تنبيه وإلفات الرأي العام الإسلامي لهذا الموقف السياسي لما احتاج إلى كلّ هذه الخطوات التي كلفته وكلفت أهل بيته وأصحابه

---

١ ـ الفتوح لابن الأعثم ٥: ٣٦ ـ ٣٧.

٢ ـ مقتل الخوارزمي: ١٩٠.

كثيراً، وأثارت عليه سخط بني أُميّة وغضبهم، ولقد كان بنو أُميّة يكتفون من الحسين عليه السلام ـ في أغلب الظن ـ أن يحتجب ويبتعد عن الرأي العام، ويخرج إلى ثغر بعيد من ثغور المسلمين، بعيداً عن الأجواء السياسية، لكن الحسين عليه السلام أبى أن يبايع إباءً قاطعاً، وأبى أن يخرج إلى ثغر من ثغور المسلمين، ويترك الساحة السياسية والاجتماعية ومسؤوليته الشرعية.

وإليك النصّ الذي يرويه الطبري عن عقبة بن سمعان بهذا الشأن. وعقبة هذا كان قد رافق الحسين عليه السلام من المدينة إلى كربلاء، ولم يفته شيء من كلمات الإمام وإشاراته ومواقفه. يقول ابن سمعان:

«صحبتُ حسيناً فخرجتُ معه من المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى العراق، ولم أفارقه حتّى قتل، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكّة، ولا في الطريق، ولا بالعراق، ولا في عسكر، إلى يوم مقتله، إلاّ وقد سمعتها. لا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس، وما يزعمون، من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه، قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير أمر الناس»[1].

الخيارات الثلاثة:

إذن كان أمام الإمام الحسين عليه السلام خيارات ثلاثة:

الأول: أن يبايع يزيد بن معاوية.

الثاني: أن يغادر الساحة السياسية ووسط الرأي العام إلى ثغر ناءٍ من ثغور

---

١ ـ تاريخ الطبري ٧: ٣١٤.

المسلمين. حتّى لا يكون خطراً على الحكم الأُموي. ونكتشف من كلمة عقبة ابن سمعان أن هذا الخيار كان أيضاً مما يطرحه عليه بنو أُميّة على نحو الإبعاد والإقصاء، كما فعل عثمان بن عفان بأبي ذر من قبل. وهذه الطريقة من الإقصاء عن الساحة السياسية لتعطيل المعارضة وإفشال دورها، كان معمولاً بها في تلك الأيّام. وكلمة عقبة بن سمعان واضحة أيضاً في ذلك... «ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين».

وأما الناصحون للإمام فكانوا يقترحون عليه أن يختار هذا الشق ويختار هو الجهة التي يعتزل فيها الساحة السياسية، من آفاق الأرض.

ومهما كان من أمر فقد رفض الإمام هذا الخيار من بني أُميّة ومن ناصحيه، ورفض أن يترك الساحة ويعتزلها، ولم يقتصر في أمر رفض البيعة على هذا الحد السلبي، الذي كان لا يرفع التكليف الشرعي، والمسؤولية عن عاتقه، فقد كان الإمام يُصرُّ على أن يترك لشأنه ليذهب ـ كما يقول عقبة بن سمعان في كلمته ـ في هذه الأرض العريضة معلناً عن رأيه في يزيد، ورفضه لبيعته، وعاملاً بتكليفه الشرعي في الحكم الأُموي، وهذا ما كان يرفضه بنو أُميّة رفضاً قاطعاً وقد عبّر الإمام عن ذلك لأصحابه حينما أراد الخروج من الحجاز إلى العراق بقوله:

«والله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني»[1].

الثالث: هو خيار المواجهة والشهادة، وقد اختاره الإمام ـ بالذات ـ من بين هذه الخيارات.

ومن كلمات الإمام في كربلاء، أمام جيش ابن سعد:

---

١ ـ الطبري ٧: ٢٧٦. والكامل ٤: ٣٨.

«لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد»[1].

فلا يعطيهم يده للبيعة، إعطاء الذليل، وهو الخيار الأول الذي تحدّثنا عنه، ولا يفر فرار العبيد، وهو الخيار الثاني الذي أقترحه عليه بنو أُميّة، لإلغاء دوره، وتعطيل موقفه عن خبث ومكر، واقترحه عليه بعض الناصحين له عن عدم وعي.

وهذا هو العامل الأول لثورة الإمام الحسين عليه السلام.

العامل الحركي

العامل الثاني لحركة الإمام وخروجه وثورته؛ هو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لتحريك الأُمة وتوعيتها وكسر حالة الركود والجمود والاستسلام في الأُمة.

وقد بيّنا ـ فيما مرّ ـ كيف عمل حكّام بني أُمية على نشر الإرهاب والفساد في المجتمع. وقد تمكنوا فيما أرادوا من تمييع المجتمع الإسلامي، والقضاء على روح المقاومة والثورة والتمرد في المسلمين، ونشر روح الاستكانة والاستسلام للواقع الفاسد.

وأبرز دليل على انتشار هذه الحالة السلبية في المجتمع الإسلامي ـ يومذاك ـ هو أن يتولى يزيد أُمور المسلمين، ثمّ لا ترتفع صرخات الاستنكار والاحتجاج في العالم الإسلامي، إلاّ ما كان هنا وهناك من

١ ـ مقتل المقرّم: ٢٥٦، وقد أورد النص بعض أرباب المقاتل بصيغة «ولا أقر لكم اقرار العبيد»، ومثير الأحزان: ٦٢، ط. النجف الحيدرية ١٣٨٦، وفي رأينا ان النصّ الأول ارجح وأوفق الى موقف الإمام.

اعتراضات ضعيفة ومبتورة للمعارضة، لا يسمعها ولا يدعمها أحد. وكان لابدّ من حركة قوية في وسط العالم الإسلامي، تهز ضمائر المسلمين هزة عنيفة، وتبعث في نفوسهم الحياة والإحساس بالمسؤولية، وتكسر عنهم طوق الخوف والرعب الذي كان يملأ نفوسهم آنذاك، وتعيد إليهم ثقتهم بالله ثمّ بأنفسهم.

لقد كان لابدّ من تضحية عزيزة نادرة تهز ضمائر المسلمين من الأعماق، وتعيد إليهم شخصيتهم وإرادتهم التي انتزعها النظام الأُموي منهم، وتشعرهم بعمق المأساة، وعمق المسؤولية.

وإن للدم والتضحية والفداء من الأثر في تحريك النفوس، وكسر حاجز الخوف، وإعادة الثقة إلى النفوس، والتحسيس بالمسؤولية ما ليس لغيره من عوامل التحريك. فإقدام الإمام على الخروج والثورة على النظام الأُموي، والمواجهة، والمجابهة لم يكن فقط لغرض رفض البيعة، وإعلان هذا الرفض، وإنما كان أيضاً لتحريك المسلمين، وتحسيسهم بالمسؤولية، وإعلان الموقف الشرعي، ودعوة المسلمين إلى المواجهة والمجابهة والمعارضة، والتمرد على النظام والسلطة الأُموية. والإنكار بالعمل والتضحية والقوّة من أهم شعب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رأى منكم منكراً، فلينكر بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فحسبه أن يعلم الله أنه لذلك كاره»[1].

---

١ ـ وسائل الشيعة ٦: ٤٠٧. دار إحياء التراث بيروت ١٣٩١هـ عن تفسير الإمام العسكري.

وروي عن عليّ عليه السلام إنه قال في صفين:

«أيها المؤمنون، أنه من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه، فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه، فقد أُجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف، لتكون كلمة الله العليا، وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق»(١).

والخروج والثورة لإنكار المنكر والأمر بالمعروف، ولتحريك المسلمين، وتنبيههم من أوضح مصاديق (الإنكار باليد)، وأقوى عوامل التحريك والتوعية في صفوف المسلمين.

وعندما نستعرض كلمات الإمام في مسيره من المدينة إلى كربلاء، نجد أن مسألة رفض البيعة، وإعلان الرفض كموقف سياسي ضد النظام الحاكم لا تعبّر عن كلّ أبعاد حركة الحسين عليه السلام وثورته، فهناك بعد آخر لهذه الحركة؛ هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتحريك المسلمين لمواجهة الطاغية ومجابهته وإسقاطه. وعنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنصر بارز في حركة الإمام الحسين عليه السلام كما نقرأ في زيارته **«أشهدُ أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر»**(٢).

يقول أصحاب السير أن الحسين عليه السلام لما تهيأ لمغادرة المدينة زار قبر جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وصلّى ركعتين، ثمّ قال: **«اللهم إن هذا قبر نبيّك محمّد، وأنا ابن بنت محمّد، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت.**

---

١ ـ وسائل الشيعة ٦: ٤٠٥ وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ٢: ٣٦٤ ـ ٣٦٥ المطبعة الحيدرية النجف ـ ١٣٨٦هـ ق.

٢ ـ زيارة وارث.

اللهم إني أحب المعروف؛ وأكره المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ هذا القبر، ومن فيه، إلا ما اخترت من أمري هذا ما هو لك رضا»[1].

وعندما نستعرض كلمات الإمام في مسيرته من المدينة إلى كربلاء؛ نجد أن الإمام يؤكد كثيراً في حركته هذه على عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الكثير من المواقف، ويعلن للمسلمين أن خروجه على بني أُمية لم يكن من أجل أن ينال سلطاناً أو ملكاً، وإنّما ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وفي وصيته عليه السلام التي أودعها عند أخيه محمد بن الحنفية قبل الخروج من المدينة إلى مكّة يقول:

«إنـي لـم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلـب الإصـلاح فـي أمّة جدّي محمّد صلى الله عليه وآله. أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمّد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب»[2].

وفي مكّة كتب الإمام نسخة واحدة إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، جاء فيها:

«وأنـا أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، فإن السنّة قد أميتت، وأن البدعة قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي، وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد»[3].

---

١ ـ الفتوح لابن الأعثم ٥: ٢٧. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٨. مقتل الخوارزمي ١: ١٨٦. ومقتل المقرّم: ١٣٠. ونفس المهموم: ٧٣.

٢ ـ مقتل الخوارزمي ١٠: ١٨٨، والفتوح لابن الأعثم ٥: ٣٣ ـ ٣٤. ونفس المهموم: ٧٤. ومعالم المدرستين ٣: ٦١، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

٣ ـ الطبري ٧: ٢٤٠، ومقتل المقرّم: ١٤٢ ـ ١٤٣، ونفس المهموم: ٩٠.

وفي منزل البيضة[١] في طريق العراق خطب الحسين عليه السلام في أصحابه وأصحاب الحرّ، فقال:

«أيها الناس أن رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله، ألا أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيّر»[٢].

وفي منزل «ذي حُسُم» (بالقرب من كربلاء)، خطب الحسين عليه السلام بعد أن حَمَدَ الله وأثنى عليه قائلاً:

«أنه قد نزل من الأمر ما قد ترون. وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، واستمرّت جذّاء فلم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحقّ لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه؟ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً»[٣].

ومما يؤكد عزم الإمام على الخروج والثورة؛ أن الإمام صادر أموالاً كان قد بعثها عامل يزيد على اليمن إلى يزيد «بالتنعيم» بالقرب من مكّة

---

١ ـ البيضة: ما بين واقصة الى عذيب الهجانات. وهي أرض واسعة لبني يربوع بن حنظلة.

٢ ـ تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠. ونفس المهموم: ١٩٠. ومقتل المقرّم: ١٩٧ـ ١٩٨. وفي بحار الأنوار ورواه باختلاف يسير بعنوان كتاب بعثة الإمام من كربلاء إلى أشراف الكوفة ٤٤: ٣٨١ ـ ٣٨٢. والفتوح لابن الأعثم ٥: ١٤٣ ـ ١٤٤.

٣ ـ تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١ وبحار الأنوار ٤٤: ٣٨١. ونفس المهموم: ١٩١.

المكرّمة. يقول الطبري:

«ثـم إن الحسـين أقـبل حـتّى مَـرَّ بالتنعيم، فلقـى بهـا عيراً قد أُقبل بها من اليمـن، بعـث بها مجير بن ريسان الحميري إلى يزيد بن معاوية، وكان عامله على اليمـن. وعلـى العـير الـورس والحـل، يُـنطلق بهـا إلـى يـزيد، فأخذهـا الحسـين عليه السلام، فـانطلق بها. ثمّ قال لأصحاب الإبل: لا أكرهكم، من أحب أن يمضـي معـنا إلـى العـراق أوفينا كراءه، وأحسنّا صحبته، ومن أحب أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكراء على قدر ما قطع من الأرض»[1].

وعلـيه فـإن حـركة الإمـام عليه السلام ـ كانت ذات بعدين: سياسي وحركي. في الـبُعد الأول، كـان هـدف الإمـام الحسـين عليه السلام رفـض الـبيعة، وإعـلان هـذا الـرفض علـى المجـتمع الإسـلامي ـ يومـذاك ـ والاسـتفادة مـن الجانـب الإعلامـي للرفض. وفي البُعد الثاني، كان الإمام يخطط للخروج على النظام الحـاكم، ومـا يسـمى الـيوم بـ«الـثورة المسـلحة»، والجهـاد المسـلح بهـدف تحـريك المجـتمع ضـد الظلـم، وإيقـاظ الأُمّـة، وبعـث روح الجهاد ومقاومة الظـالم فـي نفوسـهم ودفـع الناس للثورة على الظالم وإسقاطه، وكسر حاجز الخوف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهـذان الـبعدان واضـحان مـن كلمـات الإمـام ومواقفـه فـي مسيره مـن المدينة إلى كربلاء كما رأينا طرفاً من ذلك في هذه الدراسة.

وقـد كـان الإمـام خـلال هذه الحركة السياسية الجهادية على بيّنة من أمرين اثنين، لابدّ أن نشير إليهما، لنتمكن من رسم الصورة الكاملة للمسيرة الحسينية:

---

١ ـ تاريخ الطبري ٧: ٢٧٧. كذلك راجع الكامل لابن الأثير ٤: ٤٠ والبداية والنهاية ٨: ١٦٦. ومقتل الخوارزمي ١: ٢٢٠. ونفس المهموم: ١٧١ ـ ١٧٢. ومقتل المقرّم /١٨١.

الأمر الأول:

أن هذه الحركة ـ ببعديها السياسي والحركي ـ غير قادرة على إسقاط النظام الأُموي، فقد كان النظام الأُموي قوياً مرهوب الجانب، قد أعدّ له معاوية كلّ أسباب القوّة والمنعة، من مال وقوّة عسكرية، وإعلام، وإرهاب، وإدارة. ولم يكن الإمام عليه السلام بقادر ـ بما كان يتهيأ له يومذاك من أنصار ـ أن يقاوم قوّة الشام المركزية بصورة أكيدة.

كما أن النظام الأُموي استطاع خلال هذه المدّة أن يخمد جذوة الثورة في نفوس الناس، وأن يقنع الناس بأن من الخير لهم أن يؤثروا السلامة والعافية، على الثورة والتمرد على النظام، وأن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة والسمع والطاعة، ولا يفكروا في شيء من أُمور الدولة ونظامها، ولا ينقادوا لدعوات دعاة المعارضة. وقد أفلح معاوية بشكل خاصّ في تدجين الناس للنظام، وتثبيت رهبة النظام وسطوته في نفوس الناس، وتعويدهم على الاستسلام والرضوخ. وكان الإمام الحسين عليه السلام يعرف هذا جيداً ولا يجادل فيه، ولم يكن يأمل أن يجد في العراق جيشاً قوياً يدعمه في موقفه ضد سلطان بني أُمية، ويتبنى دعوته لإسقاط النظام، ويقف إلى جانبه، ويثبت، وكان يعلم جيداً أن هؤلاء الناس الذين تجمّعوا لدعوته وبيعته وكتبوا إليه سرعان ما ينقشعون أمام قوّة الشام والحكومة المركزية، ولا يبقى معه غير قلّة قليلة من شيعته الذين دبّ فيهم التفكك والضعف وروح الاستسلام والانهزامية. ولقد كان الإمام عليه السلام يعرف ذلك أيضاً معرفة جيدة. ولم يكن خروج أخيه الحسن عليه السلام لقتال معاوية، وما أصاب جيشه من التفكك والخيانة، واضطرار الإمام الحسن لإيقاف القتال ببعيد عنه، ولم يكن الإمام

الحسين عليه السلام يتوقع أن تتهيأ له من الظروف السياسية والقتالية أفضل مما توفرت لأخيه الحسن عليه السلام من قبل.

التحذير من الخروج إلى العراق:

ولم يكن يغيب عن الإمام الحسين عليه السلام ما كان يراه، ويذكّره به الكثير من شيعته والناصحين والمحبين له، ممن كان الإمام لا يتّهم نصحهم وصدقهم وفهمهم لساحة العراق. يقول ابن الأعثم (في الفتوح) والخوارزمي (في المقتل): قدم ابن عباس إلى مكّة وقد بلغه أن الحسين عليه السلام عزم على المسير، فأتى إليه، ودخل عليه مسلّماً، ثمّ قال له: جعلت فداك، أنه قد شاع الخبر في الناس وارجفوا بأنك سائر إلى العراق. فقال: نعم، قد أزمعت على ذلك، في أيّامي إن شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم. فقال ابن عباس: أُعيذك بالله من ذلك، وأنت تعلم أنه بلد قد قتل فيه أبوك واغتيل فيه أخوك»[1].

«ودخل عليه عمر بن عبد الرحمن بن هشام المخزومي فقال: يا بن رسول الله إني أتيتُ إليك لحاجة أُريد أن أذكرها، فأنا غير غاش لك فيها، فهل لك أن تسمعها؟ فقال الحسين: هات فوالله ما أنت عندي بسيء الرأي فقل ما أحببت. فقال: قد بلغني أنك تريد العراق، وأني مشفق عليك من ذلك. أنك ترد إلى قوم فيهم الأُمراء، ومعهم بيوت الأموال، ولا آمن عليك أن يقاتلك من أنت أحب إليه من أبيه وأُمه ميلاً إلى الدينار والدرهم، فقال له الحسين: جزاك الله خيراً يا بن عم. فقد علمتُ أنك أمرت بنصح.

١ ـ مقتل الخوارزمي ١: ٢١٦، والفتوح لابن الأعثم ٥: ١١١ ـ ١١٢.

ومهما يقضي الله من أمرٍ فهو كائن أخذت برأيك أم تركته»[١].

ولم يكن الإمام يكذِّب هؤلاء أو يتردد في كلامهم، وقد كانوا يؤكدون للإمام أن أهل العراق لا يثبتون طويلاً أمام جيوش الشام وإن العاقبة لن تختلف عن عاقبة الجيش الذي صحب أخاه الحسن عليه السلام من قبل.

كان الإمام يتقبل كلّ ذلك ويصدّقه من دون مناقشة أو تردد. يقول الخوارزمي: أن الإمام عندما بلغ «ذات عرق» في خروجه إلى العراق لقيه رجل من بني أسد: يقال له بشر بن غالب، فقال له الحسين عليه السلام: ممن الرجل؟ قال:من بني أسد. قال: فمن أين أقبلت؟ قال: من العراق. قال: فكيف خلفت أهل العراق؟ فقال: يا بن رسول الله خلفت القلوب معك، والسيوف مع بني أُمية. فقال له الحسين: صدقت يا أخا بني أسد. إن الله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»[٢].

وفي الطريق في منزل «الصفاح» لقي الإمام الفرزدق بن غالب الشاعر، «فواقف حسيناً فقال له: أعطاك سؤلك، وآملك فيما تحب. فقال له الحسين عليه السلام: بيّن لنا نبأ الناس خلفك. فقال له الفرزدق: من الخبير سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أُمية... والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. فقال له الحسين عليه السلام صدقت، لله الأمر، ويفعل ما يشاء، وكلّ يوم ربنا في شأن»[٣].

---

١ ـ الفتوح لابن الأعثم ٥: ١١٠ ـ ١١١، وباختلاف يسير مقتل الخوارزمي ١: ٢١٦.

٢ ـ مقتل الخوارزمي ١: ٢٢٠ ـ ٢٢١، ومثير الأحزان لابن نما: ٣١، والمقتل للمقرّم: ١٨٢ ـ ١٨٣.

٣ ـ تاريخ الطبري ٧: ٢٧٧ ـ ٢٧٨. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٥. وارشاد المفيد: ٢١٨. ومقتل المقرّم: ١٨٢. والكامل ٤: ٤٠. والفتوح لابن الأعثم ٥: ١٢٤ والنصّ للأول وبين النصوص اختلاف يسير.

ولما بلغ عبد الله بن جعفر سفر الحسين عليه السلام إلى العراق، أرسل إليه كتاباً مع ولديه عون ومحمّد يخبره بأنه خائف عليه من الوجه الذي يسير إليه (العراق)[١]، فلم ينثن الإمام عن عزمه.

ومع هذه التأكيدات التي ذكرنا طرفاً منها هنا، فإن من غير المعقول أن يغيب عن الإمام ما كان يعرفه هؤلاء الناس الذين لم يكن الإمام يشك في نصحهم وصدقهم وحبهم له. فلم يكن الإمام ـ إذن ـ يطمح في إسقاط نظام بني أُمية بهذه القوّة التي تطوّعت له في العراق. وكلّ القرائن التاريخية التي رافقت خروج الإمام تنفي هذا الاحتمال من الأساس. إذن لم يفكر الإمام في خروجه إلاّ بتوعية الرأي العام وإثارة سخط الناس ضد حكم بني أُمية، وتثوير المجتمع الإسلامي وتحريكه ضد سلطان بني أُمية، دون الإسقاط المباشر.

الأمر الثاني:

إن الإمام عليه السلام كان مصمماً على الشهادة، عالماً بأن غاية خروجه هذا هي الشهادة في سبيل الله، وكلّ القرائن التي رافقت حركة الإمام عليه السلام تؤكد هذه الحقيقة، فلم يكن من الممكن أن يترك بنو أُمية الحسين عليه السلام معلناً رفضه للبيعة، خارجاً على بني أُمية في رفضه وامتناعه عن البيعة. ولم يكن الإمام يقبل بالتنازل عن رفضه للبيعة، وإعلانه للرفض، وخروجه على يزيد، مهما بلغ الأمر في وقت لم تكن له قوّة تحميه. فليس بد ـ إذن ـ من الشهادة، إلاّ أن يتنازل الحسين عليه السلام عن رفضه للبيعة، والخروج على يزيد، ويتقبل بيعة يزيد أو يعتزل الساحة السياسية إلى بعض شعاب الجبال أو البوادي، وهو ما

---

١ ـ الكامل ٤: ٤٠. والطبري ٧: ٢٧٩. والفتوح لابن الأعثم ٥: ١١٥. والإرشاد للمفيد: ٢١٩ مكتبة بصيرتي ـ قم.

كان يرفضه الإمام رفضاً قاطعاً وأكيداً لا يقبل المناقشة. وكلمات الإمام في هذه المسيرة صريحة أيضاً على عزمه الأكيد على الإقدام على الشهادة.

ونذكر فيما يلي بعض النصوص:

أولاً: كان الإمام الحسينعليه السلام قد وعد أخاه محمّد بن الحنفية بأن ينظر في رأيه في الإعراض عن العراق، فلما غادرعليه السلام مكّة متوجهاً إلى العراق جاءه محمّد بن الحنفية، وأخذ بزمام ناقته، واستنجزه الوعد، فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟، قال: بلى. قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟، قال: أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً. فقال محمّد بن الحنفية: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. فما معنى حملك هؤلاء النسوة معك، وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ قال: فقال لي صلى الله عليه وآله: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا، فسلّم عليه ومضى[1].

ثانياً: لمّا عزم الإمام على الخروج من المدينة أتته أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ، فقالت: «يا بُني لا تحزنني بخروجك إلى العراق، فإني سمعت جدّك يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها كربلاء. فقال لها: يا أُماه أنا والله أعلم ذلك، وأني مقتول لا محالة وليس لي من هذا بد»[2].

ثالثاً: في الليلة الثانية (أو الثالثة) من دعوة الوليد الإمام إلى البيعة، ذهب الإمام إلى قبر جدّه رسول اللهصلى الله عليه وآله، وقضى الليل كلّه في الصلاة والدعاء،

١ ـ الملهوف: ٥٦. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤. ونفس المهموم: ١٦٤ ـ ١٦٥ ومقتل المقرّم: ١٧٤.

٢ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٣١. وقريباً من هذا المضمون في إثبات الوصية: ١٤١. ونفس المهموم: ٧٧. ومقتل المقرّم: ١٣٥.

«حتى إذا كان في بياض الصبح وضع رأسه على القبر، فأغفى ساعة، فرأى النبيّ صلى الله عليه وآله قد أقبل في كوكبة من الملائكة... حتّى ضم الحسين عليه السلام إلى صدره، وقبّل بين عينيه، وقال: يا بُني يا حسين؛ كأني عن قريب أراك مقتولاً مذبوحاً بأرض كرب وبلاء، من عصابة من أُمتي، وأنت في ذلك عطشان لا تُسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، ما لهم لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة»[1].

رابعاً: روي أن الإمام الحسين عليه السلام لما عزم إلى الخروج إلى العراق من مكّة، قام خطيباً، فقال: «الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله وصلّى الله على رسوله وسلم: خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت. لن تشذّ عن رسول الله لُحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تُقرُّ بهم عينه، وتنجز لهم وعده، من كان فينا باذلاً مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى»[2].

خامساً: يقول الإمام الصادق عليه السلام: لما مضى الإمام متوجهاً، دعا بقرطاس

١ ـ الفتوح لابن الأعثم ٥: ٢٧ ـ ٢٨. وقد أورد هذه الرواية آخرون كالمقتل للخوارزمي في ١: ١٨٦ ـ ١٨٧. والمجلسي في البحار ٤٤: ٣٢٨. ونفس المهموم: ٧٢ ـ ٧٣. ومقتل المقرّم: ١٣٠ ـ ١٣١. وروى الرواية أيضاً في معالم المدرستين ٢: ١٨٥ ـ ١٨٦. ط. ١٤٠٥ هـ.

٢ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦ ـ ٣٦٧. واللهوف: ٥٢ ـ ٥٣. و كذلك نفس المهموم: ١٦٣. ومعالم المدرستين ٢: ١٩٩. ولواعج الأشجان للسيد محسن الأمين:٦٣ مكتبة بصيرتي. والوثائق الرسمية لثورة الحسين: ٧٧ ـ ٧٨. دار التعارف للمطبوعات.

وكتب فيه إلى بني هاشم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي بن أبي طالب إلى بني هاشم. أما بعد فإنه من لحق بي منكم استشهد ومن تخلف لم يبلغ مبلغ الفتح والسلام»[١].

سادساً: كتب الإمام من كربلاء إلى أخيه محمّد بن الحنفية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي عليه السلام، إلى محمّد بن علي ومن قبله من بني هاشم. أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن، والآخرة لم تزل والسلام»[٢].

فالإمام ـ إذن ـ كان قد خرج بدافع إعلان رفض البيعة، وإعلان الثورة على يزيد، ولم تكن لدعوة أهل العراق أثر في مسيرة الحسين عليه السلام وحركته، إلاّ بقدر ما يتعلق بتحديد الجهة في حركة الإمام وسيره. ولما تبين الإمام أن القوم قد انقلبوا عن رأيهم وموقفهم عندما أعترضه الحرّ بن يزيد الرياحي بجيشه، عرض عليهم الحسين أن ينصرف عنهم إلى حيث يشاء من الأرض، على أن يختار هو عليه السلام الجهة التي يريدها، لا أن تفرض عليه من قبل ابن زياد. وقد عرض الإمام عليه السلام هذا الأمر على الحرّ مرتين يوم اللقاء، مرّة بعد صلاة الظهر ومرّة بعد صلاة العصر[٣].

---

١ ـ اللهوف: ٥٧. وكامل الزيارات: ٧٥. والمقتل للمقرّم ٤٨. ونفس المهموم: ٧٥ وفي الروايات اختلاف يسير في النصّ.

٢ ـ كامل الزيارات: ٧٥. المطبعة المرتضوية في النجف ١٩٥٦ ومثير الأحزان للجواهري: ٤٨.

٣ ـ الفتوح لابن الأعثم ٥: ١٣٥ ـ ١٣٧. والإرشاد للمفيد: ٢٢٤ ـ ٢٢٥. ونفس المهموم: ١٨٨ ـ ١٩٠. إلاّ أن رواية الإرشاد حددت المرتين قبل صلاة الظهر وبعد صلاة العصر من نفس اليوم، واتبعه في ذلك الشيخ عباس القمي في نفس المهموم.

وليس في كلام الإمام هذا إشارة إلى أنه أن انصرف عن العراق فسوف يكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة الناس للثورة ضد سلطان بني أُمية، أو يحتجب برأيه وموقفه السلبي تجاه بني أُمية في بعض شعاب الجبال أو ثغور المسلمين. ولم يتعهد الإمام للحر يومذاك بشيء من هذا، وإنّما طلب منه أن يتنحى عنه، حتّى ينصرف إلى حيث يشاء من أرض الله الواسعة. وقد ذكرنا قبل هذا كلمة عقبة بن سمعان ـ التي رواها الطبري ـ في امتناع الحسين عليه السلام من أن يضع يده بيد يزيد، أو يعتزل الناس في ثغر ناءٍ من ثغور المسلمين.

إذن.. كان الحسين عليه السلام مقدماً على إعلان الخروج على يزيد، على كلّ حال، وكان يبحث عن الفرصة التي تهي له هذا الإعلان، ووجد في دعوة أهل العراق وبيعتهم هذه الفرصة، وكان على يقين أن هذا الموقف السياسي والثوري سوف يكلفه نفسه والنخبة الصالحة من أهل بيته وأصحابه.. ولم يكن من ذلك بد. ولذلك فقد قدم الإمام على الشهادة راضياً مطمئن البال.

وكان هناك من شيعة الإمام الناصحين له من كان يحمل رأياً آخر يختلف عن رأي الإمام، ويعتقد أن الإمام إذا خرج وقُتل انتهكت بقتله حرمة الإسلام، ولا يحترم بعده بنو أُمية أحداً من وجوه المسلمين وأعلامهم، ومن هؤلاء ابن عمه عبد الله بن جعفر، وكان ممن لا يشك الإمام في صدقه ونصحه، أرسل إلى الإمام كتاباً مع ولديه عون ومحمّد ـ كما أسلفنا ـ والإمام في طريقه إلى العراق، يقول فيه للإمام:

«فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك. إن هلكت اليوم أُطفيء نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء

المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي»[1].

ومنهم عبد الله بن مطيع العدوي؛ التقى الإمام في الطريق إلى العراق على ماء من مياه العرب، فقال للإمام:

«بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ما أقدمك؟ فقال له الحسين عليه السلام: كتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم. فقال له عبد الله بن المطيع: أُذكرك الله يا بن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أُمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً»[2].

وكان الإمام عليه السلام يرى على خلاف هؤلاء، أن الشهادة هي الفتح، وأن هذه الأُمّة لا يمكن تحريكها، ولا يمكن أن تُبعث فيها الحياة والحركة والعزم من جديد، إلاّ بشهادته وشهادة النخبة الطاهرة من أهل بيته وأصحابه. وقد كتب بذلك إلى أخيه محمّد بن الحنفية: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى محمّد بن علي ومن قبله من بني هاشم، أما بعد، فإن من لحق بي أستشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام»[3].

وليس من الممكن الإجابة بأفضل من هذا الجواب: فمن لحق بالحسين عليه السلام لابدّ أن يستشهد ومن لم يلحق به فاتته الشهادة، وهي الفتح الذي لا يشك به الحسين؛ عندما ينظر إليها في امتداداتها البعيدة، والنتائج

---

١ ـ الكامل ٤: ٤٠. والطبري ٧: ٢٧٩. والبداية لابن كثير ٨: ١٦٣. والإرشاد للمفيد: ٢١٩. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦. ومقتل المقرّم: ١٧٤ ـ ١٧٥، ومقتل الخوارزمي ١: ٢١٨. ولواعج الأشجان: ٧٧ ـ ٧٨.

٢ ـ الطبري ٧: ٢٩٠. وبحار الأنوار ٤٤: ٣٧١. ونفس المهموم: ١٧٩. ومعالم المدرستين ٢: ٢٠٢. وجاء في المصدر السابق ٣: ٦٣ «لا يهابون بعدك أحدا أبداً».

٣ ـ كامل الزيارات لابن قولويه: ٧٥، الباب الثالث والعشرون. واللهوف: ٥٧، ومقتل المقرّم: ٤٨. ونفس المهموم: ٧٥.

التي تحققها في حياة المسلمين.

فلولا شهادة الحسين عليه السلام والنخبة المؤمنة التي خرجت معه إلى العراق، والهزة العميقة التي أحدثتها في وجدان الأُمّة وضميرها... لمضى بنو أُمية في غيّهم وطيشهم وعبثهم بمقدرات الأُمّة ورسالتها. بيد أن شهادة الحسين عليه السلام أعادت الأُمّة إلى وعيها ورشدها وأحسّتها بمسؤوليتها الشرعية في مواجهة طغيان بني أُمية وضلالهم.

يقول الشيخ جعفر التستري رحمه الله في كتابه القيّم «الخصائص الحسينية»:

(فلو كان الحسين يبايعهم ـ بني أُمية ـ تقية، ويسلم لهم، لم يبق من الحقّ أثر، فإنّ كثيراً من الناس اعتقدوا أنه لا مخالف لهم في جميع الأُمّة، وأنهم خلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله حقّاً. فبعد أن حاربهم الحسين عليه السلام وصدر ما صدر إلى نفسه، وعياله، وأطفاله، وحرم الرسول، تنبّه الناس لضلالتهم، وأنهم سلاطين الجور، لا حجج الله وخلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله»[1].

وقد سأل إبراهيم بن طلحة بن عبد الله الإمام زين العابدين عليه السلام عن الغالب في معركة الطف حين الرجوع إلى المدينة. فقال الإمام زين العابدين عليه السلام:

«إذا دخل وقت الصلاة، فأذّن وأقم، تعرف الغالب»[2].

وجواب الإمام السجاد عليه السلام دقيق متين، لمن يتمكن أن ينفذ من ظواهر الأحداث وسطحها إلى الأعماق، وعندما يتمكن الإنسان من رؤية الامتدادات والنتائج البعيدة للأحداث.

---

١ ـ الخصائص الحسينية للشيخ جعفر التستري: ٤٤. المطبعة الحيدرية في النجف ١٩٥٦م.

٢ ـ مقتل المقرّم: ٤٨. عن أمالي الشيخ الطوسي: ٦٦. مكتبة الداوري ـ قم.

الفهرس

وارث الأنبياء

إنقلابان في رحاب عاشوراء

الفئات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام

التوطين للموت

مناقشة المواقع الثلاثة على خارطة الصراع

الأبعاد السياسية والحركية لثورة الإمام الحسين عليه السلام